إننى مغرم بأن اغيظكم معى ولا أريد أن "أطق من الغيظ وحدى وأريد أن آخذكم معى إلى غرفة التأمل وإعادة النظر والغربلة لمفاهيم ومصطلحات تلوكها ألسنتنا ولا نعرضها على قلوبنا وعقولنا نستفتيها فيها.. ومن تلك المصطلحات والمفاهيم عبارة أو جملة أكره ترديدها بشدة.. فكلما خرج علينا الغرب بموضة أو تقليعة أو نظرية أو اكتشاف علمى يقول قائلنا بسرعة البرق: لقد سبق الإسلام الغرب وتوصل إلى هذه النظرية أو هذا المبدأ منذ أربعة عشر قرنا.. نقول ذلك عن دعوة الغرب إلى حقوق المرأة وحقوق الإنسان وحقوق الحيوان.. وعندما كنا اشتراكيين وشيوعيين قلنا إن الإسلام سبق لينين وماركس بأربعة عشر قرنا وطبق الاشتراكية والشيوعية.. وعندما اصبحنا رأسماليين قلنا إن الإسلام سبق فلاسفة الرأسمالية بأربعة عشر قرنا وأعلى شأن الملكية الفردية وباع القطاع العام وخصخص كل شىء - وجعلنا بعض الصحابة اشتراكيين وشيوعيين من أمثال عمر بن الخطاب وأبى ذر الغفارى رضى الله عنهما.. ثم جعلنا بعض الصحابة الآخر قادة للرأسمالية والخصخصة من أمثال عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف رضى الله عنهما.

وأذكر أن أحد الدعاة جلس بين مريديه "الغلابة" وقال: كنت فى أمريكا وتحدثت مع أحد علمائها فقال لى: كنا فى الماضى نظن ان اللحم يتكون قبل العظام فى الجنين حتى توصلنا مؤخراً إلى ان العظام تتكون اولا.. فقال الداعية بكل ثقة: فضحكت من قوله وأخبرته بأن الإسلام سبقهم بأربعة عشر قرنا حيث قال الله تعالى فى سورة المؤمنون: "فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما" ففغر العالم الأمريكى فاه حسب قول الداعية وتساءل فى دهشة: هل قال القرآن ذلك فعلا؟ فأجاب الداعية: نعم.. فبكى العالم الأمريكى قائلا: اشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله - وعندما سمع جلساء الشيخ الغلابة قوله هتفوا بصوت واحد: الله أكبر - الله أكبر.

أما أنا فيسامحنى الله لأننى ضحكت ولم أكبر وعرضت الأمر على كل جوارحى المتمردة فلم تحرك ساكنا.. وتدافعت الأسئلة إلى رأسى: هل دار الحوار بالانجليزية أم بالعربية؟ وهل تلا الشيخ الآية بالعربية؟.. وهل رواية الشيخ مدح فى عقليات الغرب أم مدح لقدراته هو على الاقناع وهداية الضالين؟ ولو كان الأمر بهذه البساطة والسذاجة لأصبحت أمريكا دولة إسلامية فى اسبوع "وماكانش حد غلب".

ويبدو ان بعض دعاتنا "شجرة مرة تطرح بره" أو أنهم انبياء ولا كرامة لنبى فى قومه فهم عاجزون عن هدايتنا بينما هم قادرون بين طرفة عين وانتباهتها على تحويل أمريكا إلى أمة إسلامية.

وكلام كثير من الدعاة والعلماء فى أمتنا ربما يصلح قصصا للاطفال.. ومن يتأمل هذا الكلام يجد فيه شعوراً بالدونية الشديدة والإحساس بالنقص والعجز تجاه الغرب.. فلا توجد لنا وظيفة سوى تفصيل الإسلام على مقاس نظريات الغرب.. فكلما قال الغرب قولا بادرنا بالتأكيد أن الإسلام قال نفس الكلام منذ أربعة عشر قرناً.. ولم يكلف أحد نفسه مشقة الشك فيما توصل إليه الغرب من مفاهيم ونظريات ربما تكون كلها بلا قيمة ولا أساس.

فالغرب أصبح دار الافتاء للأمة الإسلامية التى تبادر فوراً بالتسليم بالفتاوى الغربية وإجبار الإسلام على اعتناقها والتسليم بها.. وهو نوع من النفاق الرخيص والادعاء الساذج بالتحضر ومسايرة العصر والافتراء على الدين والاجتراء المقيت على الشريعة.

وإننى لا أجد فى نفسى أى حرج أو تردد حين أفاجئكم بقول مخالف حتى لو قيل إننى أخالف لأعرف - وقولى المخالف هو ان الإسلام لم يسبق الغرب بأربعة عشر قرنا فى كثير من التقاليع التى يتحدث عنها "الخواجات" ومنها حقوق الإنسان.. فالإسلام لم يعرف حقوق الإنسان ولم يتحدث عنها ولم يسبق بها الغرب ولا توجد فى الإسلام حقوق للإنسان ولا إعلان عالمى لحقوق ذلك الإنسان.

ومن يقرأ قولى هذا فسوف يستغفر الله .. وأسأله ان يستغفر الله لى وله لأننى مصمم على قولى.. فإننى أرى ان حقوق الإنسان دعوة تحريضية هدفها إثارة القلاقل والفتن وهى ورقة سياسية أراد بها الغرب إذلال الدول والأمم الصغرى والتدخل السافر فى شئونها وفرض اجندته عليها.. وهو يغض الطرف عن حقوق الإنسان حيث يرضى ويستخدمها كعصا حين يغضب.. والقول الذى نردده بأن الإسلام سبق الغرب بأربعة عشر قرنا فى الدعوة لحقوف الإنسان.. مجرد محاولة خبيثة لاعطاء شرعية لأمر غير شرعى - وما هكذا تورد الابل - وسلامة القصد والنية لاتعفى من المساءلة على المشاركة فى الجرم الغربى.

والإسلام ياسادة ياكرام ليس دينا تحريضيا ولا يكيل بمكيالين ولا هو نسيئا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً.. فقد حل الإسلام المشكلة بأبسط مما يتصور الغرب والشرق لأن الإسلام ببساطة شديدة دين واجبات وليس دين حقوق.. فلم يرد فى أى نص إسلامى دعوة للإنسان بأن يأخذ حقه وإنما ورد فيه وفى كل نصوصه دعوة إلى أداء الواجب.. لتكون المحصلة أن واجبك الذى تؤديه هو حق غيرك ومن ترك حقاً لا يأثم بينما يأثم من ترك واجباً.. وعندما قال القرآن "وفى اموالهم حق للسائل والمحروم" لم يدع السائل

والمحروم إلى أخذ حقهما بمظاهرات واعتصامات وانما دعا الأغنياء إلى أداء هذا الحق.. فالحق فى الإسلام هو الواجب.. ولو أدى كل منا واجبه لأخذ كل منا حقه.. والإسلام يوجه خطابه إلى من عنده الحق لا إلى من له الحق.

ويشن الأغبياء حملة على قوامة الرجال على النساء باعتبارها تمييزاً ضد المرأة لصالح الرجل بينما الواقع يؤكد أن القوامة مسئولية وواجب وليست حقاً للرجل.. فهى دعوة إلى أن يؤدى الرجل واجبه وليست دعوة إلى أن تأخذ المرأة حقها.. والقوام صيغة مبالغة من القائم.. ومن الفعل قام.. أى أن الرجل كثير القيام من أجل المرأة تماماً مثلما هو قوام للصلاة.. وفى هذه الصيغة دلالة على الخدمة والتعب والمعاناة من أجل المرأة.. فالرجل قوام على امرأة جالسة أو نائمة أو قاعدة فى البيت.. فهو خادمها وراعيها والأصوب لمن أراد أن يتأول أن يقول إن القوامة تمييز ضد الرجل لصالح المرأة.

ويسخر الاغبياء من تسمية المرأة حرمة.. ويقولون قولا سخيفاً وسطحياً: نحن لسنا فى عصر الحريم أو الحرملك.. رغم ان اسم الحرمة هو الأعظم والأحق بأن تمسك به المرأة فهى فى منزلة البيت الحرام والبلد الحرام والشهر الحرام.. وذلك أعظم توقير وتكريم لها والرجل الذى يموت دون حرمته شهيد.. ولا جناح على امرأة تهرب وتترك زوجها للقتل بينما يأثم الرجل الذى يهرب ويترك زوجته للقتل أو الاغتصاب.

والدرس الذى تعلمناه من الغرب هو أن نأخذ حقوقنا بالقوة ولا نؤدى واجباتنا التى هى حقوق الآخرين.. ويؤدى هذا الدرس إلى أن تصبح الحياة كلها حقوقا بلا واجبات ويقود ذلك إلى أن يأخذ المرء حق غيره لأنه الاقوى والأعلى صوتاً والأكثر نفيراً.. كما يصل الأمر إلى أن نطالب فقط بحقوقنا فى الخطأ والانحراف والرذيلة فتصبح هناك حقوق للشواذ جنسياً والمثليين والعلاقات خارج الزواج الشرعى وحق الحب وحق قلة الأدب وحق الخيانة الزوجية وحق استبداد الحاكم وحقه فى السمع والطاعة لكل ما يقول.. وكل ذلك لأن كلمة حقوق خفيفة ولذيذة وتعنى توصيل الحقوق إلى المنازل.. أما كلمة واجبات فهى ثقيلة وكريهة لأنها تعنى السعى والعطاء.. والغرب يدعو إلى الأخذ بينما الإسلام يدعو إلى العطاء.. ويصل الأمر بمن من الله عليهم بعمق الإيمان إلى اعتبار أداء واجباتهم حقوقا لهم.. فهو يعطى السائل أو المحروم ويشكره لأنه أخذ منه.. وهو يقضى حوائج الناس فى عمله ويشكرهم لأنهم مكنوه من أداء واجبه "إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا".. انما سبق الأولون وتفوقوا وبنوا الأمجاد بتسابقهم على أداء الواجب لا تكالبهم على أخذ الحقوق ولا تنسوا هؤلاء الذين فاضت أعينهم من الدمع لأن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لم يجد مايحملهم عليه للجهاد.. فقد بكوا لأنهم اعتبروا واجبهم فى الخروج للجهاد حقا لهم والمرء لايبكى على واجب لم يؤده ولكنه يبكى على حق فاته وحرم منه.

المرء لا يحتاج إلى أى جهد لاقناعه بانتزاع حقوقه وحتى سرقة حقوق غيره بينما تفشل كل الجهود لاقناعه بأن يؤدى واجبه.. فما أعظم الدين الذى استطاع اقناع الناس بأن واجباتهم التى يؤدونها حقوق لهم.. حتى يتسابقوا على الشهادة باعتبارها حقا لهم وليست واجباً ثقيلا وعبئا يهربون منه.

وما أعظم الدين الذى لم يشاده أحد إلا غلبه - وفى ذلك ايضا قول فاسد يردده البعض كلما اخطأ ووقع فى الرذيلة والحرام حيث يقول: ياأخى الدين يسر وهو لا يعى ان يسر الدين حجة علينا وليس حجة لنا.. والسؤال الذى سيقذف المسئول فى النار: لقد قلت إن الدين يسر ومع ذلك تماديت وأخطأت ولم تؤد واجبك.. فما حجتك؟

إن الذين يطالبون بالحرية باعتبارها من حقوق الإنسان اكثرهم لا يعقلون.. فهم يطالبون بحرية الحيوان لا بحرية الإنسان.. لأنهم يريدون حرية بلا مسئولية وبلا قيم.. يريدون حرية الفوضى والخطيئة.. ولايعنيهم جرح الآخرين والاعتداء على حرياتهم وهتك عرض المجتمع وإهدار قيمه وأخلاقه.. يريدون ان يمارسوا لعبة الشطرنج بلا قواعد فيحركوا الفيل نفس حركة الطبية ويريدون الجندى كالوزير وهكذا تفقد اللعبة جمالها وتسويقها وتصبح لعبة بلا نهاية لانها بلا قواعد.. وهؤلاء ليسوا أحرارا كما يتصورون وانما هم عبيد لنزواتهم وغرائزهم وهواهم.

والذين يمتلكون مساحات فى الصحف يقولون فيها بهتانا وزورا تحت عنوان حرية التعبير وحق القول لايدركون أن هذه المساحات ملك للقراء وليست عزبة آبائهم وأبعدية أجدادهم.. وأن هناك عقدا غير مكتوب بين القارىء والكاتب ينص على ألا يستخدم الكاتب المساحة التى اعطاه إياها القارىء فى قضاء مصلحة خاصة أو مدح من اعطاه وابتزاز وقدح من منعه.. فلا ينبغى مثلا أن يستخدم الصحفيون هذه المساحات فى شتم بعضهم أو الاشادة بطبيب أجرى للصحفى جراحة أو اهتم بأمه فى المستشفى أو ذم مسئول رفض أن يعطيه أو يعطى أخاه تأشيرة بتخصيص قطعة أرض.. أو مغازلة حزب أو حكومة من اجل اعطائه منصبا أو موقعا.. فهذا الصحفى إذا فعل ذلك يكون قد اخل بواجبه وسلب حق القارىء ومارس النصب والاحتيال عليه تحت مسمى حرية التعبير والحق فى أن اقول مايعن لى.. وانسى ان ما يقال فى الغرفة المغلقة وفى المذكرات الخاصة لا ينبغى قوله على الملأ وفى مساحات ليست ملكاً لى ولا لأهلى.

المشكلة التى خلقها الغرب بنظرياته وقيمه واجنداته هى اختفاء الخيوط الرفيعة بين الصواب والخطأ وبين المحظور والمباح وبين الحرية والفوضى وبين الجرأة والوقاحة وبين الشجاعة والتهور والحماقة.. حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفا وحتى صارت الدعوة إلى التأمل والتريث وإعادة النظر مجرد أذان فى مالطا ونفخ فى قربة مقطوعة.. وقد أسمعت إذ ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى.

أنا مدمن مشروبات روحية!!

لا أطيق متابعة ذلك الرجل الذى يفسر الأحلام ولا المذيعة الفضائية التى تستضيفه ولا الحالمين والمحتلمين الذين يتصلون بهما.. لكن هؤلاء جميعا هم نجوم المرحلة ورموز العصر وقادة سفينة الزمن الذى نعيشه أو نعيش على هامشه.. فالعنوان الرئيسى الذى يتصدر الصفحة الأولى وكل صفحات كتاب زماننا هو الدجل الذى اتخذ الصفة الرسمية والشرعية الدولية بعد أن كان شعبيا فى الماضى.. وبعد أن كان الدجل طريدا ومنبوذا وتلاحقه الشرطة صارت له حصانة.. وكل منا صار دجالا أو ضحية دجال.. وأصبح الدجل سيد قراره وفارس أوانه بعد أن طرد الصدق والحق والجدية من المشهد العام.

واستشراءالدجل يعنى أن الناس أصابهم اليأس من الواقع فدخلوا دنيا الخرافة ونفق الشعوذة أفواجا.. كما أن الصورة القديمة للدجال تغيرت.. فلم يعد ذلك الذى يطلق البخور ويشعل النار ويقول كلاما غير مفهوم ويطلب مطالب مستحيلة لفك العمل والمربوط.. فالدجالون الآن يرتدون آخر صيحة فى الموضة ويحملون أعلى الشهادات ويحتلون أرفع المناصب.. كما أن الشعوذة صارت تخصصات.. فهناك الشعوذة السياسية على مستوى العالم وعلى مستوى كل دولة على حدة.. وهناك الدجل الدينى الذى يطلق شعارات "الإسلام هو الحل" و"العلاج بالقرآن".. وهو فرع مهم من فروع الدجل السياسى.. وهناك الدجل الطبى وهو سيد الدجل كله وقمته.

والدجالون فى كل التخصصات والفروع يجمعهم أمر واحد هو الضحك على الناس واللعب فى أدمغتهم بالباطل وهم يتفقون فى الهدف ويختلفون فى الوسائل فمنهم من يصف العلاج بالأوزون أو العلاج بالقرآن أو بالإسلام أو العلاج بالديمقراطية والليبرالية وحقوق الإنسان أو بتفصيل القوانين والتشريعات أو بالوصفات الاقتصادية أو شفط الدهون من أجل شفط الفلوس.

وأخطر أنواع الدجل هو الدجل باسم الدين لأن الدجال فى هذا التخصص لا يجد صعوبة فى إقناع الناس وجرهم إلى حيث يريد لأننا بطبعنا متدينون.. لذلك يرتعد الناس خوفا إذا قلت لهم إن العلاج بالقرآن دجل ولا يتركونك تسوق حجتك على ما تقول وما تزعم.. وحجتنا فى القطع بأن العلاج بالقرآن دجل تساوى حجتنا على أن التسول بالقرآن جريمة.

فالقرآن الكريم أكرم وأعظم وأجل من أن يتحول إلى صيدلية ترص الآيات رصا على أرففها.. فهذه آيات لعلاج الصداع وأخرى لعلاج العقم وسورة لعلاج السرطان.. وأخرى توضع على الصدر لمنع الحسد.. فالقرآن كله شفاء لما فى الصدور.. والشفاء غير العلاج.. لأن الشفاء مؤكد والعلاج احتمالى قد يصلح وقد لا يصلح.. والعلاج وسيلة والشفاء غاية والقرآن ليس وسيلة ولكنه غاية.. والمولى - عز وجل - لم يقل إن القرآن علاج ولكنه قال إنه شفاء.. مما يعنى أن استخدام القرآن كوسيلة دجل وشعوذة.

ولماذا يقرأ لى القرآن غيرى ليعالجنى أو يشفينى؟ لماذا لا أقرأه أنا على نفسى ولنفسى وبلا مرض ولا وجيعة ولكن أقرأه كفاية وهدف لشفائى من أمراض معنوية لا عضوية؟ ومن قال إن المرض العضوى شر كله؟ مرض القلوب وسقم الوجدان وظلام الروح هو الشر كله.. وهذا لا شفاء منه إلا بالقرآن كله وليس بعضه.

وكيف يكون مباحا أن يضع أجنبى يده على رأس امرأة ليقرأ لها القرآن من أجل علاجها؟ وهذا الذى احتكر لنفسه القدرة على العلاج بالقرآن ألا يزكى نفسه بينما القرآن يدعونا إلى عدم تزكية النفس لأن الله أعلم بمن اتقى؟ وكيف يمكن أن يتحقق الشفاء بالقرآن لامرىء لا يتلو منه آية ولا يؤدى فريضة ولا تربطه بالدين إلا بيانات بطاقته الشخصية؟ وماذا لو لم يتحقق العلاج المأمول بالقرآن ومات المريض؟ هل نحكم بالفشل على القرآن أم الأوفق أن نحكم بالدجل والشعوذة على من عالج به؟.

والوهم فى كل الأحوال عندما يروج فإن مسئولية رواجه لا تقع على من يبيعه بقدر ما تقع على من يشتريه وباعة الترام نجحوا لأن المغفلين كثر.. وباعة الترام لم يعودوا أفرادا بل صاروا دولا وحكومات.. والنظام العالمى الجديد يمكن أن نطلق عليه "نظام بيع الترام" أو "بيع العتبة الخضراء".. فالغرب يبيع لنا مائة ترام فى اليوم الواحد مثل ترام السلام وترام الديمقراطية وترام الشرق الأوسط الذى صار مقاسات "الشرق الأوسط الكبير - وشرق أوسط لارج أو إكس لارج".. والعيب ليس على من يطبخ "الأونطة" ولكن على من يأكلها.. وضحايا أكل الأونطة بالمئات ولن تكون الفنانة سعاد نصر آخرهم كما لن تكون سوريا أو إيران آخرهم أيضا.

وعندما تمد الدجل على استقامته فإن كل أنواعه تتقاطع فى نقطة واحدة ولا فرق بين أن يكون الضحية فردا أو شعبا أو دولة.. ويبدو أن المسيخ الدجال على وشك الظهور لأنه أرسل فرق استطلاع على شاكلته تعيث فسادا ودجلا فى العالم كله الآن حيث صارت الشعوذة قاعدة والمنطق استثناء شاذا لا يقاس عليه.. فالدجل يحكم الفن الآن لأنك لا ترى سوى "سيما أونطة" وأبطال من ورق ونجوم

من قش ودراما التليفزيون وبرامجه دجل متواصل على مدى أربع وعشرين ساعة.. وهناك الدجل الثقافى والأدبى والفكرى والصحفى.. ولا خوف من الدجل نفسه لأنه نشأ منذ خلق الله الأرض ومن عليها وإلى أن يرثها ويرث من عليها.. لكن المشكلةأن الناس فقدوا مناعتهم وفقدوا القدرة على الفرز والانتقاء والشك ولم تعد لدينا فضيلة الدهشة والاستنكار والحذر وصرنا نتلقى بلا مقاومة ولا صد.. كما أن قبضتنا على صحيح ديننا وقيمنا تراخت لأننا قابضون على جمرة من نار.

وقد قال لى أحد الأصدقاء إن ما يجرى فى العالم الآن من دجل وشعوذة وبهتان هو السيناريو الذى يريده الله ويؤذن باقتراب الزمان وهو إرهاصات لقيام الساعة حيث ضعف الإنسان والنهى عن المعروف والأمر بالمنكر وشيوع الفاحشة والرذائل وأن يمسى المرء مؤمنا ويصبح كافرا وأن تتعدد الفرق والنحل والمذاهب وتتعارك وأن تصبح أمتنا كغثاء السيل وأن يملأ قلوبنا الوهن وهو حب الدنيا وكراهية الموت.. ولا سبيل إلى دفع ذلك كله بقول أو فعل.

وقلت لصديقى: ولكن من كانت بيده فسيلة وقامت عليه القيامة فليزرعها ولا يبالى.. وحسبك من الخير أن تكره الشر.. وحسبك من الحق أن تنكر الباطل.. وحسبك من المنطق السليم أن تستهجن الدجل ومت وأنت كاره للبهتان والزيف خير لك من أن تسلم به على أنه واقع أو تقع فيه لأنه شائع.. ولا ينبغى لمن رام الصلاح وجاهد للإصلاح أن يحصد الثمار.. ولا يتطلب الأمر أن ينهال على معاقل الباطل بدبابة أو صاروخ أو بلدوزر ليدرك بغيته وهو حى يرزق.. والمصلح الحق يحفر تحت صرح الفساد بإبرة.. مجرد إبرة صغيرة إلى أن يسقط ميتا ويرث الإبرة غيره ليحفر بها حتى يسقط الصرح الفاسد بعد ألف عام من الحفر بالإبرة.. وليس المطلوب أن تأتى الله ببناء سليم أقمته ولكن المطلوب أن تأتيه بقلب سليم حفظته.. والذين يطلبون منك أن تكف عن ذكر السلبيات وأن تتحدث عن الإيجابيات.. قل لهم إن من أعظم الإيجابيات أن يعرف الناس السلبيات وأن يستنكروا الخطأ وأن ترى على الوجوه امتعاضا من الزيف والدجل والبهتان.. وأعظم الحب للوطن أن تهدى إليه عيوبه.. وأن تنصر أخاك الظالم بأن تأخذ على يده فتمنعه من ظلمه.. وأنا لا أكره الأشرار ولكنى أكره لهم الشر.. ولا أحقد على أهل الباطل ولكنى أشفق عليهم من باطلهم ولا أخاف المستبدين ولكنى أخاف عليهم من استبدادهم وإن من أعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.. حبا له وحرصا عليه وأملا فى أن يفيق لا طلبا للموت أو هى عملية انتحارية.. وأنا لست بلا خطايا حتى أرمى المخطئين بحجر.. لذلك أحب أعدائى كما قال لى الإنجيل.. وحب الأعداء يعنى أن تطلب أن يهديهم الله لا أن تطلب "أن يهدهم".. أقول لهم "ربنا يهديكم" ولا أقول: ربنا يهدكم.. ولو نظر المسلم والمسيحى واليهودى إلى فوق لالتقوا.. ولكنهم ينظرون

تحت أقدامهم فيختلفون.. ولو أسلم المسلمون كما يجب وتنصر النصارى كما ينبغى وهاد اليهود كما أنزل الله.. لقال الجميع "إن الإيمان هوالحل" .. ولم يقل أحدهم إن "الإسلام هو الحل" ويقول الآخر "إن الإنجيل هو الأول والأخير" ويقول الثالث "إن اليهود هم شعب الله المختار" .. فالدين واحد والأهواء شتى لذلك جعل الناس القرآن والإنجيل والتوراة وسائل واتخذوا أهواءهم آلهة فضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .. وظهر أناس يكفروننا جميعا ونسوا أن من قال لامرىء "يا كافر" فقد باء بالكفر أحدهما .. قائل الكلمة أو سامعها.

وإذا افترضنا أن هؤلاء الدجالين الذين يكفروننا ويرموننا بالردة والخروج من الملة أنبياء.. فإننا نكون منافقين لا كفرة.. والمنافقون لا يجوز قتلهم وإهدار دمهم.. لأن النبى – صلى الله عليه وسلم – لم يقتل المنافقين رغم أن الله أنبأه بخبرهم وهو نبأ يقين.. ونحن جميعا منافقون.. نخلف الوعد ونكذب فى الحديث ونغدر فى العهد ونفجر فى الخصومة ونلمز فى الصدقات فإذا أعطينا من الصدقات والمكافآت والمناصب والترقيات رضينا وإذا لم نعط منها سخطنا ونقوم إلى الصلاة كسالى ونبنى مساجد ضرارا وعندما نقول يسمع الناس لقولنا فإذا تولينا سعينا فى الأرض لنفسد فيها ونهلك الحرث والنسل ونحن مذبذبون لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء – ولو لم يتغمدنا الله برحمته ربما نكون فى الدرك الأسفل من النار – ومع ذلك فإن دماءنا حرام وأعراضنا حرام.. ولا يوجد أى نص يبيح قتل المنافقين ومن قال لى يا كافر.. فقد وقع فى الكفر أو وقعت فيه.. فليقل لى يا منافق لأنه يكون قد أصاب كبد الحقيقة لكن قتلى لا يجوز.. لأن قتلى يعنى جريمة يقينية على تهمة ظنية.. مثل الذين قتلوا عم رمضان الذى افتتح محلا للعصير فى أحد الأحياء الشعبية زمان واختار له اسما للدعاية حيث علق على واجهته لافتة تقول: "مشروبات روحية" فهجم مجموعة من الملثمين على محل عم رمضان ومزقوه شر ممزق لأنه يبيع الخمور ويجاهر بارتكاب الكبيرة.. وبعد فوات الأوان تبين أن عم رمضان لديه ثلاث بنات.. الكبرى رسمية والوسطى رضية وآخر العنقود روحية التى سمى محل العصير باسمها .. "مشروبات روحية" .. وهكذا فقد عم رمضان حياته بسبب الفتحة التى قرأها القتلة ضمة على الراء وفى صحتكم!!.

الكتابة فى الوقت الضائع!!

الدنيا كرة أو الدنيا "كورة فى هوا".. لا صوت يعلو على صوت كرة القدم إذا دعت نلبى وإذا قالت نسمع وإذا ابتسمت نرقص وإذا غضبت علينا نبكى.. وكل الأحداث توارت خلف بطولة الأمم الأفريقية.. كل الأحداث صارت فى الهامش وعلى الرف وتركت البؤرة لمونديال أفريقيا.. معرض القاهرة الدولى للكتاب صار نسيا منسيا.. وانقلاب حزب الوفد لم يلفت الأنظار المتجهة صوب الملاعب ولم يحرك العقول المشغولة بعد النقاط وحسبة برمة.. لكن أى حدث صغير فى الحزبين الكبيرين الأهلى والزمالك يقلب الدنيا رأسا على عقب.

ونحن لسنا بدعة فى جنون كرة القدم فهو وباء عالمى أشد وطأة من أنفلونزا الطيور والاتحاد الدولى لكرة القدم.. يحكم العالم وهو أقوى عشرات المرات من الأمم المتحدة ومن الولايات المتحدة ولا مجال للهجوم على مجانين كرة القدم لأننى واحد منهم لكن الساحرة المستديرة كما يسمونها تأخذنى إلى حديث مرتبط بها أو مترتب عليها.. وهو حديث عن خيبة العرب القوية فى كرة القدم وفى أى لعبة جماعية.. فهم لم يحققوا بطولة دولية ذات وزن فى أى لعبة جماعية لكنهم أنجبوا أبطالا عالميين ومازالوا ينجبون هؤلاء الأبطال فى ألعاب فردية.. وهناك أبطال عالم من العرب فى السباحة والمصارعة وألعاب القوى وكمال أو بناء الأجسام والتنس والاسكواش وسباقات السيارات.. والأسباب عندى للنجاح هنا والفشل هناك ربما ليست خافية عليكم.. فالعرب يفشلون دائما فى العمل الجماعى ويتفوقون فى العمل الفردى.. وكلما ضاقت الحلقة زادت فرص النجاح.. وكلما اتسعت تحقق الفشل الذريع.. والمنتخب الوطنى فى أى لعبة جماعية بأى دولة عربية أضعف من الأندية.. لأن المنتخب عمل جماعى أكثر من فرق الأندية.. المنتخب أوسع.. والنادى أضعف من نجومه الكبار المنتمين إليه.. لأن النادى جماعى والنجوم فرديون.. وفى الفن أيضا لا توجد بطولات جماعية وإنما يوجد نجم أوحد "يشيل الفيلم أو المسلسل أو المسرحية" والباقى مجرد "سنيدة" أو خدم للبطل الذى يتم تسويق العمل باسمه.. وهناك دائما معارك طاحنة على "الأفيش" وترتيب الأسماء عليه أو فى "تتر" المسلسل.. ولم ولن يصل الفن العربى الفردى إلى العالمية.

والسياسة العربية سياسة الزعيم الأوحد أو الملهم الذى تسير الدنيا كلها بحكمته وتوجيهاته فهو لا ينطق عن الهوى وهو ظل الله على الأرض.. إذا مات ماتت الدنيا كلها وإذا تعافى نجا الوطن من كارثة.. والزعيم الملهم يحكم الدولة ويحكم المعارضة أيضا فالمعارضة بكل أحزابها التى تدعو إلى الديمقراطية وتداول السلطة فى الأمة العربية قائمة على منطق الزعيم الأوحد الملهم الذى ينادى بالديمقراطية للجميع بشرط ألا تقترب الديمقراطية من مقعده.

والتاريخ العربى تاريخ شخوص لا تاريخ أحداث.. فالفردية والذاتية فيه هى مركز الدائرة.. والناس يعرفون الأسماء أكثر مما يعرفون الأحداث.. فالكل يعرف مصطفى كامل لكن أحدا لا يعرف إنجازاته لأن اسمه أكبر من فعله ونفس الحال تنطبق على أحمد عرابى وسعد زغلول وجمال عبدالناصر والشريف حسين وكل من شئت من الأسماء ابتداء من عصر الأمويين إلى الآن.. والكلمةالعربية الأثيرة والشهيرة دائما هى أن التاريخ سيسجل اسم فلان بحروف من نور أو أن فلانا دخل التاريخ من أوسع أبوابه.. فالمهم دائما هو اسم فلان لا فعله ولا إنجازاته.. والشىء الوحيد الأصيل الذى نجا من الذاتية والشخصية فى العالم العربى هو الفلكلور بأغانيه وحكاياته وأمثاله الشعبية.. فهو من تأليف وتلحين الشعوب وليس له مؤلف شخص أو ملحن فرد.. لذلك بقى وسيبقى رغم محاولات الأفراد اغتصابه أحيانا وسرقته وتشويهه أحيانا أخرى.

والجامعة العربية أصدق مثل على فشل العرب فى العمل الجماعى لأن كل عضو فيها أقوى منها ولأن العربى عموما يكره العمل الجماعى ويعشق الفردية والنرجسية والأنانية.. العربى لا يحب أن يكون ترسا فى آلة عظيمة تحقق إنجازات عملاقة.. لكنه يحب أن يكون وحده الآلة ولو كانت آلة عالة أو "عطلانة".

والفردية الشديدة هى التى جعلت العرب ظاهرة صوتية.. وجعلتهم أكثر شعوب الأرض كلاما وثرثرة وتقديما للتصورات وأوراق العمل والمبادرات الفاشلة.. لأن كل عربى يود لو تركوه يتكلم وحده طوال اليوم والليل بلا مقاطعة.. بينما يكره الفعل والانخراط فى جماعة أو منظمة أو حزب.. لأن ذلك كله عمل جماعى لا يحبه.. وهو يريد أن يكون حزبا وحده ودولة بمفرده.. يريد أن يكون القائد والرئيس وأن يكون الجميع أتباعا ومريدين.. ولا عجب أن تكون كل المنظمات والجماعات والجمعيات والحركات العربية فاشلة ومجرد لافتات "بلافتات".. والفردية والنرجسية والذاتية المقيتة هى التفسير الوحيد لتبنى المنظمات الفلسطينية لأى عملية فدائية فى إسرائيل وحتى الآن لا أجد أى تبرير منطقى غير الفردية لمسارعة حركة حماس أو منظمة الجهاد أو حركة فتح لإعلان مسئوليتها عن أى عملية فدائية.. بينما لم يحدث يوما أن تبنت أى منظمة أو حركة فى إسرائيل أو

الغرب ارتكاب عملية من عملياتها القذرة ضد العرب.. بل إن هذه المنظمات تسارع فورا بإعلان براءتها من جرائم كثيرة ارتكبتها.

العرب يرتكبون حماقات كثيرة بسبب تمكن داء الفردية منهم حتى بلغت بهم الحماقة حد النرجسية فى الموت.. حتى الذى يموت فى عملية استشهادية يذكرون اسمه واسم أبيه وجده السابع وعنوان سكنه ورقم شقته والمنظمة التى ينتمى إليها وكأنها دعوة صريحة لهدم بيته وقتل أسرته والتنكيل بكل من له صلة به والفردية هى التى جعلت الفشل لقيطا بلا أب ولا أم بينما النجاح يدعيه آباء كثيرون ويتنازعون على تبنيه.. والفردية هى التى جعلت العرب أمة لا تعترف بخطاياها ولا تتوب عنها وجعلتها أمة مكابرة ومتمادية فى الأخطاء وقادرة على قلب الحقائق والإصرار على أن الخطأ صواب.. وعندما يكون العمل جماعيا ويفشل يسهل الاعتراف بالفشل وتداركه وإعلان التوبة.. لكن لأن العمل العربى دائما فردى يصعب على هذا الفرد الاعتراف بالفشل ولهذا فإن أدب الاعتراف عندنا لا وجود له.. بينما هو أدب رائج فى الغرب.. وكتب الاعترافات توزع ملايين النسخ فى أمريكا وأوروبا.. وأدب الاعتراف يختلف عما نقرأه عندنا من مذكرات وسير ذاتية تشعر وأنت تقلب صفحاتها بأن كاتبها هو مركز الكون وهو الذى صنع التاريخ وهو البطل الذى لا بطل سواه وهو الملاك الذى لا يخطىء.. وكل الذين كتبوا مذكراتهم وسيرهم الذاتية حول ثورة ٢٣ يوليو تشعر بأن كلا منهم هو قائد الثورة الحقيقى والأوحد وهو صانعها ومفكرها وفيلسوفها.. حتى رأينا فنانات وراقصات كتبن مذكراتهن وأكدن فيها أنهن كن صانعات الثورة وأن ضباطها كانوا يأتمرون بأمر هؤلاء الراقصات.

والفردية العربية هى سبب تعدد الفتاوى فى أمر واحد وهى السبب فى محاولة احتكار الدين وخصخصته وهى السبب فى الاختلاف المضحك بشأن استطلاع الأهلة.. هناك دائما نزاع عربى على الاستئثار والاحتكار والكلام الخائب عن الريادة والقيادة والثقل وتقسيم الدول إلى الشقيقة الكبرى والشقيقة الوسطى والشقيقة الصغرى.. ولا أحد يريد أن يذوب فى الجماعة وينغمس فى القطيع.. كل عربى يجد سعادته فى التغريد والتحليق خارج السرب.. وكلنا يتكلم عن المصير الواحد والأخوة العربية ولا نود أن نعترف صراحة بأننا نكره بعضنا لأننا متصارعون على الزعامة والدور.. فالعالم كله.. يجيد لعبة توزيع الأدوار.. ونحن مشغولون بلعبة خطيرة هى تنازع الأدوار.. لذلك لم يعد هناك وجود حقيقى لما كان يسمى "الوطن العربى" أو القومية العربية وصار هناك "شرق أوسط" وهو مصطلح نستخدمه نحن العرب بمنتهى البساطة والحماقة رغم أنه مصطلح بديل اخترعه الغرب ليحل محل مصطلح الوطن العربى والقومية العربية.

والقومية العربية فى الأساس فكرة ولدت وارتبطت بزعيم كاريزمى هو جمال بدالناصر وماتت بموته.. أى أنها فكرة ارتبطت بفرد وولدت خصيصا لخدمته نهارت بانهياره شأنها شأن كل الأفكار والمبادىء العربية التى تنشأ فى ظل فرد من أجله وتدور فى فلكه وإذا سقط سقطت معه.

الأفـراد فى الوطن العـربى هم الأحـصنة والأفكار هـى العـربات.. حـتى فى لمؤسسات الصغيرة والوزارات وأفـران العيش البلدى ومـحال البقـالة.. كل شىء يقوده فرد وكل الأفكار والمقترحات تدور فى فلكه وإذا ذهب بالموت أو العزل تذهب معه أفكاره.. ويبدأ المحل من الصفر مع صاحبه الجديد الذى يبدأ عهده دائما بإزالة لافتة صاحب المحل القديم ومحو آثاره.. حتى ولو لم يضف هو جديدا.

والفردية هى التى تجعلنا بارعين دائما فى النفى وفاشلين فى الإثبات.. وتجعلنا نجيد الشطب أكثر مما نجيد الكتابة.. والفردية لو - علمنا - سلوك ضد الدين الإسلامى فالعمل الجماعى فى الإسلام أفضل.. وصلاة الجماعة أفضل من صلاة الفرد والحج جماعى.. والإفطار الجماعى للصائمين أفضل وإنكار الذات فضيلة إسلامية بدليل أن التصدق فى السر خير من التصدق فى العلن وروى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ما معناه: "لا تسودونى فى الصلاة" أى لا تقول: سيدنا محمد عند قراءة التشهد.. بل تقول: وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. ورفض - صلى الله عليه وسلم - تدوين أحاديثه حتى لا تختلط بالقرآن فى بداية عهد النبوة فالدعوة والدين والقيمة والمبدأ والفكرة والعقيدة فى الإسلام أعلى من الفرد مهـما كانت مكانته.. وهى التى تحتل الأولوية وهى الحصان الذى يجر الأفـراد.. والفـردية العـربيـة هى التى أغلقت باب الاجتـهاد والإبداع لأن الإبداع والاجتهاد سلوك جماعى.. أما الفردية فإنها أدت إلى ما نحن فيه من العزة بالإثم والتشبث بالرأى والحكم بالهوى والمزاج وأدت إلى الديكتاتورية والاستبداد وغياب الديمقراطية التى هى فى الأساس قيمة جماعية.. والداء يصعب علاجه لأن المباراة على وشك النهاية والخسارة العربية فيها محققة.. وأنا أكتب لكم فى الوقت الضائع.

العولمة تعنى تحويلنا إلى عوالم!!

نحن مشغولون بما نسميه لغة الشباب الجديدة ومفرداتهم التى يتحاورون بها ونرى أن هذه اللغة نذير خطر ودليل تدن وانهيار قيمى ويزعجنا أن نسمع مفردات الروش والطحن وغيرهما وننسى اننا نتحدث عدة لغات تبدو عربية كلها.. لكن الدلالات والمعانى الجديدة تجعلها مختلفة تماماً عما كان يعنيه الآباء والأجداد.. فاللفظ واحد والدلالة مختلفة والمعنى مغاير.. حتى عباراتنا التى تبدو دينية فى لفظها أصبحت لها دلالات غير دينية.. بل ضد الدين.. وعبارة "إن شاء الله" تعنى التسويف والمماطلة.. و"الحمد لله" تعنى اليأس والقنوط.. و"ربنا يسهل" تعنى انك لن تنجز وعدك.. و"اتكل على الله" عبارة سب وتهديد بدليل أن من يقول لك: "اتكل على الله" ترد عليه فوراً وبلا وعى: "ولو مااتكلتش على الله حتعمل إيه يعنى؟".. ولست أدرى صحة اشتقاق "اتكل".. فما أعرفه أن الصواب هو "توكل".. وربما جاء اشتقاق "اتكل" من كلمة "اتكىء" أى استند واجلس مسترخياً.. وكان الامام أحمد بن تيمية رحمه الله ينبه من يقول إن شاء الله بقوله: إن شاء الله تحقيقاً لا تعليقاً. وفى مؤتمر بإحدى الدول العربية تحدثت يوماً خبيرة مصرية حديثاً أعجب الحضور فمدحها أستاذ من دولة عربية قائلاً: "ها المرة رائعة جداً" وانزعجت الخبيرة من لفظ "مرة" وهو يعنى امرأة ولا غبار عليه.. لكن لفظ "مرة" فى العامية المصرية اكتسب مع الزمن دلالة سيئة وأصبح لفظاً بذيئاً وهناك من يسب خصمه قائلاً: "ياابن المرة" رغم اننا جميعا أبناء مرة أى أبناء امرأة ويقول كل منا عن زوجته "مراتى" أى امرأتى. ووصف الزوجة بأنها امرأة قرآنى.. وورد ذكر امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون وامرأة العزيز.

وعندما ندعو شخصاً إلى اللامبالاة وعدم الاهتمام وعدم التفكير نقول له: "قول يارب أو قول يا باسط أو "صل عالنبى".. وهى عبارات دينية أخذت دلالة سيئة وصارت بمعنى "طظ".. وهناك عبارات سب صريحة صارت تحمل دلالات الإعجاب والإكبار مثل قولنا لشخص أتى بعمل خارق ومدهش "يخرب بيتك" أو "ياابن الكاااالب" بزيادة ألف ممدودة بعد الكاف.. أو مثل تعبير المعلق الرياضى الذى يقول للاعب إعجاباً به يا مجرم.. أو ياابن الإيه أو ياابن الذين. وهناك لغة رجال السياسة والدبلوماسية الذين يستخدمون ألفاظاً عربية لها دلالات مغايرة لما فى أذهاننا ويدلون بأحاديث طويلة يقولون فيها كل شىء ولا يقولون أى شىء فى نفس الوقت.. فترى الواحد منهم يقول

مثلاً: إن الحرية متاحة للجميع ولكن فى إطار الشرعية والقانون والدستور.. وأنت وأنا لا نفهم بالتحديد ما معنى الشرعية ولا معنى القانون ولا الدستور فى رأى صاحبنا.

وهكذا نجد أنفسنا دائماً أمام دلالات مختلفة ومتناقضة أحياناً لألفاظ كثيرة مثل الشرعية والشفافية والنزاهة والإرهاب والتطرف وحقوق الإنسان والحرية والديمقراطية.. وعملية السلام فى الشرق الأوسط والوضع العربى الراهن.

وعندما نتأمل هذه الألفاظ التى يستخدمها السياسيون والدبلوماسيون فى العالم كله لا نجد فرقاً فى الغموض والإبهام بينها وبين ألفاظ مثل روش وطحن وهتيكة أو هتاكة و"احلق له" وغيرها.. فاللفظ لك والمعنى فى بطن القائل.. كما انك لا تجد فرقاً بين لغة الشباب ولغة السياسيين ولغة الشعراء وأدباء مابعد الحداثة.. ولا فرق بين لباليب إيناس الدغيدى وديمقراطية بوش وسلام شارون والعمل العربى المشترك وهذيان ما بعد الحداثة وفتاوى علماء وعالمات وعوالم الفضائيات.. بل لا فرق بين العلماء والعوالم وربما يعنى لفظ العولمة تحويل كل البشر إلى عوالم "بصاجات" واللغة أصبحت همزة فصل لا همزة وصل بين الناس الذين يتحدثون بلسان واحد وعندما تستغرق فى البحث عن الدلالات التى أضيفت إلى الألفاظ والعبارات تصل إلى نتيجة مؤداها أن الصمت أفضل وتدرك عمق معنى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضى الله عنه: "ثكلتك أمك وهل يُكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصائد ألسنتهم"

وحصائد الألسنة تهون أمام حصائد الأقلام.. فاللسان يبلغ طوله عشرة أشخاص على الأكثر أما القلم فيصل طوله إلى الملايين.. فحصائد الأقلام التى تكبنا فى النار.. أضعاف حصائد الألسنة.

وكان القدماء يفاضلون بين الكلام والصمت فيقول أنصار الصمت إن الصامت يمتلك الكلمة والناطق تمتلكه الكلمة.. والصامت يشترى والناطق يبيع والمشترى أفضل من البائع.. والصامت مخبوء تحت لسانه فإذا نطق انكشف وتعرى وأنت بأذنين ولسان واحد لتسمع ضعف ما تتكلم.. والحجة تقوم على الناطق ولا تقوم على الصامت.

ويقول أنصار الكلام: فى البدء كانت الكلمة والساكت عن أو على الحق شيطان أخرس والصمت عجز وعى والكلام بيان والصمت ظلمة والكلام ضوء وأعظم الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر.. ويقول العقلاء: اصمت حيث يحسن الصمت وتكلم حيث يحسن الكلام.. فالعبرة باختيار موضع الصمت وموضع الكلام- والحماقة أن تصمت فى موضع الكلام وتتكلم فى موضع الصمت والرسول صلى الله عليه وسلم قال ما معناه : "قل خيراً أو اصمت" وقال: "أمسك عليك هذا" وأشار إلى لسانه.

وفى زماننا كثر الكلام وقل الفهم لأن المساحات المكانية والزمانية فى الصحف والفضائيات والإذاعات والندوات والمؤتمرات تتطلب متكلمين كثيرين ولا تحتاج إلى من

يفهمون.. والرغبة فى تعبئة هذه المساحات جعلت الكلام غاية ولا أحد يطلب منك أن تفهم ولكن يطلبون منك أمراً من اثنين.. تتكلم أو تسمع وهناك وقت كثير للكلام ولكن لا وقت للفهم.. والمتكلم نفسه لا يفهم كثيراً مما يقول فكيف يمكنه أن يجعلك تفهم ما يقول أو ما يُكتب؟.

واجابات أهل السياسة أكثر غموضاً من الأسئلة الموجهة إليهم فى المؤتمرات الصحفية.. وأهل الإعلام يسمون الاجابات الكاذبة.. اجابات دبلوماسية.. أى أن الدبلوماسية هى الكذب.. والمذيعة تسأل الفنان أو الفنانة سؤالاً وتقول له: لا أريد اجابة دبلوماسية.. أى لا أريد اجابة كاذبة.. والمذيعة بكل تأكيد لا تفهم معنى "دبلوماسية".

والكلام فى زماننا له مهمة وحيدة هى تعبئة وشغل الفراغات والمساحات بدليل أن معظم المتكلمين يثرثرون بلا وعى.. فالمذيعة مثلاً تسأل فناناً أو أديباً فائزاً بجائزة كبيرة: ما شعورك وأنت تتسلم الجائزة؟ والمضحك انه يجيب رغم علمه وعلم المذيعة بأن شعوره الآن لا يحتاج إلى سؤال.. لكنها دردشة لفض المجالس وفبركة برنامج يملأ بعض الوقت فى الأرض والفضاء.. واذكر أن الوحيد الذى استفزه السؤال عن شعوره وثار بشدة هو الدكتور أحمد زويل عندما سألته مذيعة عن شعوره بعد فوزه بجائزة نوبل.

ولأن المتكلمين معنيون أكثر بالظهور على الهواء أو على صفحات الصحف وليسوا معنيين بقضية أو مهمومين بموضوع أو أزمة تسمعهم دائما وهم يستخدمون "عكاكيز" لفظية تساعدهم على لملمة الموضوع وتحريك اللسان وتحفيز العقل المشغول بالأضواء ومن هذه العكاكيز اللفظية.. فى الواقع.. وفى الحقيقة.. وفى تصورى ويمكن.. وهناك اسراف مضحك فى استخدام كلمة "يمكن" التى تعنى ربما أو تعنى الاحتمال والشك وعدم القطع.. وهذا الاسراف المضحك يأتى من استخدام الكلمة فى غير موضعها.. فرغم انها تعنى الشك يستخدمها المتكلمون للإجابة فى مواضع يقينية مثل أن تسأل المذيعة الضيف: يمكن أنا دلوقت باقدم برنامج.. ويمكن اسألك ما اسم حضرتك بالكامل.. فيقول الضيف: فى الواقع أنا يمكن اسمى فلان.واذكر اننا نظمنا فى الجامعة ندوة لأحد مذيعى الإذاعة ليشرح لنا كيفية ممارسته لعمله. فقال ضمن ما قال: إن مذيع الإذاعة مطالب بقدرة فائقة على الكلام لتحل كلماته محل الصورة التليفزيونية.. فعندما ننقل حفلاً لأم كلثوم فى الاذاعة نحتاج إلى كلام كثير حتى يرفع الستار وتظهر أم كلثوم على المسرح.. فنقول مثلاً: وأرى أيها السادة قاعة المسرح قد امتلأت عن آخرها ببعض الجماهير فقلت له مقاطعاً: وما الداعى لاستخدام كلمة بعض مع جملة امتلأت القاعة؟ ولماذا لا يقال: امتلأت القاعة بالجماهير؟.. وظننت أن الرجل سيكيل لى المديح على ملاحظتى فإذا به يعاملنى بجفاء قائلاً: يا سيدى أى كلام وخلاص.. وبعدين المستمع لايقف لى على الواحدة زيك كده.. هو المستمع فاهم حاجة؟

وضحك الزملاء والزميلات ربما سخرية منى أو إعجاباً بخفة دم المذيع.. لكننى بالطبع لم أضحك.

ولأن اللغة خصوصاً فى دنيا السياسة لم تعد واضحة الدلالة.. وصار الغموض واللبس دليل الحنكة والمهارة السياسية ظهر ما يسمى علم تحليل المضمون.. فهناك متخصصون فى تحليل مضمون تصريحات وخطب السياسيين ورجال الدبلوماسية.. وتحليل المضمون معنى بتوليد دلالات جديدة لألفاظ الزعماء والسياسيين يستخدمها أعداؤهم أو أنصارهم.. وتحليل المضمون هذا يشبه بالضبط طريقة قراءة أعمال الفنانين التشكيليين.. فهناك متخصصون.. يجيدون قراءة لوحات زملائهم التشكيليين فى المعارض وهم مهرة فى توليد معان للوحات ربما لا يقصدها من رسمها.. وهم قادرون على إغراقك فى بحر متلاطم الأمواج حول دلالات اللون وضربات الريشة والحذاء الذى يرمز إلى السجن والقدم التى ترمز للسجين الذى فقد الحرية وربطة العنق التى تعنى المشنقة وحبة الجزر التى يحتضنها الهلال وتعنى دولة جزر القمر.

واللغة فقدت وضوحها لأننا نتسابق فى الغموض ونتبارى فى الكذب.. والصدق عندنا برهان على السذاجة والبلاهة والكذب دليل الحنكة والذكاء.. وأعذب كلامنا أكذبه.. سواء فى الشعر أو الكلام العادى.. وأنجح قصص الحب هى التى يجيد طرفاها الكلام ورص الكذب.. فإذا أخطأ أحدهما وصدق فشلت القصة كلها. ولست أدرى لماذا يغضب الممثلون والممثلات من عدم اعتراف المحاكم في القوانين القديمة بشهادتهم وعدم الأخذ بها.. رغم اننى أرى لهذا النص وجاهته ومبرراً.. فهو ليس طعناً فى مهنة التمثيل ولكنه اعتراف بأن قمة نجاح الممثل هى قدرته على الكذب واقناع المتلقى بكذبه.. وبالتالى فإنه قادر على استخدام براعته هذه فى الشهادة أمام المحاكم.. لكن إلغاء النص أيضاً له وجاهته.. لأننا جميعاً صرنا ممثلين بارعين.. ولو لم نأخذ بشهادة الممثل ما وجدنا أحداً يشهد.. وشهادة الزور اليوم صارت مهنة ومصدر رزق.. وهناك ملايين من شهود الزور بأجر أو براتب شهرى.. وحسبنا الله ونعم الوكيل.

تاج رأسى

خجلت من أن أتحدث مع أستاذى محمد العزبى عبر الهاتف فأردت أن أشهد الله وأشهدكم على اننى مدين له بتلك اللفتة الكريمة التى خصنى بها فى مقاله والكاتب الصحفى الكبير حين يخص تلميذه الصغير بكلماته الرقيقة انما يشهد لنفسه بالأستاذية.. فقد تعلمنا جميعاً منه فى القرب وعلى البعد.. ولم يحظ أستاذ مثله بإجماع تلاميذه.. وهو الأستاذ الوحيد الذى لم يلتف حوله التلاميذ أو المريدون خوفاً أو طمعاً.. وهو الأستاذ الوحيد الذى علمنا وربانا وأدبنا بلا عصا وبلا جزرة.. مد الله فى عمره.. وأبقاه تاجاً على رءوسنا.

تأملات فى التجربة الديمكروباصية!!

أنت تسير فى الشارع مترجلاً.. وفجأة سمعت صرخات فرامل سيارتين كانتا على وشك الاصطدام ونزل منهما السائقان فقال أحدهما للآخر: "مش تحاسب ياحمار".. فرد الحمار قائلاً: أنا برضه حمار ولا أنت اللى سكران وأعمى؟.. وأنت فى هذه الحالة لا يمكنك أن تحكم بالضبط من منهما الحمار.. لكن ركاب كل من السيارتين ينحازون إلى سائقهم.. وكل منهم يدلى بدلوه.. الله يستر طريقك.. الحمد لله اللى جات على كده.. أنت سواق هايل ومفتح وهو اللى ثور وكان حيضيعنا؛ أى أن كل سائق فى نظر ركاب سيارته على صواب والسائق الآخر هو الحمار.. أما نحن المترجلين فإننا كالأطرش فى الزفة.. نقف قليلاً لنتفرج على المعركة ولكننا لا ندرى من المصيب ومن المخطىء ومن الحيوان ومن الإنسان.. وبعد قليل نمضى فى حال سبيلنا وننسى كل شىء.

التجربة الحزبية والديمقراطية عندنا لا تختلف كثيراً عن التجربة "الديمكروباصية".. نفس العشوائية والغوغائية والاتهامات المتبادلة ب "الحمورية والعمى والسكر" بين السائقين الذين هم قادة ورؤساء الأحزاب.. ولكل سائق ركابه الذين هم هيئته العليا أو جمعيته العمومية والذين يدعون له بأن يستر الله طريقه وينصره على من يعاديه ويخرب بيت السائق الحمار الآخر ويخرب بيت الحمار الذى أعطاه رخصة قيادة لايستحقها.

ونحن المترجلين نمثل الشعب الذى ليس له "فى الثور ولا الحمار ولا الطحين" ولا ينتمى لأى ميكروباص ولا لأى سائق.. وعندما يفكر فى الركوب أو يضطر للانضمام إلى فئة الركاب يختار سيارات خارج الشرعية الديمكروباصية وهو هنا مثل الناخب تماماً عندما يذهب إلى صناديق الانتخاب يختار جماعة أو حزباً أو فئة خارج الشرعية الحزبية التى كفر بها وغسل يديه منها.. وفى الغالب هو لا يذهب إلى تلك الصناديق ويفضل أن يركب قدميه أو يركب رأسه ليصل سالماً إلى بيته بدلاً من مغامرة المشاركة فى التجربة الديمكروباصية لأن الداخل إليها مفقود والخارج منها مولود.

وإذا كان الناس ينخدعون بالشعارات الدينية ويعطون أصواتهم لمن يرفعها.. فإنهم على الأقل وجدوا مبرراً ولو كان واهياً لإعطاء أصواتهم للمخادعين.. لكنهم لم يجدوا

أى مبرر واه أو مقنع لإعطاء أصواتهم للمتسربلين بعباءة الشرعية الحزبية.. وإذ كان أقطاب الشرعية الحزبية يتهمون الناس بالسلبية واللامبالاة والعزوف عن المشاركة.. فإننى أسألهم سؤالاً بالنيابة عن كل السلبيين والعازفين واللامباليين: نشارك فى ماذا؟ كما أننى بالنيابة عن الناس أتهمهم هم بعدم المشاركة الشعبية.. وأسألهم مرة أخرى: أين الأحزاب فى أى قضية مجتمعية؟ ألسنا نحن أولى وأحق بالدعم السنوى الذى تحصل عليه الأحزاب فقط لتكون ديكوراً وزينة وجراحة تجميل فاشلة لوجه المشهد السياسى وترميم ترهلاته وتجاعيده؟

كانت الحكاية قبل انتخابات البرلمان هى ثنائية الحكومة والمعارضة والآن صارت الحكاية مضحكة.. فالحكومة فى مواجهة معارضة خارج الشرعية.. والمعارضة الشرعية مشغولة بمعارضة بعضها.. فالوفد يعارض الوفد والغد ضد الغد والتجمع فى الطريق إلى الانشطار النووى والانفجار البركانى.. والأحزاب الأخرى مجرد ذرات تسبح فى الفضاء اللانهائى ولايعرف أحد لها اتجاهاً ولا هوية وهى ترضى من الغنيمة بالإياب ومن المائدة بالفتات والفضلات.

والمعركة فى الأحزاب ليست على قيم ولا مبادىء ولا أفكار.. وإنما هى معركة على المقاعد والمقار والمناصب والمواقع.. وكل سائق يتهم الآخر بأنه حمار لنكتشف فى النهاية أن الجميع حمير ثم نطالب الناس بعد ذلك بالتوجه أفواجاً إلى صناديق الاقتراع لانتخاب الحمير.

والحقيقة التى أجدنى مقتنعاً بها أن ما يحدث عندنا ليس سوى ترجمة فورية لنظام عالمى بأكمله قائم على الديكور والقشرية والسطحية وجراحات التجميل الفاشلة.. نظام عالمى تفرغ فقط لاختراع المصطلحات دون أن تعنيه المضامين.. فأنت وأنا نسمع ليل نهار مصطلحات الليبرالية والعولمة والديمقراطية والشرعية.. وكأن هذا النظام اقتنع بأن حل مشكلة المعوقين يكمن فى تغيير اسمهم إلى ذوى الاحتياجات الخاصة وحل مشكلة الفقراء أن يصبح اسمهم غير القادرين.. وصار العالم كله فى ظل هذا النظام "كباريه" لكل دولة أو جماعة فيه نمرة و رقصة تؤديها.. فهناك من يرقص رقصة العولمة وهناك من يؤدى رقصة المعارضة أو رقصة الحكومة.. وهناك صالات لعروض أو "الشو" حسب طلب الزبائن.. فأحياناً نجد اقبالاً على "الشو" المعروض فى صالة سوريا أو الرقصة الساخنة فى صالة العراق أو صالة إيران أو كوريا الشمالية ويتفنن صاحب الكباريه فى الديكور ويتحكم فى الإضاءة.. فيضىء الأنوار فى صالة سوريا مثلاً.. ويطفئها فى الصالة الفلسطينية ثم يشد الزبائن إلى صالة أفغانستان أو العراق.. وهكذا يظل الكباريه يعمل ليل نهار.. وهناك طبعاً "بودى جاردات" جاهزون للبلطجة وتأديب السكارى الذين يخرجون على النص.

والتراتبية فى النظام العالمى قائمة على البطل الأوحد والقطب الأعظم.. والباقى كومبارس وسنيدة ومجاميع.. وهى نفس التراتبية فى تجربتنا الحزبية وتجارب غيرنا من الدول.. فالحزب الوطنى هو القطب الأوحد والقوة الأعظم وباقى الأحزاب كومبارس ولاعبون بدلاء على الدكة يجلسون عليها ويموتون فوقها لكنهم لن يلمسوا الكرة أبداً.. ويكفيهم أنهم يحصلون على الرواتب أو الدعم ولم يستغن النادى عن خدماتهم والناس دائماً مع من يركب خوفاً أو طمعاً.. والجماهير مع من يلعب ويسجل أهدافاً حتى لو كانت من تسلل.

والجماهير تهتف وهى لا تعرف ما جرى فى الكواليس من صفقات واتفاقات على التفويت وبيع المباريات ورشوة الحكام.. فاللعبة السياسية التى تبدو على السطح نظيفة وعفوية وتلقائية هى فى الحق لعبة قذرة جداً.. والسرى فيها يزكم الأنوف بينما تشم فى العلن رائحة العطور.. وهى لعبة عالمية تشبه لعبة المصارعة الحرة التى تشد الجماهير وتجعلهم يصرخون ويتجاوبون معها ويراهنون بينما هى فى الحقيقة مجرد "شو" وعروض تمثيلية أتقن كل مصارع فيها دوره حسب السيناريو الموضوع سلفاً.

والولايات المتحدة الأمريكية تدير العالم الآن من هوليود.. والسياسة فى العالم كله صارت مثل أفلام هوليود وأفلامنا هنا فى مصر أى فيلم يتحدث بواقعية وهدوء عن قضايا تهم الناس يفشل فشلاً ذريعاً.. بينما ينجح الفيلم الذى صنع على عجل فى جلسة ليلية.. ويتضمن توليفة من الأفيهات والمايوهات والمطاردات.. وفى النهاية يتظاهر أبطال الفيلم ويهتفون ويحرقون علمى أمريكا وإسرائيل.. ولم يعد الجمهور "عايز كده".. ولم يعد المخرج سيد العمل.. بل أصبح المنتج هو السيد والحاكم بأمره وهو الذى يفرض رؤيته وفكره.. المنتج الذى يمول ويدفع ويدعم هو سيد الموقف فى السياسة والفن والثقافة والاقتصاد.. هو الذى يملى شروطه بفلوسه ويفرض أجندته كما تفعل أمريكا وكما تفعل الحكومات والأنظمة الحاكمة مع شعوبها والقوى السياسية التى تسمى معارضة.. وكما تصنع أمريكا معارضيها تصنع الأنظمة فى العالم الثالث معارضيها ودائماً هناك خطوط حمراء غير مرئية للناس وللشعوب ولكنها مرئية للأنظمة والقوى المعارضة.. وتبدو المسألة بالنسبة للشعوب حرية وديمقراطية بينما فى الحقيقة هى مجرد لعبة و"شو" فى كباريه السياسة.

ولو تأملنا قليلاً وأجرينا عملية مراجعة لاكتشفنا أن عصر عبادة الأصنام لم ينته ولكن الذى حدث أن الأصنام لم تعد أحجاراً بل صارت أفكاراً ومصطلحات نصنعها أو تُصنع لنا ثم نعبدها وأى محاولة لتحطيم تلك الأصنام والتمرد عليها تعنى الكفر ويعتبر المتمرد عليها صابئاً.. بينما لاتصمد هذه الأصنام طويلاً أمام

لحظة تأمل واحدة.. لقد تغيرت أسماء وأشكال الأصنام لكن العبادة قائمة.. فلم يعد هناك هبل أو بعل أو مناة أو يعوق أو يغوث وحلت محلها أصنام أخرى تحمل أسماء جديدة مثل العولمة والديمقراطية والسلام والشرعية الدولية والشفافية ومكافحة الإرهاب والمحرقة النازية لليهود التى يعد من يناقشها أو ينتابه شك فيها كافراً وخارجاً على الملة.

أنت تستطيع الآن وبكل سهولة أن تتجرأ على الله وعلى الدين وأن تخوض وتلعب فى قيم المجتمع وثوابته وتجد المئات الذين يدافعون عنك ويتصدون لمن يلومك بحجة حرية التعبير والابداع وعدم مصادرة الرأى وحقك فى الشك والتمرد لكنك ستقعد مذموماً مدحوراً منبوذاً معزولاً كالأجرب إذا شطح بك خيالك الإبداعى..مجرد خيال صور لك أن المحرقة النازية كذبة أبريل التى صدقها العالم.. ستواجه الاتهام بمعاداة السامية وهى الاسم العصرى البديل للكفر والشرك والزندقة.

مئات من مدعى الأدب فى عالمنا العربى يغازلون لجنة جائزة نوبل لترضى عنهم وتمنحهم الجائزة وأسلوبهم فى الغزل قائم على الإغراق فى الجنس والخوض فى الدين والتباهى بالانحلال والزندقة.. ولا عجب أن نجد أدونيس ونوال السعداوى أبرز الأسماء والأصوات الابداعية الأدبية فى الغرب وتنهال عليهما الترشيحات لجائزة نوبل.. لأن الأول أعلن أن تجربته الابداعية تقوم على القطيعة مع الموروث والتراث العربى والدين.. والثانية تدعو إلى حرية الجسد للمرأة وللرجل.. وهما وغيرهما فى رأى الغرب مناضلون ضد الإرهاب والاستبداد السياسى والدينى.

ولا يوجد فيما نقول خلط للأوراق لأن الأوراق بالفعل مختلطة وهناك تداخل حتى الامتزاج بين السياسة والثقافة والاقتصاد.. وكل مجال يؤدى إلى الآخر والأجندة المفروضة من الكبار تنسحب على السياسة والثقافة والاقتصاد والتقاليد والقيم.. والعالم يتم طبخه وانضاجه على نار هادئة والعولمة ليست فى عجلة من أمرها ولا مانع من زرع البذرة الآن وجنى الثمار بعد مائة أو ألف عام.. وهذا الذى يحدث لا يزعجنى ولا ينبغى أن يزعجكم لأن عواصف وأعاصير العولمة كلما اشتدت تشبثنا أكثر بمعاطفنا التى هى ثوابتنا وقيمنا وديننا والطيب والمسك والبخور لا يفوح وتنتشر رائحته الزكية إلا وسط النار.

أحسنتم عندما أسأتم!!

لو أنفقنا ما فى الأرض جميعا ما توحدنا ولكن الشكر كل الشكر للغرب وهجمته الشرسة على الاسلام ونبى الاسلام.. وأقول للغرب: هل من مزيد؟ نحن فى انتظار هجوم أوسع واساءة أشد.. نحن فى حاجة الى عونكم وغزوكم وحربكم.. ساعدونا على التوحد واليقظة.. ولكى نكون على قلب رجل واحد.. لا تكفوا ساعة أو لحظة عن الاساءة للاسلام واتهامه بالارهاب.. تداعوا علينا كما تتداعى الأكلة على قصعتها.. اضغطوا بكل أدواتكم فذلك هو مطلبى ورجائى وأملى فيكم فأنتم من جنود الله.. وما يعلم جنود ربك إلا هو.. الخطب والشعارات والمواعظ لم تجد نفعا ولا فائدة ولم تسمن ولم تغن ولم توحدنا ساعة من نهار.. لكن رسما كاريكاتيريا واحدا فى الدانمارك أساء للرسول صلى الله عليه وسلم جعل البنجالى والمصرى والمغربى والسعودى والايرانى وكل مسلم أوروبى أو أمريكى أو صينى شخصا واحدا وقلبا واحدا وجرحا واحدا.. وهذا منتهى أملى وغاية المراد من رب العباد.. لذلك أدعو كل صحف الغرب الى أن تسود صفحاتها برسوم وصور ومقالات مسيئة.. وأطالب حكومات الغرب بألا تعتذر وأن تساند صحفها المسيئة وأن تتمسك بأن ما يحدث يندرج تحت عنوان حرية الرأى والتعبير ولو كره المسلمون.

ان الغرب الذى يوقد نيران الحرب ويبشر بصدام الحضارات والأديان مسير وليس مخيرا.. وهو ينفذ السيناريو الربانى الذى يؤكد ان شتات المسلمين لن يلمه أو يجمعه نص دينى أو صراخ داعية على المنبر أو عبر الشاشة وانما يلمه ويجمعه الأعداء بتداعيهم وضغوطهم وحروبهم وغزوهم وقتلهم للنساء والأطفال.. وان السكينة والاسترخاء والشعور بالأمان هى التى تساعد على النوم العميق.. لكن الألم والخوف والاحساس بالخطر الداهم القادم كل ذلك يطرد النوم والكسل وهذا ما يفعله الغرب مشكورا.

لقد عاهدت نفسى سرا على أن أكف تماما عن السير فى ركب الذين يهاجمون العرى والاباحية والاسفاف والتدنى وقلة الحياء عبر الشاشات وفى الفن والثقافة والأدب.. لأنى لست مع الببغاوات التى تقول ان هذا السيل العرم من المجون يؤدى الى انحراف الشباب وخراب البيوت وأن ما يحدث مؤامرة غربية لطمس هويتنا.. هذا كله كلام فارغ لأن ما يحدث فى وهمى أو زعمى هو صاحب الفضل كله فى

المد الاسلامى واتساع رقعة التدين.. ما يحدث هو العاصفة الهوجاء العاتية التى جعلتنا نقض بأسناننا وأنيابنا على معاطفنا وعمائمنا وملابسنا الثقيلة.. ونتطرف فى الاتجاه المعاكس.. ونتشدد فى الوجهة المضادة.. تطرف المجون وتمادى الانحراف وتشدد الاباحية.. فتطرف التدين وتشدد الالتزام وأمعنت المحافظة فى غلوها.. ولن يشاد الدين أحد الا غلبه.

إننى أدعو إلى مزيد من المجون والعرى والتآمر الغربى علينا.. لنوغل أكثر فى عقيدتنا ونتمسك أكثر بهويتنا.. وأما من يسقطون منا فى الطريق ويجرفهم تيار الانحراف فلا حاجة لنا بهم.. فهم ساقطون ساقطون بأقل نسمة انحراف ومجون وعرى.

ان الحركات والتيارات الاسلامية التى يقول الغرب انها ارهابية لم يصنعها واعظ ولا داعية ولا هى نتاج الفقر واليأس كما يشاع وانما صنعها الغرب وهو لا يدرى.. لم يرعها ولم يصنعها قصدا وعمدا أو فى مهل ولكن صنعها بالعداء للاسلام والعروبة.. صنعها بتصدير المجون وثقافة الاستهلاك والترف.. فظن أن هذه الصادرات ستؤدى الى تفسخ وتحلل المجتمع العربى والاسلامى لكن ما حدث هو المفاجأة التى صعقت الغرب وأفقدته الصواب.. فقد اتسع المد الاسلامى وانطلقت الأجسام المضادة فى دمائنا فتضاعفت قوة جهاز المناعة لدينا أضعافا بعد أن كدنا نفقد المناعة بفعل الاسترخاء والشعور بالأمان وبأن السلام قادم والدنيا حلوة والحياة لونها "بمبى".

لقد أراد الغرب أن يسقطنا ويقهرنا ويمسخنا بثقافة الهامبورجر كما فعل مع الاتحاد السوفيتى.. ولكن رهانه كان خاسرا وانقلب السحر على الساحر.. فالاسلام لا يسقط بما سقط به الاتحاد السوفيتى وبما هوت به الشيوعية.. بل يقوى أكثر ويتعملق ويتعافى ويستأسد جهاز المناعة لدى المسلم كلما تداعت عليه الأمم وهجمت وغزت وضغطت.. ونحن موعودون من الله بأن نسمع أذى كثيرا ولدينا تحذير قرآنى بأننا لن نترك هكذا لنقول آمنا دون أن نتعرض للفتن والمحن.. "أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين» صدق الله العظيم.

لقد صار لدينا تراث أو عرف أو ما أسميه فولكلورا سياسيا وهو ان كل ما يؤيده الغرب أو من يسانده الغرب ترفضه الشعوب وتلفظه.. وكل من أو ما يعاديه الغرب وخصوصا أمريكا تسانده الشعوب وتبايعه وتقف معه.. هكذا بلا نقاش وبلا مراجعة وكأن ذلك من المسلمات أو البديهيات.. وهى مسلمة أو تراث وقاعدة لم تشذ أبدا وليس بها استثناء بصرف النظر عن الحق والباطل أو الصواب والخطأ فى هذا الموقف.

كل زعيم سانده الغرب وأيده وقال انه حليف وصديق وأشاد به يفقد شعبيته والقبول الجماهيرى له.. حتى لو كان كلام الغرب عنه حقا وصدقا.. وكل زعيم فى العالم الاسلامى أو العالم النامى كله ناصبه الغرب العداء حملته الشعوب على الأعناق وفى الأحداق.. حتى لو كان عداء الغرب له حقا وصدقا.

بل حتى فى الغرب نفسه تقول كل شعوب اوروبا أن الرئيس الفرنسى جاك شيراك هو آخر الزعماء المحترمين أو الكاريزميين فى العالم لمجرد أن الرجل يريد لفرنسا موقفاً موازياً للولايات المتحدة ومستقلاً عنها ويرفض أن تكون بلاده تابعاً أو ظلاً.. بعكس رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير الذى يسميه شعبه "دوبلير" سخرية باعتباره بديلاً لبوش.

وعندنا فى مصر لفظ الشارع كله الدكتور أيمن نور لمجرد أن أمريكا تدعمه وتتدخل فى شئوننا باسمه ولايعنى الناس ان كان نور على حق أو على باطل ولكنه ضاع شعبياً لأن أمريكا متعاطفة معه وتضغط من أجله.

وفى فلسطين لا تملك حركة المقاومة الإسلامية "حماس" ربع التاريخ النضالى لحركة فتح ولم تقدم عشر ماقدمت فتح من تضحيات ودماء ومعاناة.. ولكن حماس هزمت فتح بمجرد أن صارت فتح سلطة فلسطينية تدعمها وتساندها أمريكا.. ولمجرد أن حماس اكتسبت عداء أمريكا وصنفتها واشنطون على انها ارهابية فعدو أمريكا حبيب الشعب وحبيب أمريكا عدو الشعب ولا تحدثنى عن حق أو باطل أو تاريخ نضالى أو بطولات فمن اراد مغازلة الشعوب فإن عليه أن يلعن جدود أمريكا "حقاً أو تمثيلاً وكذباً" ومن أراد أن يطرده الشعب من رحمته فليرتم فى أحضان أمريكا ذلك تراث شعبى وفولكلور سياسى لا فكاك منه وهو حصاد لما زرعته أمريكا من ظلم وجور وكيل بمكيالين وانحياز أعمى وأبله لإسرائيل وهذا الغرس المر للإدارات الأمريكية المتعاقبة يحصده الشعب الأمريكى نفسه وهو شعب عظيم وجدير بما بلغه من رقى وتقدم ولكن هذا الشعب الأمريكى لا يراد له أن يعرف إلا ماتمليه عليه ادارته.. لذلك لا يعرفنا حق المعرفة.. ونحن لا نستطيع أن نفرق بينه وبين إدارته وحكامه.. فهو بالفعل شعب مظلوم.. ولذلك فإننى اخشى غضب القراء منى لأننى امدح الشعب الأمريكى.. وهم معذورون لأن إدارة بوش قدمت نفسها لنا على أنها الشعب الأمريكى.. وهذا كذب وافتراء لأن الأمريكيين ليسوا إدارتهم ولن يكونوا.

لقد بلغ الشعور بالكراهية لأمريكا والغرب وسياسات الحكومات الغربية البغيضة حد القول الذى يتردد لدى عموم الناس بأن الديكتاتورية المحلية خير من الديمقراطية الأمريكية والاستبداد المحلى خير من الحرية الغربية.

وكل هذه الأقوال انفعالية وخاطئة بالطبع لكنها رد فعل طبيعى على زيف ادعاءات أمريكا حول نشر الديمقراطية وحول محور الشر ومكافحة الإرهاب.. وقد قال بوش بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر: إن من ليس مع أمريكا فهو ضدها وهو قول يؤكد نزعة الهيمنة والتسلط والديكتاتورية وينفى مزاعم الديمقراطية والحرية والحوار.

والذين يقولون إن العراق انتهى ولن تقوم له قائمة بعد الغزو الأمريكى أكثرهم لا يفقهون.. وإنى لأرى أن العراق بدأ ولم ينته.. وانه يتشكل من جديد وانه أصبح ساحة للمد الإسلامى وميداناً لصدام الحضارات الذى أرادته أمريكا وان أمريكا إذا كانت قد هدمت الأبنية والمنشآت والاقتصاد العراقى فإنها تعيد بناء الإنسان العراقى من جديد وتصوغ أجيالاً جديدة ستكون طليعة هذه الأمة فى ميدان الحرب مع الأعداء وعلى رأسهم أمريكا.. وهذه حسبة ليست بسيطة لأنها ليست مبنية على يوم أو شهر أو سنة وإنما على مئات السنين.. حيث ستنشأ أجيال بعد موتنا علمتها أمريكا ثقافة الاستشهاد والتخندق والجهاد والشعوب لاتموت.. والسم الذى يقدم إليها يقويها ولا يقتلها.

إن عدوك يصنعك ولا يقضى عليك.. عدوك كلما تجبر زادك قوة وحذراً وقدرة على الصمود والغرب وعلى رأسه أمريكا اختار أن يكون عدواً.. اختار بإرادته وحريته.. وهى فى البداية والنهاية إرادة إلهية على ما يبدو لنكون فى رباط إلى يوم القيامة.. وقد فشلت كل محاولاتنا لتحسين صورة العرب والمسلمين فى الغرب لأن السيناريو هو أن تظل الصورة سيئة حتى نظل نحن فى رباط دائم.. وقد كان بوسعهم أن يضحكوا على شعوبنا وأن يخدعوها بالتعايش مع حضارتنا وديننا واحترام هويتنا.. لكن السيناريو المعد سلفاً هو أن يعادونا ويسيئوا إلى ديننا ومقدساتنا حتى لا نغادر الخندق.. فقد اختاروا هم التخندق والمواجهة ولم يعد لنا نحن خيار فى السلام والمهادنة.. لقد اختاروا أن يسيئوا إلى ديننا لنتوحد ونتآلف.. لذلك أشكرهم وأشد على أيديهم وأطالب الفراريج الدانماركية بأن "تقاقى" ليل نهار ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وضد الإسلام وشكراً لملكة الدانمارك التى طالبت شعبها الذى وصفته بالمسالم الكسول بأن يهب لمواجهة تفاقم الظاهرة الإسلامية.. لقد أحسنتم أيها الغربيون عندما أسأتم.. لذلك أشكركم من قلبى وأرفض اعتذاركم.

"حلنى.. وموت يا حمار"!!

يحلو لى كثيراً أن أسير بلا هدف فى الشوارع وأرصد أحاديث وسلوكيات المارة.. وينتابنى دائماً ظن يشبه اليقين بان القانون والحكومة لا وجود لهما فى حياتنا وشوارعنا.. وان الأمور تمضى "بالستر ودعاء الوالدين والتكال" وان ثقافة الزحام هى التى تحكمنا ومنطق يوم الحشر هو الذى يسيطر علينا.. ففى الشارع يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه.. وفى شوارعنا وحاراتنا لكل منا شأن يغنيه- وثقافة الزحام تعنى ان كل شىء يجرى بلا قواعد ولا منطق وان الصدفة والعشوائية هما سيدتا الموقف والمشهد كله- فأنا أخرج من بيتى إلى الشارع- وبين هذا البيت والجهة التى أقصدها قد تحدث أشياء لم أخطط لها ولم أخترها.. فقد أتحول فى هذه المسافة وبين طرفة عين وانتباهتها إلى قاتل أو مقتول أو مصاب أو معوق أو متهم أو مجنى عليه فى جريمة سرقة أو ضرب أو سب.. ولا وقت للبحث والتأمل والتحقيق.. لأن الزحام بلا منطق وكل إفرازاته بلا قواعد ولا معايير حتى انه لم تعد هناك اجابة على أداة الاستفهام: لماذا "نحن نعرف متى وأين وماذا حدث.. ولكننا لم نعد نعرف لماذا حدث هذا ولماذا لم يحدث ذاك.. والشارع المصرى ثرى جداً بأحداثه والسير فيه أفضل من قراءة ألف كتاب.. ففيه قصص حب وأفلام "أكشن" وكوميديا وعلى أحد جوانبه ميت مغطى بالجرائد.. وعلى الجانب الآخر زفة عروس..وفى احدى الزوايا معركة بالكلمات أو اللكمات وفى زاوية أخرى شلة من المستظرفين.. أو رجل يتحدث مع نفسه بصوت عال.. وآخر يغنى بصوت أعلى وثالث يتلو القرآن الكريم ورابع يتسول بالقرآن.. وامرأة تحمل طفلا سرقته أو اشترته لتتسول به.. لكنها فى كل الأحوال ليست أمه.

ينتابنى شعور يرقى إلى اليقين بأن كل مفردات المشهد أصبحت خارج السيطرة تماماً وأن القانون فى كل المجالات صار حبرا على ورق وان الحكومة مجرد "خيال مآتة" وان مهمتها صارت مجرد اقرار بواقع لايد لها فيه.. وان العجز بلغ بها حد تقنين غير القانونى واضفاء شرعية على غير الشرعى.. فلا حيلة لها مع العشوائيات سوى ان ترضخ لها وتوصل لها المرافق وتمنحها الاعتراف الرسمى.. لأن الامور تولد وتنمو وتترعرع من خلف ظهر الحكومة.. وعندما تفيق الدولة من سباتها تكتشف انها أمام واقع لا سبيل لرده أو تغييره أو انكار نسبه وبدلا من

البهدلة فى المحاكم تعترف الحكومة بغلطتها وتقر بنسب المولود غير الشرعى الذى شب عن الطوق وأصبح قادراً على بهدلة الحكومة اذا أنكرته واتهمته بأنه لقيط.

والناس عرفوا نقطة ضعف الحكومة لذلك يخالفون ويفرضون منطقهم العشوائى حتى يتحول إلى واقع وتضطر الحكومة للتفاوض حول واقع جديد على الأرض ثم ترضخ وتعترف به .. والحكومة مثل الشعب لأنها منه- فهى أيضاً تتعامل بمنطق: لا شىء يهم ولا شىء يستحق الاهتمام..والامور تحت السيطرة.. ولم يتحول الموضوع إلى ظاهرة ولا داعى للانزعاج والقلق.. وشيئاً فشيئاً تصحو الحكومة من نومها على واقع جديد وظواهر تعملقت ومارد خرج من القمقم.. فتتعامل معه على أنه قضاء وقدر وتمنحه الشرعية.

والناس يتعاملون بمنطق "حلنى.. والقانون حباله طويلة" لذلك يخلقون واقعا ثم يتفاوضون حوله.. والمفاوضات بالطبع فى صالحهم.. كما أن ثقافة الزحام تفرض منطق القوة والبلطجة وهو منطق يرى ان اللجوء إلى القانون ضعف وذل وهوان ونسمع كثيراً عبارة شهيرة يرددها كل الناس "هو أنا أكتع؟"- سآخذ حقى بذراعى.. ومثلى لا يذهب إلى القسم أو يلجأ للمحكمة- أى انه يريد ان يخلق واقعا يفرض به إرادته حتى على القانون الذى يعبر عن ضعفه وسذاجته بمبدأ مضحك يقول: "يبقى الوضع على ما هو عليه وعلى المتضرر اللجوء للقضاء".

وهذا المبدأ أظن أنه من أسوأ المبادىء القانونية فى العالم كله لأنه يعنى اعترافا صريحاً بعجز القانون والسلطة وهوانهما على الناس.. وهو مبدأ تحريضى.. فكل من الخصمين يسعى إلى ان يجعل الآخر هو المتضرر الذى يلجأ للقضاء.. أى أن هذا المبدأ يقول لنا صراحة "كلوا بعضكم وعلى المأكول ان يلجأ للقضاء".. هو مبدأ قانونى يعنى اعترافاً ضمنياً يكاد يكون صريحا بالبلطجة ومنطق القوة.. ويقول صراحة ان الضعيف هو الذى يلجأ للقانون والقضاء.

وطبقاً لهذا المبدأ الغبى فإننى أسطو على أملاك غيرى وأطرده وأزيف أوراقاً ومستندات وعلى من تعرض لبلطجتى ان يلجأ للقضاء.. والقانون المصرى الذى اخترع هذا المبدأ أراد ان يريح رأس السلطات وان يترك الناس يأكلون بعضهم ويخلقون وضعا جديدا تقره الحكومة ويعترف به القانون فيما بعد ولو كان وضعا ظالماً.. لأن العدالة عندنا عدالة ورق ومستندات وليست عدالة واقع ومنطق سليم.. فالقانون يصدق ورقة مزيفة ولا يصدق من يبكى ويصرخ ويحلف على المصحف بأنه مظلوم ومعتدى عليه.

والمحاكم وساحات القضاء عندنا محكومة أيضاً بثقافة الزحام.. فالقاضى أمامه فى "الرول" سبعون أو ثمانون قضية "وهات يا أحكام" والمطلوب منه ان ينجز

والانجاز فى هذا الكم الهائل من القضايا يعنى السرعة والعجلة.. وقد قال لى أحد المحامين: ان ما تراه فى أفلام زمان من صراع مرير بين الادعاء والدفاع ومقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل لم يعد له وجود الان فلا وقت لسماع مرافعات طويلة- وكل طرف فى القضية ينظر فى أوراقه ويقول كلمتين وبعد دقائق يصدر الحكم بالعقوبة أو البراءة أو التأجيل.. وهكذا قد يجد الجانى ألف دليل على براءته ولا يجد المجنى عليه أى دليل ينصفه لأننا أصبحنا عباقرة فيما يسميه أهل القانون اصطناع الأدلة.

وفى التعليم أيضاً يسود منطق وثقافة الزحام.. وهناك عشوائيات تعليمية انتشرت بسرعة مثل السرطان.. هناك معاهد وجامعات وأكاديميات وأقسام صارت فخاخا ومصائد للطلاب وأولياء الأمور.. مجرد لافتات على مبان بلا معان وشقق مفروشة وأدوار فى عمارات يقال عنها أكاديميات.. وبعد ان يدفع الطلاب المعلوم ويلتحقوا بها وتتخرج فيها دفعة أو دفعتان تفاجأ الحكومة أو الدولة بأنها أمام واقع جديد تضطر للاعتراف به بعد ان يمثل خريجو هذه المنشآت التعليمية الوهمية ورقة ضغط على الدولة التى تجد نفسها أمام حملة شهادات مضروبة يطلبون وظائف.

والمضحك فى المسألة ان الحكومة تؤكد ليل نهار جديتها فى ربط التعليم بسوق العمل بينما يتوالى الانتشار الشيطانى لمؤسسات تعليمية مفروشة هدفها جمع الفلوس من الناس دون ان تقدم علما أو تعليما أو رسالة أو يكون لها هدف سوى تخريج عاطلين ينضمون للطابور وعلى المتضرر اللجوء للقضاء وعلى الحكومة ان تضرب رأسها فى الحائط ان كان لها رأس.

وفى منطق الزحام وثقافته تكون الكلمة العليا للفلوس والربح بكل الطرق غيرالمشروعة والى ان يكتشف القانون أو الحكومة ان الطرق المتبعة غير مشروعة "تكون القيامة قامت" .. فنحن جميعا نتعامل بطريقة "حلنى" أو "موت يا حمار".. حتى فى الاعلام يسود منطق الزحام والفهلوة والتعبئة فكل أمورنا قائمة على التعبئة والتعليب والوجبات السريعة غير الناضجة لذلك يخرج كل شىء غير ناضج وغير سوى وبه خلل خطير لا يصمد طويلا أمام لحظة مراجعة أو تأمل ولكن الزحام لا يدع لنا وقتا للتأمل أو ثقافة الزحام تؤدى إلى بزوغ نجوم الصدفة والعشوائية فى الفن والصحافة والسياسة كما تؤدى إلى نائب الصدفة فى البرلمان الذى أفرزه الزحام وعدم اكتراث الناخبين وتأثير الدعاية والفلوس والصوت العالى وطريقة "خذوهم بالصوت" ورغم اختلاف أسماء وزاراتنا ومصالحنا ومؤسساتنا فان اسما واحدا ينبغى ان يجمعها جميعا هو مؤسسة أو وزارة التعبئة والتعليب.

إننى شاهد من أهل الصحافة ولا أبرىء نفسى أو مهنتى فنحن أيضاً أصبحنا
ءاً أصيلا فى ثقافة الزحام التى تحكمنا كما تحكم كل المهن ولا توجد فيها أيضاً
ابة لسؤال "لماذا" .. وسرعة العمل تؤدى إلى كوارث وموضوعات مفبركة وأكاذيب
فتراءات واختراعات من نسج الخيال لا أساس لها .. ولا يوجد من يعنيه التأمل
لتروى فهو فى سباق يود أن يبرز فيه اسمه ولو على جثث الاخرين.

وحين تلقى نظرة تأمل على المشهد كله تشعر بأنك فى سوق العتبة.. البضاعة
لها مضروبة.. وكل ينادى على بضاعته ويؤكد أنها الأفضل وان بضاعة البائعين
لآخرين رديئة.. والأعلى صوتا والأقوى بنية يكسب والزبون لا يجد بدا من الشراء
لو اشترى الترام.. ولا توجد معايير وقواعد واضحة تعطى الأفضلية لأحد لأن
لزحام يجعل المزاج هو الحاكم بأمره ويجعل الهوى هو الاله المعبود.

وفى ظل هذا الزحام واللهاث تكون الحكومة والسلطة صورة بلا أصل ويكون
القانون على الرف ويصبح سيفا على رقبة الضعيف فقط.. أما الأقوياء والاغنياء
فهم سادة المشهد فى ثقافة الزحام وهم أبطال الفيلم- بينما القانون والحكومة
والفقراء والضعفاء مجرد مجاميع كومبارس.

واذا أردت ان تزداد يقينا بما أقول فاذهب إلى المستشفيات العامة لترى كيف
يتعامل الأطباء وملائكة "اللحمة" مع المرضى الفقراء- لقد تآلف الاطباء
والممرضات والعاملون فى هذه المستشفيات مع الالام والأمراض والموت.. وقست
القلوب حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة بسبب ثقافة الزحام.. فأنت فى أى
مستشفى عام لا تجد دموعا فى العيون وترى المآقى وقد تجمدت وتحجرت
وتصادف وجوه أطباء وممرضات وعاملين وعاملات ليس فى ملامحها أى تعبير
عن حزن أو ألم أو حتى فرح.. وانما هى ملامح متبلدة متحجرة بلا معالم ولا
تضاريس.. مجرد ألواح ثلجية رسمت فيها عيون وشفاه وأنوف.. بينما نجد مرضى
تدوسهم الأقدام ويفترشون الأرض ويعتصرهم الألم ومنهم من يتحامل على نفسه
ويكتم آلامه لينافق الطبيب أو يضحك على "قفشة سخيفة" قالتها ممرضة.. ومن
لديه قروش أو عدة جنيهات من هؤلاء المرضى يمكن ان يحل جزءاً من مشكلته
ويجد ممرضة تساعده أو عاملا يدله على ما يريد فى بيت جحا.

والحكومة والدولة والقانون والقرارات عاجزة أمام هذا الطوفان.. وإعلام
الحكومة وصحافتها تقول ان كل شىء تمام والصحافة الأخرى تعارض معارضة
زاعقة لتجد لنفسها موقع قدم فى المشهد المزدحم وانها على ما يبدو بروفة
وتجربة عملية ليوم الحشر.. والعنوان الرئيسى لهذا كله هو لا رحمة فى الزحمة.

"حرامى الكاميرا" يكسب ولا يلعب!

شدتنى رسالة رصينة من زميلى العزيز الأستاذ حامد حبيب فقد زادنى معرفة بما أعرف وأحاطنى علما بما لا أعرف وأوحى إلى بما اكتب اليوم.. فقد توقفت قليلا عند كونه صحفيا زميلا وتوقفت طويلا طويلا عند كونه رئيسا لجمعية هاشم الرفاعى الأدبية أو هى على الأصح جماعة هاشم الرفاعى الأدبية.. ولا وقت لشرح الفروق اللغوية بين الجمعية والجماعة والجامعة.. فهى تكاد تكون مترادفات لولا ما اكتسبته كل كلمة من دلالات تفصلها عن الأخرى.

ومربط الفرس فى الأمر هو هاشم الرفاعى الذى لا أكاد أعرف عنه سوى أنه كان شاعرا من فحول شعراء القرن الماضى فى أوله أو منتصفه -ولا أدرى- وأنه برع فيما سماه أهل الأدب الشعر الحلمنتيشى.. وهو ذلك الشعر الذى اصطلح على أنه يجمع بين العامية والفصحى ويمزج بينهما مزجا رقيقا يعطيه خفة ظل محببة.. وقد قال فيه شاعر العامية الأشهر بيرم التونسى قصيدة واحدة على ما أظن هى قصيدة المجلس البلدى.. التى يقول فى آخرها: يا بائع الفجل بالمليم واحدة.. كم للعيال وكم للمجلس البلدى

أما هاشم الرفاعى فإن من ابياته فى هذا الباب:

الفقـر يمـلأ بالمذلة كاسـى
إنى سأشهر فى الورى إفلاسى
لا الجيب يعمر بالنقود ولا يدى
فيهـا فـلوس زى كل النـاس

ربما خانتنى الذاكرة أو المعرفة.. وربما خلطت الأوراق والأسماء والأشعار وكان ينبغى على صديقنا حامد حبيب أن يضىء لنا المنطقة المظلمة المسماة هاشم الرفاعى فهو أدرى بشعابها بوصفه رئيسا لجامعة أدبية تحمل هذا الاسم العملاق الذى سخطه تاريخنا الظالم قزما وذلك القمر المنير الذى عاد بدورة تاريخنا "الغشيم" حول نفسه كالعرجون القديم.

وأقول إن هاشم الرفاعى هو مربط الفرس لأن الفرس الذى نود الحديث عنه اليوم هو تاريخنا "الأبله" الجامح أو هو الحمار الذى يربطه كاتبوه "مطرح ما تقول السلطة

الحاكمة".. فهو تاريخ سلطوى وتاريخ زعماء ونجوم صنعتهم السلطة وخلقتهم الصدفة وأجادوا اللعبة الشهيرة والمعروفة فى الوسط الفنى وهى لعبة سرقة الكاميرا والأضواء.. فهم لصوص محترفون برعوا فى موهبة ركوب الموجة وقيادة الهوجة.

إن تاريخنا يشبه أفلامنا السينمائية.. فكل الذين طبل لهم هذا التاريخ وزمر وحشا رءوسنا باسمائهم وإنجازاتهم أكاذيب إلا قليلا.. وكل الذين انحصرت عنهم الأضواء ومر بهم تاريخنا مرور الكرام هم الأبطال الحقيقيون والنجوم الزاهرة إلا قليلا.. تماما كما يقبل الناس أفواجا على فيلم رخيص ويحجمون عن فيلم عظيم ذى قيمة ومعنى ومضمون.. فالغلبة للغث التافه والزبد.. والتهميش والإهمال والنسيان والنبذ والنفى لما ينفع الناس.

ومنذ كنت تلميذا فى الإعدادية وبلا سبب واضح نشأت بينى وبين التاريخ الذى درسته فى المدرسة أو الذى قرأته قراءة حرة أزمة ثقة وجفوة.. من جانبى فقط.. فقد كان التاريخ من أكثر مواد الدراسة سخاء وكرما معى وكان يعطينى أعلى الدرجات فى الامتحان.. لكننى أبدا لم أعطه عقلى ولم أحبه ولم أثق به.. كنت دائما وبلا سبب واضح أشعر بأنه يكذب ويزيف ويريد خداعى.. كنت أراه يهتف ويصرخ فى موضع السكوت والهمس ويصمت ويتجاهل ما ينبغى الهتاف له مجرد مشاعر طفولية لدى تلميذ لم يكن يدرى لها سببا.. لكنى الآن عرفت أننى كنت مؤمنا على ما يبدو وأن قلب المؤمن دليله.. وأن ما كان مجرد انطباع ومشاعر صبى مراهق صار مبدأ راسخا فى عقلى.. فقد عرفت مع الزمن أن كثيرين ممن يستحقون دخول التاريخ خرجوا منه بلا سبب وأن من يستحقون أن يخرجوا من التاريخ احتلوا فيه القمة بلا سبب.. ولا يوجد أى سبب سوى أن هناك موهوبين فى سرقة الكاميرا والأضواء وهناك بلهاء يظنون وظنهم كله إثم أن إنجازاتهم وعملهم وعطاءهم يكفى لدخولهم التاريخ.

وهذه الموهبة المسماة سرقة الكاميرا ليست فقط فى تاريخ الساسة والزعماء ولكنها أيضا تمتد إلى تاريخ الفنانين والأدباء ورجال الاقتصاد والمصلحين الاجتماعيين وعلماء الدين والصحفيين ورجال القانون هناك دائما أسماء لامعة لا تستحق البريق الذى حققته وأسماء منزوية اسقطت عمدا فى غيابات الجب ولم يلتقطها بعض سيارة التاريخ رغم أنها تستحق أن تحتل كتاب التاريخ من الجلدة للجلدة.

وفى الأدب لا أكاد أنا ولا غيرى نعرف شيئا مذكورا عن هاشم الرفاعى وعبدالحميد الديب وإمام العبد وأحمد فتحى وعبدالرحمن شكرى ومئات الأسماء العبقرية فى الشعر والقصة والرواية.. وفى الفن حدث ولا حرج عن أقزام احتلوا عرش الطرب والتمثيل.. وعماليق هوت بهم خيبتهم فى سرقة الكاميرا إلى القاع

المظلم.. وفى الصحافة أيضا عقول وأقلام من ذهب تاهت فى الزحام لأنها آثرت الموضوعية والهمس والاعتماد على الأداء والعمل والإنجاز الصامت بينما قاد المسيرة واحتل القمة أناس بلا رءوس أجادوا الترويج لأنفسهم والتسويق لمواهب مزعومة وجعلوا جبتهم قبة.. وتلك موهبة لا ننكرها على أصحابها وقدرة نحسدهم عليها إنها القدرة على جعل الحبة قبة.. وجعل الذرة مجرة.

ولصوص الكاميرا أكثر وضوحا وأطول باعا فى السياسة والحكم فقد قال لى أحد الذين أثق بقولهم إن التاريخ لم يذكر اسما واحدا، حتى الآن من القادة الحقيقيين لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأن كل الذين أخذوا أدوار البطولة فى الفيلم ليسوا سوى لصوص أضواء "وحرامية كاميرا" سرقوها من أصحاب البطولة الأصليين.

والظاهر بيبرس من أشهر لصوص الكاميرا فى تاريخنا السياسى فقد جاء الملك المظفر سيف الدين قطز إلى الحكم لمجرد أن يهزم التتار فى عين جالوت ولم يهنأ لحظة بملكه ولا بعرشه فقد طعنه بيبرس فى طريق العودة من معركة النصر وصار بيبرس هو قاهر التتار وصاحب البطولة والسيرة الشعبية بينما لا يعرف أحد لقطز قبرا حتى الآن.

وحكاية لصوص الكاميرا بلا نهاية.. وحتى الآن لا أعرف لماذا يحتل الزعيم محمد فريد سطرين فى التاريخ ويأكل صديقه مصطفى كامل باقى كعكة التاريخ وحده رغم ما عاناه فريد من عذاب حتى مات معدما فى منفاه وهو الرجل الثرى الذى أفقرته قضية بلده.. وحتى الآن لا أعرف من المفترى ومن المفترى عليه فى تاريخنا..وكل ما أنصح به الناس هو أن يعتمدوا على أنفسهم فى البحث عن الحقيقة بعيدا عن كتب التاريخ التى تكذب من العنوان إلى آخر صفحة.

وإذا أردت أن تزداد يقينا بما أقول فاقرأ هذا السيل العرم من كتب المذكرات والسير الذاتية.. ولكن اقرأ بحذر لأن العنوان الرئيسى لكل هذه الكتب والرسالة التى يريد كل كاتب أن تصل إليك هى أنه صانع الأمجاد وأنه الشمس التى تدور حولها كل الكواكب وأنه الناصح الأمين والمستشار المخلص وأن الوطن بدونه سيصبح خرابا يبابا وأن على الشعب أن يقبل يده "وش وضهر" لأنه أنجب مثل هذا العبقرى.. وهكذا يا سادة يكتب تاريخنا مجرد انطباعات ومشاعر خاصة وأقلام هوائية تعز من تشاء وتذل من تشاء ومع الوقت ومرور الزمن تكتسب هذه الانطباعات قدسية ومهابة وجلالا وتصبح تراثا وإرثا يكفر من يجرؤ على الشك فيه وإعادة النظر بشأنه ويأثم ويخرج من الملة من يتأمله من جديد.

ولماذا تذهب بعيدا فى الماضى؟ يمكنك الآن أن تفحص أصدقاءك وزملاء مهنتك

تحدد من منهم يملك موهبة سرقة الأضواء ونشل الكاميرا.. وعندما تعرف بالضبط لصوص الكاميرا يمكنك أن تؤكد وتقسم على أنهم وحدهم المرشحون بقوة لدخول التاريخ واحتلال قمته وربما بعد مائة عام سيقول التاريخ للأجيال القادمة إن هؤلاء هم الأبطال والزعماء والنخبة وقادة الرأى والقدوة والنموذج فتاريخنا بارع فى تجيم الأقزام وتقزيم العماليق.. لأنه تاريخ شفاهى بلا وثائق ولا مستندات بدليل أن أحمد عرابى أكل الكعكة كلها وترك الزعيم الشعبى الحقيقى للثورة العرابية عبدالله النديم "يقشر بصل" فى غرفة كرار التاريخ.. ولو لم تندلع ثورة يوليو ما عرف التاريخ شيئا عن عرابى لأن العسكريين قادة الثورة جعلوه بطلا لمجرد أنه زميل حتى الثورة سموها باسمه وهو تقليد عجيب ليس له مثيل فى العالم أن تسمى الثورات بأسماء الأشخاص أو السنين والشهور فيقال الثورة العرابية.. أو يقال ثورة ١٩١٩. وكأنهم خجلوا أن ينسبوا الثورة للشعب ويقولوا إنها الثورة الشعبية التى اندلعت عام ١٩١٩.

وعندما قرأت أو تصفحت عرض بعض الكتب التى تتحدث عن أعظم مائة امرأة مصرية فى القرن العشرين أو أعظم مائة أى حاجة مصرية فى القرن الماضى أو مائة أى حاجة عربية رأيت أسماء ما أنزل الله بها من سلطان حشرت حشرا للمجاملة أو الغزل أو الإعجاب الشخصى أو العلاقات الخاصة..وهناك جرأة نادرة من الكتبة الذين حبروا هذه الكتب فلم يقل أحدهم فى المقدمة أن هذا مجرد رأيه الشخصى الذى لا يفرضه على أحد.. بل يقول على الملأ "وعينى عينك" وهو يعلم أنه يكذب أنه وصل إلى إحصائه هذا عبر دراسات واستبيانات واستطلاعات للرأى العام على مدى خمس سنوات مثلا أو عشر سنوات.

ونحن لا نستطيع أن نمنع أحدا من أن "ينخع" ويكذب ويكتب ويفترى على الله وعلى الناس كذبًا ولكننا نحاول أن نتعلم القراءة والاستماع والمشاهدة بشك وريبة وتوجس وحذر.. نحاول أن نتعلم ألا ننخدع بالزاعقين والناعقين وصانعى القباب من الحبات وصناعى المجرات من الذرات.. نحاول أن نتعلم كيف نترك ونهمل المتزاحمين على الأضواء لنبحث عن الحقيقة فى المناطق المعتمة والمظلمة من تاريخنا لأن الحقائق كلها بحلوها ومرها موجودة فى تلك المناطق بينما الكذب الصراح فى مناطق الزحام والأضواء.. وفى الزحام يكثر النشالون ولصوص التاريخ والكاميرا وتقل القدرة على الفرز والانتقاء والاختيار الصحيح وتزداد عمليات النصب والدجل والشعوذة ولعب "الثلاث ورقات" وشغل الحواة ومن أراد النجاة فليكتب كتابة مودع وليسمع سماع مودع وليقرأ قراءة مودع وليشاهد مشاهدة مودع وليقل قول مودع كما يصلى صلاة مودع وليرحمنا الله من حرامى الكاميرا الذى يكسب دائما دون أن يلعب؟

"عملوا لنا البحر الأحمر طحينة"!

الحكومة من الأهالى وليست غريبة عنهم.. لذلك تتحدث مثلهم وتستخدم نفس مصطلحاتنا نحن الجالسين على المقاهى أو الواقفين على النواصى حتى إذا كانت المصطلحات غير دقيقة وغامضة.. ومضحكة أحيانا لمن يتأملها جيداً.. فنحن الناس العاديين الذين ليسوا حكومة ولن يكونوا.. نفرق بين من مات فى حادث ومن مات مريضاً بقولنا ان الذى مات فى مرض "مات موتة ربنا" وكأن الذى مات فى حادث سيارة لم يمت "موتة ربنا".. أى ان ربنا سبحانه وتعالى مسئول فقط عمن مات فى مرض.. أما أى موت آخر فهو ليس "موتة ربنا"!

ونحن نقول عن كل ميت إن "ربنا افتكره" ولا يخفى ما فى هذا القول من سوء أدب مع الله رغم حسن النية وسلامة القصد.. وجل من لا ينسى ولا يسهو ولا يضل ولا تأخذه سنة ولا نوم ولكنه فى العامية المصرية يسمى "كلام فارغ" أو كما يقول اخواننا فى دول الخليج "خرابيط" أو كما يقول الشوام "طق حنك" أو يقول السودانيون "كلام خارم بارم".. انه فى الفصحى من فضول الكلام وفضلاته أيضاً.. ولكنه يقال ولايقف عنده أحد قليلاً ليتأمله.

وقد قال مسئولون فى الحكومة شيئاً من هذه "الخرابيط" عندما وقعت كارثة العبارة السلام ٩٨ فى يوم نحس مستمر.. قالوا ان الحادث قضاء وقدر.. والقضاء والقدر متهم جديد يضاف إلى قائمة طويلة من المتهمين فى حوادثنا وكوارثنا منهم فأر السبتية والماس الكهربائى وعقب السيجارة والمختل عقلياً.. وأحد ضحايا أى حادث بشرط أن يكون قد مات حتى لا يدافع عن نفسه مثل قبطان العبارة سالم اكسبريس الذى لبس القضية وهو ميت وقبطان العبارة السلام ٩٨ الذى يبدو انه فى الطريق إلى أن "يشيل القضية" وهو ميت أيضاً - وطيار البوينج التى سقطت عند سواحل نيويورك الذى قيل حتى فى تحقيقات أمريكا انه انتحر وأخذ معه كل ركاب الطائرة إلى الآخرة.

والسؤال الذى لا جواب له: ما المقصود بالقضاء والقدر؟ هل هو شماعة من الصلب لتعليق الأخطاء عليها؟ هل هى مصادرة لآلام الناس وتأوهاتهم ودموعهم.. بحيث لو نطقنا بأى حرف نكون معترضين على قضاء الله وقدره؟ ويقال لنا ساعتها ما قاله أبطال مسرحية "مدرسة المشاغبين" لمدرستهم "اعترضى بقى على كلام ربنا".

والقول بالقضاء والقدر يعنى حكم براءة سريعاً وعاجلاً ومن أول نظرة لصالح أى
طرف من أطراف الكارثة.. وهو بالضبط يشبه مصطلح "موتة ربنا" ومصطلح "ربنا
افتكره" فالضحايا الذين ابتلعهم البحر الأحمر ماتوا قضاء وقدراً أو موتة ربنا أو
ربنا افتكرهم - لا فرق.. المهم ومن أولها "كده" لا يوجد متهم.. وإذا كان لابد من
متهم فليكن القبطان الذى مات.

وإذا كان القضاء والقدر دليل براءة وشماعة واتجاهاً لقيد الحادث ضد مجهول فإن
علينا أن نلغى القوانين والتشريعات كلها فوراً.. فلا توجد همسة أو لمسة فى حياتنا
خارج القضاء والقدر. عندما نعتمد عذر القضاء والقدر فإن علينا أن نعممه ولا نقصره
على حالات خاصة.. فالميت مقتولاً بطعنة سكين أو برصاصة مع سبق الاصرار
والترصد.. مات قضاء وقدراً وانتهى أجله وحانت ساعته.. والقاتل مجرد أداة فى يد
القضاء والقدر.. فما الداعى لتنفيذ حكم الله بالقصاص أو حكم القانون الوضعى
بالاعدام أو المؤبد؟ أليس ما حدث قضاء وقدراً للقاتل والمقتول؟ وحوادث السيارات
قضاء وقدر وقتل الأزواج وتعبئتهم فى أكياس بلاستيك قضاء وقدر.. ومع ذلك نحن
مطالبون شرعاً وقانوناً بأن نبحث عن القاتل أو مرتكب أى جريمة للقصاص منه.. وأى
جريمة فى الدنيا فيها جان ومجنى عليه.. ولو اعتبرنا القضاء والقدر هو الجانى فى كل
جريمة لأصبحت الحياة عبثية وما كان هناك أى داع للشرائع السماوية والقوانين
الوضعية.. ولقلنا عن اللص الذى يسرق مالى.. إن مالى هذا هو رزق اللص الذى رزقه
به الله فلا يصح عقاب السارق شرعاً ولا قانوناً لأن رزقه هذا مكتوب له.. ولا ينبغى أن
أسعى لاستعادة مالى المسروق حتى لا أقطع رزق اللص.

والمشكلة فى الخلط بين الشرع الحكيم وأهوائنا التى نجعلها حصاناً يجر عربة
الشرع إلى حيث يريد الهوى والمزاج كأن يكون الرجل ملحداً لا يؤمن بأى دين ثم
يتزوج أربع نساء ويقول: إن الإسلام أباح له ذلك.. وانه استخدم حقه الشرعى..
فالرجل الملحد انتقى من الشرع ما يوافق نزواته وهواه.. أى انه اتخذ إلهه هواه ولا
إله له سوى الهوى والمزاج..

وهكذا ينتقى الأهالى والحكومة معاً ما يوافق مزاجهما من الشرع وما يبرر
أفعالهما.. بحيث يبدو الأمر منطقياً ولا يصح الاعتراض عليه.. فمسألة المال
والرزق مثلاً والتفرقة بينهما منطقية جداً.. فمالك الذى يبلغ الملايين أو المليارات..
ليس كله رزقك وإنما رزقك ما أنفقت منه وما استهلكت فى مأكل أو مشرب أو
صدقة.. والباقى رزق غيرك.. رزق عمالك أو رزق ورثتك أو رزق اللص الذى سطا
على بيتك أو رزق الطبيب الذى تدفع له ليعالجك من مرض عضال مزمن.. أو رزق
المحامى الذى يتولى قضاياك.. أو أنت الكنزى وابنك النزهى.. فيصبح مال الكنزى
رزق النزهى.

لكن استخدام هذا المنطق الشرعى السليم كتبرير سقيم للسرقة أو السفه
والإسراف أو النصب والاحتيال باعتبار أن ما نحصل عليه بالسرقة والنصب
والاحتيال رزقنا هو جعل الهوى حصاناً والشرع عربة.. فقد حسم الشرع الأمر
وقطع الطريق على الأهواء حين أكد أن هناك مالاً حلالاً طيباً ومالاً حراماً خبيثاً..
وهناك أيضا رزق حلال طيب ورزق حرام خبيث.. وعليك أن تختار بين الحلال
البين والحرام البين.

وهكذا يبدو استخدام القضاء والقدر لتبرير الكوارث والحوادث نكتة سخيفة
وشماعة مكسورة.. كما يبدو اتهام الأموات بارتكاب الكارثة والمسئولية عنها
جريمة أخرى واعتداء على حرمة الميت.. وتعليق كارثة العبارة السلام فى رقبة
قبطانها الميت حيلة قديمة وساذجة.. مثل أبناء العم الذين كانوا يركبون سيارة
يقودها أحدهم فتعرضوا لحادث أليم مات فيه أحدهم ونجوا جميعاً بمن فيهم
قائد السيارة وخرجوا بإصابات مختلفة.. فاتفقوا فيما بينهم على أن يقولوا إن
الميت هو الذى كان يقود السيارة لينجو قائدها من المساءلة.. وكان الهدف نبيلاً
لأنهم خافوا على بعضهم من المساءلة وعلقوا الأمر فى رقبة ابن عمهم الميت
ودعوا له بالرحمة.

وأى منصف لا يستطيع اتهام الحكومة بالتقصير فى التعامل مع أزمة أو كارثة
العبارة فور وقوعها أو فور العلم بها والابلاغ عنها بمعنى أدق لأن التحرك لم يكن
فور وقوع الكارثة ولكنه كان فور الابلاغ عنها وبين الوقوع والابلاغ ساعات طويلة
أعطت البحر الأحمر فرصة سانحة لابتلاع مزيد من الضحايا.

نقول بلا مجاملة ان الحكومة تحركت بسرعة وبذلت ومازالت تبذل أقصى
الجهود لتجفيف الدموع واتخذت إجراءات وقرارات رائعة ومتطورة وكسرت
الروتين وعدلت القوانين وجندت كل أجهزتها لخدمة الناجين وأسر الضحايا.. هذا
كله لا غبار عليه ولا أحد ينكره أو يجحده. ولكن السؤال يبقى أيضا بلا جواب:
إلى متى تظل الحكومات المتعاقبة تقوم بدور الطبيب المعالج الذى يتعامل مع المرض
بعد استفحاله؟ والنتيجة الحتمية أن يبذل الطبيب جهوداً مضنية ويسهر على رأس
المريض.. ويعطيه أدوية بلا عدد لكن المريض يموت.. ويكون الطبيب "عمل اللى
عليه.. لكن السر الإلهى طلع".

الحكومات المتعاقبة دائماً تفاجأ وتصاب بالصدمة ويقع ما لم تحسب له أى
حساب.. وتتكرر الكارثة فى نفس المكان وبنفس السيناريو لكن الحكومات أيضاً
تفاجأ وتلدغ من الجحر الواحد مائة مرة.. والمفاجأة والبغتة والصدمة كلها أشياء
تؤدى إلى "الهرجلة" والهوج والهرج والمرج وسوء التصرف وتضارب الأقوال والأفعال

رقام وإلى أن تلم الحكومة نفسها وتستوعب الصدمة تزداد الخسائر وتتفاقم
اعيات وكثيراً ما تصبح آثار وتداعيات الكارثة أخطر من الكارثة نفسها.
حن الأهالى أو الحكومة "ماشيين بالبركة" فى كل أمورنا.. لا علاقة لنا بفكر
قاية والانذار المبكر.. وتوقع الأزمات والكوارث والتخطيط للاحتمالات السيئة..
حن الأهالى أو الحكومة نتعامل بمنطق "خليها على الله".. وشعار "كله تمام
فندم" حسب أوامر سعادتك وتوجيهات سيادتك..
كل شىء عندنا مشرق "ومزهز" ولا يمكن أن تحدث أى مصيبة غير متوقعة لأننا
الأمن والأمان.. وإذا وقعت الواقعة نفاجأ ونصدم ونرتبك ونتخبط ونقول كلاماً
رتبكاً بلا منطق.. عن القضاء والقدر وأن الكارثة يحدث مثلها وأكبر منها فى
روبا والدول المتقدمة.. ونستشهد بقطار الهند وحوادث السير المروعة فى
طاليا.. وغرق الصينيين أو احتراقهم فى البحار أو المناجم.. وكل هذا لإبراء
ذمة ثم نبتلع عدة أقراص من حبوب النسيان "وننسى وناخد البنسة".وقد سبق
حكومة أن أعلنت انها بصدد إنشاء جهاز إنذار مبكر للأزمات.. ولكنها على ما
يبدو معنية أكثر بالأزمات الاقتصادية المتعلقة بالبورصات وأسعار العملات
البترول.. ولا تشغل نفسها كثيراً بالكوارث الإنسانية التى تطيح بكبار الجالسين
على المقاعد فى أوروبا والدول المتقدمة التى نتغنى بها ليل نهار. وإذا كان لنا نحن
البسطاء عذر التصرف الانفعالى بمنطق رد الفعل فإن الحكومة تكون على خطأ
كبير إذا حذت حذونا ولم تتوفر لها الأجهزة والإمكانات التى تتيح لها توقع الأزمات
والكوارث.. وتكون حكومة عشوائية مثلنا تماماً إذا ظلت هكذا تهب من نومها
العميق مفزوعة على كارثة أو مصيبة وإلى أن تفرك عينيها وتغسل وجهها وترتدى
ملابسها "وتسبسب" شعرها وتأكل "ساندويتش" وتشرب فنجان شاى وتنزل من
البيت جرياً بالبيجامة تكون القيامة قامت.. وعندما تسأل عما حدث يقال لها
"العبارة فى العبّارة" "ويعملولها البحر الأحمر طحينة".

بلطجة بالكمات والكلمات!

روى لى أحدهم أن نقيب المحامين الراحل الأستاذ أحمد الخواجة وكان ذا باع وذراع فى السياسة والحنكة والحكمة.. حضر مؤتمرا بمقر النقابة يوما وحين احتدم الخلاف تصدى بعض أنصاره للمخالفين بشىء من الحدة والعنف.. فقال نقيب إحدى النقابات الفرعية للخواجة وكان من أنصاره أيضا: لا يصح أن يحارب لنا البلطجية معركتنا فرد الخواجة بهدوء شديد: نحن فى حاجة أحيانا إلى بعض البلطجية!!.

وهناك قول يشبه ذلك يتردد كثيرا هذه الأيام وهو أن الحق فى حاجة إلى قوة تحميه.. والمقصود بالقوة هو البلطجة ولا شىء غيرها.. ومن يرددون هذا القول لديهم يقين بأن الحق معهم.. وأن حقهم هذا يحتاج إلى قوة أو بلطجة لفرضه أو نشره أو إخضاع الآخرين له.. ولا أدرى من أين جاء هؤلاء باليقين الراسخ بأن الحق معهم وحدهم.. وذلك اليقين والاحتكار التام للحق والحقيقة.. هو الذى جعل البلطجة مهنة وحرفة ومصدر رزق فى مجتمعاتنا.. واحتكار الحقيقة جعلنا نفشل تماما فى أن نتعلم كيف نختلف وكيف نتحاور.. وجعلنا نظن أن كل من يختلف معنا خصم وعدو ومتآمر وينبغى إخضاعه أو تصفيته بالقوة والبلطجة.

والبلطجة ليست فقط بلطجة لكمات ولكنها أيضا بلطجة كلمات.. فهناك بلطجية لسان أو من نسميهم فى عاميتنا "فنجرية بُق" أو فنجرية وبلطجية قلم أو هم من أنصار "خدوهم بالصوت ليغلبوكم".. وهؤلاء لديهم موهبة احتكار للحق والحقيقة ومصادرة آراء الآخرين أو لديهم قدرات خارقة على الاستقواء بالسلطة أو بأهل الحل والعقد للانتصار لزيفهم وبهتانهم.

وآفة احتكار الحقيقة والبلطجة هى التى أدت إلى زيادة جرعة العدوانية لدينا.. وأدت إلى انتشار ما نسميه فى قاموسنا "الزمبة أو الزنبة أو الزنب".. "وفقع الزنب" أحد أساليب البلطجة بالكلمات لا باللكمات.. والزنب لها اسم آخر فى قاموسنا هو "المهاميز" جمع مهموز وانتشارها يعود إلى الظلامية الشديدة التى نمارس بها عملنا وعلاقاتنا ويعود إلى الرغبة فى الانفراد بالسلطان أو الفوز بالحظوة لديه.ويعود إلى أن السلطان فى أى موقع يدير الأمور بأذنيه لا بعقله ولا بقلبه.. ويعود إلى سياسة الباب المغلق فى إدارة الأمور وتسييرها.

وانتشار الدس والتآمر فى أى موقع يرجع إلى افتقادنا ثقافة العمل الجماعى أو

الرأى الجماعى أو الرغبة لدى كل منا فى إزاحة الآخرين وطرحهم أرضا ليخلو له وجه أبيه أو رئيسه.. وأول مهموز فى التاريخ "فقعه" إبليس لآدم وحواء.. أى أن كل الذين يوسوسون الآن ويدسون هم أحفاد إبليس.. لكن الله - سبحانه وتعالى - أوحى لآدم كلمات يتوب بها وتاب عليه ونجا من مهموز إبليس بعد أن هبط هو وزوجه ونحن جميعا من الجنة إلى الأرض.

والدساسون والمتآمرون والمتخصصون فى المهاميز مثابرون جدا ولديهم صبر وجلد ودأب فى عملهم ومهنتهم التى اختاروها ولديهم أساليب مبتكرة فى الأداء ولديهم قدرة على إلباس الباطل ثوب الحق.. وبضاعتهم رائجة جدا لأن أذن السلطان فى أى موقع مضبوطة على سماع السوء.. فأنت تحتاج إلى وقت طويل للغاية لتقنع السلطان بأن فلانا جيد وطيب وخلوق ومخلص فى عمله.. وغالبا ما تفشل مساعيك لكنك لن تستغرق سوى دقائق لتقنع السلطان بأن فلانا سيىء وخائن وخائب فى عمله.

والسياسة الدولية أو النظام العالمى الجديد الذى تقوده أمريكا إلى الهاوية قائم على البلطجة واحتكار الحقيقة والقول إن الحق لابد له من قوة تحميه.. فلا ديمقراطية غير التى تريدها أمريكا ولا سلام غير الذى تريده إسرائيل وأمريكا.. ولا إرهاب غير الذى تشير إليه أمريكا.. ومن ليس مع أمريكا فهو ضدها.. وما تفصله أمريكا ينبغى أن نرتديه ولو لم يكن على مقاسنا.

أمريكا ترفع شعار الفاشية الذى أطلقه موسولينى وأدى إلى الحرب العالمية الثانية وهو شعار "موسولينى دائما على حق".. وبهذا الشعار تعيث فسادا وخرابا فى العراق وتستعد لالتهام دول المنطقة الواحدة تلو الأخرى.. بالحرب العسكرية أو بالضغوط السياسية والاقتصادية وفرض الأجندة التى تريدها.

وهناك تعريف للسياسة منذ القدم بأنها فن الممكن.. والتعريف الذى ينطبق على سياسة النظام العالمى الجديد هو فن التبرير وبراعة الكذب.. وحين رأينا عبر الشاشات صور الانتهاك الصارخ لآدمية الإنسان العراقى فى سجن أبوغريب ازداد لدينا اليقين بأن السياسة هى فن التبرير والكذب وأن القوانين الدولية أو المحلية فى أى دولة صدرت لاختبار قدرة الأقوياء على مخالفتها وتجاوزها لا على الالتزام بها وتطبيقها.. أدركنا أن المعاهدات والمؤتمرات والمنتديات والاتفاقيات والقرارات واللجان - كلها مسكنات أو مخدرات لإفقاد الشعوب وعيها وإقناعها بأن الورق هو ما يحدث فى الواقع.. رغم أن كل هذا الزحام والترسانات من القوانين والتصريحات والقرارات ليس له هدف سوى تطبيق الحد على الضعيف وإعفاء الشريف منه.. وهو ما أهلك الأمم من قبلنا وسيهلكنا أيضا.

وعندما تمد الخطوط على استقامتها سواء كانت خطوطا دولية أو إقليمية أو

محلية تلتقى جميعا فى نقطة واحدة هى ازدواج المعاييروالكيل بمكيالين وإقامة الحد على الفقير المعدم الضعيف وإعفاء الغنى الشريف القوى.. وازدواج المعايير أحد أهم أساليب البلطجة محليا ودوليا وإقليميا.. فأمريكا تقلب الدنيا رأسا على عقب من أجل أسلحة دمار وهمية لدى صدام حسين وسلاح نووى مزعوم لدى إيران وتجد ألف تبرير لسلاح نووى يقينى لدى إسرائيل.. وفى دولنا العربية لا ينبغى أن نطالب أمريكا بالكف عن سياسة الكيل بمكيالين.. بينما تمارس الحكومات جهارا نهارا سياسة ازدواج المعايير والكيل بمكيالين مع شعوبها.. فالأسعار تلهب ظهور الفقراء بسياطها ويخرج من يقول إنها موجة عالمية.. بينما هى موجة احتكارية داخلية ورياح تجرى فى شراع حفنة من الأغنياء تتضخم ثرواتهم على جثث المعدمين.

والحكومات تمارس العنتريات المزعومة حين تصرح وتصرخ بأن المجرم لن يفلت من العقاب بينما نعرف نحن جميعا جيدا أن نوعية المجرم وحيثيته ونفاذه ونفوذه كلها أشياء ستحدد إن كان سيفلت من العقاب أم لن يفلت.. حيث ينظر القانون إلى رأسه فإن رأى عليه ريشة أفلت من العقاب وإن لم يجد ريشة فسوف ينال أشد العقاب.

وعلى مستوى الأفراد لم يعد الدس والتآمر والنفاق مهنة أو حرفة بأجر أو بمقابل أو بامتيازات بل صار هواية يمارسها أصحابها مجانا وحبا وعشقا لها.. وعلى مستوى الدول أيضا صارت التبعية لأمريكا هواية يمارسها من يمارسها حبا وعشقا بدليل أن المواقف يتم تقديمها مجانا لأمريكا ولم يعد هناك ما يمكن تقديمه بمقابل أو المساومة عليه.. ولم تعد لدى هواة التبعية أوراق يضغطون بها ويساومون عليها.. حتى أننا نسمع الآن من يردد ليل نهار أن التبعية قدر لا مفر منه وأنه لا قبل لنا بمواجهة الكبار.. وأن العولمة مثل الموت لا مفر منه.. لأن الموت سيطالك حتى وأنت كاره له.. كذلك العولمة.. أى أننا نريد أن نطفىء نور العولمة بأفواهنا وتأبى أمريكا إلا أن تنشر العولمة ولو كره الرافضون.

ونعقد المؤتمرات والندوات وننقسم فيها إلى فريقين.. أحدهما يحذر من غول العولمة وخطرها وضرورة مواجهتها والآخر يطالب بفتح الأبواب لنور العولمة والترحيب بها.. لكن الفريقين متفقان على أن العولمة قضاء وقدر.. وهى خير لابد منه أو شر لابد منه.. ويتحدث الجميع عن العولمة كأنها الساعة الآتية لا ريب فيها ويتبارون فى سرد علاماتها الصغرى وعلاماتها الكبرى.. وينسون حقائق التاريخ والدين الإسلامى الذى هو أصلا دين العالمين أو العولمة.. فالرسول رحمة للعالمين.. وهو للناس كافة.. وينسون أن العولمة وإزالة الحدود والقيود والسدود وتمزيق الهويات وجوازات السفر ليس سوى رد الأمور إلى أصلها وليس تطورا جديدا ولا هو بغتة ولا مفاجأة ولا هو قيامة لا ريب فيها.. والذين سيحتجون يوم القيامة بأنهم كفروا وأشركوا لأنهم كانوا مستضعفين فى الأرض سيقال لهم: ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها؟

فالعولمة عود على بدء وهى فى صالح الإسلام ولا خوف منها وصراع الحضارات والثقافات وصدامها ليس مخيفا ولا هو كارثة ولكنه قادم لا محالة لينتصر الأقوى ويظهره الله على الدين كله والحضارات كلها ولو كره الكارهون.

والمسألة كلها فى جميع المجالات ليست سوى بلطجة كلامية ومحاولة يائسة لإثبات أن أمريكا تمضى فى مخططها وتوجهاتها لتحقق النصر المبين بينما الحق أن توجهات ومخططات أمريكا وإسرائيل وأنظمة الحكم فى كل الدول تمضى إلى حيث أراد لها الله وإلى حيث أراد لها السيناريو المعد سلفا.. فلابد من أن يبلغ الظلم والجور مداهما وأن يركب الباطل ويتوارى العدل وتزدوج المعايير ويميل الميزان ويتطاول الحفاة العراة رعاة الشاة فى البنيان وتشيع الفاحشة ويتولى الأمر غير أهله.. لابد من ذلك كله ليهب الحق هبته ويفيق الغافلون ثم يرث الله الأرض ومن عليها.

وعلى الذين يسعون فى الأرض فسادا ويدسون ويتآمرون ويمارسون البلطجة أن يعلموا أن الحق ليس ملكا لفرد أو هو حكرا على مجموعة من الأفراد.. وأن الحق معنا جميعا.. لكنى أملك منه ذرة وأنت تملك منه ذرتين والثالث يملك منع سبع ذرات.. وإذا أردنا أن نصل إلى هدفنا فإن على كل منا أن يضم بضاعته من الحق إلى بضاعة الآخرين ليكتمل الحق بلا نقص.. وهذا ما فهمته من قول الله - تعالى "فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق".. أى أن الحق فيه اختلاف بين أتباعه.. والهداية هى أن نجمع حقى إلى حقك إلى الحق الذى لدى الآخرين ليصبح الحق كله معنا جميعا.. ولو ظللنا متفرقين وكل منا متمسكا بما معه من الحق على أنه الحق كله لكانت النتيجة أننا جميعا على باطل.. وهو ما نعيشه الآن فنصف الحقيقة باطل تام كامل.. ونصف الصدق كذب كامل.. والإصرار على الذنب ذنب آخر.وقد عرف الأولون من العرب السياسة وتصاريفها وحكمتها والاختلافات فى الحق قبل إن يعرفها الغرب وتبادلوا فى ذلك أقوالا غاية فى الدراية والحكمة والوعى ومن ذلك رسالتان متبادلتان بين الحجاج بن يوسف الثقفى والى العراق والخليفة الأموى عبدالملك بن مروان.. فقد فر عروة بين الزبير إلى دمشق حيث الخليفة هربا من الحجاج الذى اتهمه بحبس مال المسلمين فأرسل الحجاج إلى عبدالملك قائلا: إذا أدنى الناس بالصفح عن الجرائم كان ذلك تمرينا لهم على إضاعة الحقوق والناس عبيد العصا واستخراج المال من عروة قطع لطمع غيره.. فرد عبدالملك عليه قائلا: إنك خابط فى السياسة خبط عشواء الليل.. وقولك إن الناس عبيد العصا أخرج رجالات العرب إلى الوثوب عليك.. وإذا عاملت العامة بعنف السياسة وثبوا عليك عند الفرصة ولا يلتفتون إلى ضلال الداعى ضدك أو هداه.. وأعلم أن الإفراط فى العفو أفضل من الإفراط فى العقوبة.. والسلام.

نصف عمرى فاتنى كثيراً!!

إذا سمحت لى أيها القارىء بأن أقف موقف الناصح الأمين فإنى أنصحك مخلصاً وصادقاً بألا تقرأ لصحفى يهاجم صحفياً آخر.. وإذا رأيت فيما أكتب يوماً ما هجوماً على صحفى زميل فلا تقرأ لى.. ودعنى أتوسع فى النصيحة أكثر لأحذرك من قراءة قلم شتام.. حتى لو كان يشتم شارون أو بوش.. فلا فضل لقلم شتام ولا موهبة فى السب والقذف والغمز واللمز.. فقد أوتينا جميعاً قدرات متساوية على السب.. وليس بيننا من لا يحفظ قاموس الشتائم عن ظهر قلب.. والأمر لا يحتاج إلى مزيد من الشتامين.. ويستوى فى الموهبة السبابية الصحفى والندابة والزبال والضابط والرداحة والشردوحة.. فلا معنى لأن أضيع وقتى ووقتك بأن أقول إن شارون سفاح ودموى وإرهابى وأن بوش قاتل أطفال ومصاص دماء.. وأن زميلى الصحفى فلان كلب سلطة أو تافه أو يأكل على كل الموائد.. فلا أظن أن فى هذا السيل العرم من الشتائم اضافة لمعلوماتك أو كلمة جديدة على قاموسك الذى تحفظه مثلما أحفظه تماماً.. وكلما بالغ أى قلم فى عبارات السب وكلمات القذف قدم برهاناً ناصعاً ودليلاً ساطعاً على إفلاسه وخوائه وجفاف ونضوب معينه وقريحته.

والسؤال الذى ينبغى أن تسأله لنفسك حين تقع عيناك على مقال لصحفى يشتم آخر أو يردح له هو وأنا مالى؟ وما دخلى فى معركة بين اثنين من الصحفيين؟ ولماذا لا يحترمان ملكية القارىء الأصيلة لتلك المساحة التى استغلاها فى تبادل الردح؟ الصحفيون الذين يتبادلون الشتائم والاتهامات على صفحات الصحف يحتقرونك أيها القارىء.. لا تعنيهم أنت فى شىء.. يجعلونك شاهداً "ماشافش حاجة".. يستغلون المال العام وهو الصحف حتى لو كانت خاصة فى تصفية حسابات شخصية وفى التنافس على مكان فوق "حجر" صاحب نفوذ أو صاحب قرار.. إنه صراع أنت ضحيته.. وفى النهاية ينبغى إذا كنت حصيفاً وواعياً أن يسقط الجميع من نظرك.. يسقط الشاتم والمشتوم.. بل وتسقط الصحافة كلها.. لأنك بعيد عن قلب الصورة ولا تعرف الحقيقة ولا تعرف سبب الخصومة والردح المتبادل.. وساعتها ينبغى أن تقول بكل ثقة: يبدو أن كل الصحفيين ليسوا أهلاً للثقة.

الحال أصبحت لا تسر يا صديقى فقد بلغ الأمر ببعض الصحفيين حد استعداء السلطة ضد بعضهم لأن أحدهم يطمع فى موقع الآخر أو لأنه يريد إزاحته.. وبلغ الأمر

حد التصيد والبحث تحت الحروف وبين السطور والتفتيش فى النوايا للعثور على دليل إدانة يطيح بالزميل العدو اللدود.

يخيل للناس الآن وهم يقرءون أن البلد لم تعد به قضايا وأن مشاكل الأمة قد انتهت ولم يعد هناك غير صحافة جرير والفرزدق اللذين يتبادلان السباب والهجاء والقدح.. وأمير المؤمنين وحاشيته وبلاطه يضحكون حتى يستلقوا ويلقوا بأكياس الدنانير الذهبية لمن يقذع أكثر فى الهجاء ويطول لسانه وقلمه أكثر فى السب.

ويقول بعض المؤرخين ولعله قول حق إن انتشار شعر النقائض والهجاء وتبادل السب بين الشعراء كان مقصوداً من جانب أمراء المؤمنين فى صدر الإسلام حتى ينشغل الشعراء بعداواتهم الخاصة فيما بينهم ويكفوا ألسنتهم عن الحال "المايل" فى الدولة وأن الحكام والوزراء كانوا يقربون هذا إغاظة لخصمه ثم يقربون خصمه إغاظة له.. ويظل الشعراء يتنافسون ويتصارعون على الحظوة لدى السلطان وقد سئل أحد الحكماء عن ميزانه الذى يزن به درجة الفساد أو الصلاح فى الأمة.. فقال: أعرف أن الأمة فسدت حين أرى زحام العلماء على باب السلطان.. وأعرف أنها صلحت بتزاحم السلاطين على مجالس العلماء.. فقيل له: ولماذا لم تقل: على أبواب العلماء؟ فقال: ليس للعلماء أبواب ولو كانت لهم لفسدوا.

ولفظ العلماء فى الماضى يساوى فى عصرنا لفظ النخبة الذى نطلقه عادة على المثقفين وأهل الإعلام.. وتزاحم النخبة على أبواب السلاطين وموائدهم برهان فساد للمجتمع ودليل انحدار للقيم وتدنى وانهيار المنظومة الأخلاقية.. وفى هذا الزحام والتدافع على بلاط السلطان يندلع الصراع بين المتزاحمين.. كل منهم مهموم بالانتقاص من صاحبه أكثر من همه بتقديم نفسه.. وكل منهم فى هذا الطابور الطويل على باب السلطان يسعى لجذب صاحبه أو خصمه من "قفاه" ليأخذ دوره فى أول الطابور.. فأنا فى الطابور الطويل مشغول بتأخيرك أكثر من انشغالى بتقديم نفسى.

كل الذين فى دائرة الضوء سواء كانوا فنانين أو إعلاميين أو مثقفين يكرهون بعضهم حتى الموت.. وهذه الكراهية بين أبناء "الكار" الواحد تبدو باهتة وخافتة فى المهن التى تبتعد قليلاً أو كثيراً عن بقعة الضوء.. لذلك فإن عداوة "الكار" الواحد أقل بين المهندسين والأطباء بينما هى صارخة بين الصحفيين والفنانين والمثقفين ممن أدركتهم حرفة الأدب.

وقد جذبت أضواء الإعلام ذوى المهن الأخرى فأفسدتهم ونقلت إليهم العداء الصارخ فيما بينهم.. وإننى أستطيع أن أزعم بأن أسوأ الأطباء فى مهنتهم وأقلهم موهبة وعلما هم أولئك الذين سقطوا فى فخ الإعلام والأضواء وراح بعضهم يقدم الرشاوى من أجل أن يظهر فى برامج التليفزيون كنوع من الدعاية لعيادته ومنهم من استغل ظهوره المستمر فى برامج الأرض والفضاء فرفع أسعار الكشف أضعافاً.. والناس فى بلدى معظمهم بسطاء حتى السذاجة.. فتسمع أحدهم ينصحك وينصح كل من يعرف بالذهاب إلى الطبيب فلان

المشهور.. وحجته فى ذلك أن ذلك الطبيب ضيف دائم على برامج التليفزيون أو على صفحات الصحف.

وإذا أردت أيها القارىء أن أكشف لك الخبايا فإننى فاعل.. فبعض الأطباء يعالج أهل الصحافة والإعلام مجاناً مقابل أن يردوا له الجميل بإتاحة الفرصة له لكى يظهر على الهواء أو على صفحات الصحف.. وتلك رشوة أخرى.. والضحية فى البداية والنهاية أنت أيها المنتمى إلى عامة الناس لأنك تبتلع الطعم وتذهب إلى الطبيب الذى نفخه الإعلام وأصابته الأضواء بتورم الذات.. وهو فى الطب قد لا يساوى جناح بعوضة.. بينما هناك أطباء على أعلى مستوى من العلم والأخلاق يقبعون بعيداً فى الأقاليم والقرى النائية.. أو هم فى العاصمة ولكنهم لا يجيدون لعبة الإعلام ولم تصبهم لعنته.

أنت أيها المنتمى إلى عامة الناس وفقرائهم ودهمائهم لا مكان لك فى رؤوس وقلوب معظم المتصارعين على بقعة الضوء.. مشاكلك وقضاياك لا تعنيهم ولا تطرف لها عيونهم.. وإنما أنت مجرد وقود لنارهم.. فهم جيل جديد وأحدث طبعة من شعراء الهجاء والمدح فى الجاهلية والإسلام.. فهم أشعر الناس إذا رغبوا أو رهبوا أو شربوا أو طربوا.. لكنهم لا يركبون أبداً ولا يقربون مرابط الخيل ليخوضوا حرباً من أجلك ومن أجل قضاياك وهمومك.. وأسوأ ما يمكن أن تبلغه أى أمة من فساد وانهيار أن يصبح القلم "سبوبة".. والإعلام مضغة فى جسد الأمة لأنه لسانها فإذا فسدت تلك المضغة فسد الجسد كله.. ولا أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى.. ومن حقك أيها القارىء أن تقرأنى بعين الريبة والشك.. بل إننى أدعوك إلى التسلح بالشك والريبة وسوء الظن فى كل ما يلقى إليك لأننا بكل بساطة نعيش عصراً بلا يقين.

لا تقرأ لمن يمدح أو لمن يقدح.. لاتعبأ بمن يهاجم شخصاً أو يمدحه.. سواء كان المقدوح أو الممدوح وزيراً أو خفيراً.. وعندما تقع عيناك على مقال ملىء بأوصاف المدح أو القدح لشخص ما فاعلم أن وراء الثناء أو الهجاء حاجة فى نفس الكاتب يعقوب.

وأما إذا كان المدح أو القدح من صحفى لآخر فتلك مصيبة أكبر لأنك إذا قرأت واقتنعت بالمكتوب فستكون طرفاً فى معركة لا تعنيك وشريكاً فى جريمة لم ترتكبها.. ومساهماً فى رواج صحيفة وقلم لا يستحقان القروش التى دفعتها.. وعليك أن تتعلم كيف تقرأ قضايا لا أشخاصاً.. فأنا لا يعنينى مثلاً اسم وزير الصحة ولكن يعنينى أداء وزارة الصحة.. الذى أراه سلبياً هنا وإيجابياً هناك.. ولرأيى السلبى أو الإيجابى مبرراته التى قد يختلف معها الآخرون أو يتفقون عليها.. ومربط الفرس وبيت القصيد فى رأيى هو أنت الذى يتعامل مع وزارة الصحة.. موقفى تحدده أنت.. ماذا تفعل معك وزارة الصحة أو أى وزارة أخرى..؟ لكن أى مبرر يمكن أن يقال فى هجوم صحفى على آخر؟ وأى مبرر يمكن أن يقال فى تخصيص صفحة أو صفحتين فى صحيفة ما ليقال فى كل سطورهما إن الصحفى فلان

منافق للسلطة والصحفى فلان لا يجيد الكتابة.. والصحفى الآخر مقالاته تشبه موضوعات الإنشاء؟.. ما علاقة القارىء بكل هذا؟ وما الخدمة المقدمة للقارىء من خلال تبادل الهجوم بين الصحفيين؟ ثم كيف يجرؤ صحفى على مهاجمة زميل من منطلق أنه لا يجيد الكتابة؟ وحين أهاجم زميلاً بأنه لا يجيد الكتابة.. فهل أنا على يقين من اننى أجيد الكتابة؟ هذه جرأة غريبة ومصادرة ممجوجة لرأى القارىء.

ربما لا تجد أيها القارىء مبرراً لكل هذا لكن شاهدا من أهلها يمكنه أن يسوق لك المبرر.. فهل تعلم أن مقالات الصحفيين ضد بعضهم هى الأكثر تداولاً بين الصحفيين أنفسهم فقراء هذه المقالات كلهم تقريباً صحفيون ويقبلون عليها بشغف شديد.. بل من يقرأ هذه المقالات يتطوع من تلقاء نفسه لإطلاع زملائه عليها.. وهو يسأل بإعجاب: هل قرأت مقال فلان الذى يهاجم فيه زميلنا فلاناً؟ إنه مقال خطير وجميل ورائع.. لقد فاتك نصف عمرك لأنك لم تقرأه.. وأنا أكثر الزملاء الصحفيين إضاعة لعمرى.. فدائماً يفوتنى نصف عمرى لأننى لم أقرأ ولن أقرأ هذه الهجمات الصحفية المتبادلة.. لقد فاتنى نصف عمرى كثيراً حتى أن عمرى كله قد انتهى ورصيدى من العمر صفر أو تحت الصفر لكثرة ما فاتنى من أنصاف عمرى.

والخلاصة يا عزيزى أننا نكتب ضد بعضنا لبعضنا.. وفى الغالب لا نذكر الأسماء ويترك لنا الكاتب الاستنتاج.. وهو يعلم طبعاً أننا نعرف الأسماء المقصودة.. وهذا دليل اخر على أنه يكتب لنا ولا يكتب لك.. لأنك لو ضربت رأسك فى كل الحوائط من حولك فلن تعرف المقصود بالهجوم لأنك لا تعرف القصة ولا علاقة لك بها.. ولو أن الكاتب يكتب لك لذكر الأسماء حتى تعرف ولكنه يكتب لنا.

وهذه النقيصة التى تصيبنا جميعاً كصحفيين فى مقتل ازدادت حدتها مع الانتشار السرطانى لما يسمى الصحف الخاصة أو المستقلة.. كانت الظاهرة موجودة على استحياء من قبل ولكنها استفحلت مع تصاعد تيار الصحف الخاصة وانتقلت العدوى بسرعة إلى الصحف المسماة معارضة أو قومية.. واستمرأ كتاب المقالات أو بعضهم اللعبة "وساقوا فيها" لأنهم وجدوا أن لكتاباتهم هذه صدى داخل الوسط الصحفى وهذا ما يعنيهم.. أما القراء فإنهم لا يعنون أحداً.. ولا عزاء لمواثيق الشرف الصحفية ولا وجود للنقابة ولا للمجلس الأعلى للصحافة.

والمشكلة أن بعض ذوى الحول والطول فى السلطة والدولة يشجعون هذه النقيصة والأدهى أنهم يتبنون أصحابها ويقربونهم ويعدونهم ويمنونهم وما يعدونهم إلا غروراً فلا شىء يستحق أن نأكل لحم بعضنا أحياء وأمواتاً من أجله.. فالمواقع والمناصب "رخصت" جداً وصرنا مطالبين بأن نبيع ولاءنا وحريتنا ومواقفنا وعقولنا وقلوبنا من أجلها.. صرنا مطالبين بأن نتخلى عن رؤوسنا ونربى "ذيولنا" من أجلها.. وتلك صفقة خاسرة وقسمة ضيزى يرفضها كل من فى عروقه نقطة دم وذرة كبرياء ومثقال ذرة كرامة.

الشركة العربية لصناعة الأصنام !!

فتح لى الزميل الأستاذ جمال عبدالرحيم باب قضية مهمة وشائكة بكتابه الضافى والجيد: "مدعو النبوة بين الإلحاد والجنون".. فقد أحاط بكل عناصر وأبعاد القضية وتحدث باستفاضة عن ظاهرة ادعاء النبوة والألوهية عبر التاريخ وعن الملل والنحل الباطلة ولم يترك شاردة ولا واردة إلا أحاط بها.. لكنه ترك لى الحديث عن مربط الفرس أو بيت الداء فى هذا الهوس وتلك الهرطقة فقد مر جمال عبدالرحيم مرور الكرام على الأتباع أو التابعين وتفرغ تماما للحديث عن المتبوعين.. واكتفى بقوله فى مقدمة الكتاب: إن الخطورة وغير المقبول أن يحظى من يدعى النبوة أو الألوهية بالبيعة من أفراد أسرته ومئات المحيطين به- فهل يمكن أن يكون كل هؤلاء مرضى أو نصابين؟

وإنى لأزعم أن الاتباع هم المجرمون حقا- ليسوا مرضى ولا نصابين- والأمر فى جرم الأتباع أو التابعين أو المريدين لا يتعلق فقط بمدعى النبوة والألوهية بل يتسع ليشمل مدعى الزعامة ومدعى الفن ومدعى الأدب والثقافة والصحافة.. فالاتباع هم صناع الأصنام وعبدتها.. وهم صناع الجبارين والمستبدين وعتاة الديكتاتورية.. هم البطانة التى تفسد الحاكم وتغطى على بصره وتصم أذنيه وتزين له سوء عمله فيراه حسنا.. وهناك قصة رمزية تصور ببراعة جرم الاتباع والمريدين وحملة المباخر فقد قيل إن فرعون عندما أراد ادعاء الألوهية جمع الناس وأمسك بكم جلبابه وقال: أنا رب كم.. أى أنا صاحب كم.. فخر الناس له سجدا "فساق فيها" وقال: أنا ربكم الأعلى "إنها قصة مجازية بالطبع؛ إذ أن فرعون لم يكن يتحدث العربية.. لكنها تلخص المأساة وتشير بأصابع الاتهام العشرة إلى الاتباع والمريدين.. حيث إن فرعون كما يقول عنه القرآن الكريم "فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين" والمشكلة ليست فى الدعوة ولكنها دائما فى التلبية والاستجابة والطاعة.

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما معناه: "من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من دعاهم لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً .. ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من دعاهم لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً " فالتابع هو الكارثة الكبرى.. ويوم القيامة يتبرأ المتبوعون من التابعين ولا يقبل الله حجة التابعين بأنهم كانوا مستضعفين فى الأرض.. وحتى حجة الشيطان يوم القيامة ستكون أقوى من حجة

من تبعه إذ يقول كما ورد فى القرآن الكريم: "وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى".

ويقول الحكماء: إن الخاسر هو من باع آخرته بدنياه.. لكن الخاسر والأحمق فى آن معا هو من باع آخرته بدنيا غيره. فمن باع آخرته بدنياه هو ذلك المتبوع الذى يقود دعوة ضالة مضلة يتكسب منها ويحظى من ورائها بالمال والسلطة.. أما التابع فهو الذى باع آخرته بدنيا المتبوع.. فلا تمتع بالدنيا ولا حظى بنصيب من الآخرة فهو فى الدنيا عبد ذليل للبشر وهو فى الآخرة وقود النار.

وإسقاط ديكتاتور أو إقصاء مستبد أو موت ظالم أو ذهاب فاسد لا يجدى نفعا مادام التابعون على قيد الحياة وما دام المريدون والمنافقون بخير وصحة جيدة.. فهم المصنع الذى يمكنه أن ينتج الطغاة والأصنام والعتاة.. وطالما بقى هذا المصنع مفتوحا ويعمل ليل نهار.. فإننا سنظل نستهلك الطغاة والفاسدين وننتج غيرهم إلى ما لا نهاية وسيظل المصنع ينتج أنبياء وأربابا إلى أن يقع الزلزال الذى يجعل عاليها سافلها ويستخلف الله قوما يصنعون أهل الاستقامة والعدل والحكم الرشيد.

وعندما دمر سيدنا إبراهيم عليه السلام أصنام قومه لم يحل المشكلة لأن صناع الأصنام لم يمسسهم سوء وأعادوا صنعها من جديد ليعبدوها.. وعندما حرق موسى عليه السلام عجل السامرى ونسفه فى اليم نسفا لم تنته القضية بل تجددت عبر التاريخ ومازالت تتجدد ومازلنا ننتج أصناما وعجولا لنجعلها آلهة.. بل إن المأساة تفاقمت فقد صرنا نعبد بشرا.. نخافهم كما نخاف الله أو أشد خشية.. لا نقول إنهم أرباب أو آلهة ولكن نعاملهم كأرباب أو آلهة وكأنبياء.. فهم لا ينطقون عن الهوى ولا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم وأحلامهم أوامر.. ونزواتهم توجيهات وأوتوا الحكمة وفصل الخطاب.. ولكل منهم أسماء وألقاب بعدد أسماء الله الحسنى.

والذنب فى كل هذا ذنب التابعين وليس ذنب المتبوعين.. وكل منا لا يضمن سلوكه عندما يتبوأ موقعا ويحتل مقعدا فيه سلطة.. لا أحد منا إلا من رحم ربى يمكنه أن يصمد وتبقى قلاعه حصينة أمام قنابل الإطراء ومدافع النفاق وصواريخ التملق.. لابد أن يستسلم ويهوى ويسقط فى قبضة الاتباع والمريدين الذين يتميزون عادة بالمثابرة والنفس الطويل.

وعندما يتحدث المؤرخون والعلماء عن الحكام العدول من أمثال عمر بن الخطاب رضى الله عنه ينسون أو يتناسون الحديث عن الرعية التى ساهمت فى عدله وتواضعه.. ينسون المرأة التى ردت عليه فى مسألة تتعلق بالمهور فقال لها: أصابت المرأة وأخطأ عمر.. وينسون الرجل الذى قال: إذا لم تستقم قومناك بسيوفنا.. فكل إمام عادل وراءه اتباع أحرار يأبون الضيم والذل والدنية ويرفضون "الحال المايل".. وكل إمام

متجبر يعيث فى الأرض فسادا وراءه اتباع أذلاء خانعون معصوبو العيون مثل الثيران فى الساقية.. يطيعونه فى معصية الله ويزينون له الانحراف والجور والطغيان.

وكيد الشيطان ضعيف.. ومعنى ذلك أن من يتبعه أضعف بل هو أحمق.. والحمقى يفضلون دائما الكسب العاجل ولو كانت وراءه كارثة آجلة.. وهؤلاء دائما يستجيبون للحجج الواهية والأقوال والأفعال الباطلة.. وقد روى أن سجاح التميمية عندما ادعت النبوة قيل لها: إن محمدا قد قال: لا نبى بعدى.. فردت سجاح.. لقد قال لا نبى بعدى ولم يقل لا نبية بعدى.

ولأننى لم أعد من المندهشين ولأننى لم أعد ممن يتعجبون وأنتظر الأسوأ دائما فإننى لا استبعد أن تهب حركات تحرير النساء وحقوق المرأة لتنقب فى تاريخ سجاح التميمية وينتهى المطاف باعتبارها الرائدة الحقيقية لحركات تحرير المرأة فى العالم وأنها أول امرأة فى التاريخ تطالب بمساواة النساء بالرجال فى حق النبوة.. وساعتها ستكون سجاح إحدى وسائلنا الناجحة لتحسين صورة المسلمين والعرب لدى الغرب.. وسنقول: يكفى أن أول امرأة فى العالم انتزعت النبوة من الرجال كانت عربية.. وذلك أكبر دليل على أننا سبقنا الغرب بأربعة عشر قرنا فى تكريم المرأة وإعطائها حق النبوة.. بدليل أن سجاح كان لها مئات الاتباع من الرجال "وشنب الواحد منهم يقف عليه الصقر".

وقد تكون هذه الرؤية الآن شطحة خيال ولكنها فى حياتى أو بعد موتى قد تحدث أو ستحدث بالفعل.. فكل المؤشرات تؤكد أننا مقبلون على مزيد من الهرطقة وإلباس الباطل ثوب الحق وخلط الأوراق خلطا لا يستبين منه الخيط الأبيض من الخيط الأسود.

والمسألة ليست مرضًا ولا نصبًا كما قال جمال عبدالرحيم ولكنها فى رأيى هوى ومزاج فالمريض ليس عليه حرج والنصاب قد يكون هو المتبوع لكنه أبدا لن يكون التابع.. إنه الهوى الواعى.. والمرء إذا اتخذ إلهه هواه فإنه قد يعترف بنبوة امرأة جميلة ليصطادها أو يوقعها فى حبائله تماما مثل ذلك الفاجر الذى لا يتورع عن أن يقول لعشيقته: أنا أعبدك.. فهو لا يعبدها فعلا ولكنه يعبد هواه.. أو ذلك الذى يعترف بنبوة أو ألوهية رجل فى مقابل أن يرتزق منه.. أو يصل برئيسه فى العمل إلى مرتبة النبى أو الإله طمعا فى ترقية أو علاوة أو موقع.. المسألة كلها هوى واع ورغبة فى كسب عاجل ولو كان بعده خراب آجل.. ومن ذلك قصة أحد اتباع مسيلمة الكذاب الذى ذهب إلى مشركى مكة يدعوهم إلى اتباع مسيلمة مستغلا عداءهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم- فهب أحد المشركين فى وجه رسول مسيلمة قائلا: اذهب عنا يا رجل فلن نتبع مسيلمة.. واللات والعزى لكذاب بنى هاشم أحب إلينا من كذاب بنى حنيفة.. فالمسألة هوى وقبلية وحمية وعصبية.. بدليل أن المشركين والكفار قال عنهم القرآن الكريم: ولئن

سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله" ما المشكلة إذن؟ المشكلة فى رأيهم هى نبوة محمد.. وقد قالوها صراحة.. لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم.. فالمشكلة ليست القرآن ولا الخالق عز وجل.. ولكن القضية أن النبى ليس على هواهم ولا مزاجهم.

ودعاء الصالحين للسلاطين والملوك والولاة كان دائما: أصلح الله بطانتك.. وأتباعك ورعيتك.. وورد فى الأثر وقال البعض أنه حديث شريف: إذا رضى الله عن قوم أنزل عليهم المطر فى وقته.. وجعل المال فى سمحائهم. واستعمل عليهم خيارهم وإذا سخط على قوم أنزل عليهم المطر فى غير وقته وجعل المال فى بخلائهم واستعمل عليهم شرارهم.. وسخط الله على الناس يأتى من استسلامهم وذلتهم ومسكنتهم وخضوعهم وخنوعهم واتباعهم لكل ناعق وزاعق بلا تأمل ولا شك ولا روية.

ورواج الفن الهابط والصحافة الصفراء وصعود اللصوص والفاسدين إلى القمة إنما هو من إثم وجرم الاتباع فلا يوجد فاسد بذاته ولابد أن يكون قد أفسده الاتباع والبطانة "والبودى جاردز" والبلطجية.

وهناك مقولة أكرهها وأكره من يرددها وتسمعها دائما من الاتباع والمريدين الذين يلعقون الأحذية وينبطحون بلا شروط ويرضون بفتات موائد المتبوعين حيث يقول الواحد منهم مبررا ذله وانكساره: هذا رزقى ورزق عيالى.. هذه لقمة عيشى.. يا عم أنا عايز أربى عيالى.. والأدهى أنك لم تعد تسمع هذه المقولات من حرفيين أو عربجية أو معدمين مسحوقين ولكنك تسمعها من النخبة من مثقفين وصحفيين وأطباء ومحامين.. فهؤلاء يجعلون رزقهم ورزق عيالهم أنهم ينافقون ويكذبون ويتبعون الأراذل.. وتراهم يتصارعون على الغنائم ويقتل بعضهم بعضا بحجة أنها لقمة عيشه وأنه يريد أن يربى عياله.. رغم أن هذا النوع من البشر لو "غار فى داهية بدرى بدرى" ربما يشب أولاده أفضل ويتربون بشكل أكرم وأعظم.. وهذا الصنف من البشر يعد يتم أولاده خيرا لهم.. فلو عاش حتى يشب أولاده فإنه سيغرس فيهم التدنى والتبعية على طريقة الكلب الجائع.

وما يقال عن الأفراد يقال أيضا عن الدول فالدول المتبوعة تستمد قوتها وجبروتها من خنوع الدول التابعة التى تقدم مواقفها مجانا لمجرد الخضوع والخنوع ثم تستأسد الأنظمة التابعة على شعوبها على طريقة أسد على وفى الحروب نعامة.. وإذا فسد المتبوع وصلح الاتباع فإن الأمل قائم وإذا صلح المتبوع وفسد الاتباع فإن الحالة ميئوس منها.. وسيظل العرب يحتكرون صناعة الأصنام فى العالم.. مع اختلاف المواد الخام التى تصنع منها؛ فبعد أن كانت الشركة العربية لصناعة الأصنام تعتمد على مواد خام من حجر وطير.. صارت تصنع أصناما من لحم ودم هذا إذا كان هناك دم؟

كسر أنف المدرس.. وعينه!!

راحت الممثلة تفخر عبر الفضاء بأنها كانت تحصل على صفر فى كل المواد عندما كانت تلميذة.. والمذيعة تضحك اعجابا بالممثلة البليدة ثم تسألها عن السبب فقالت الممثلة ان المدرسة عقدتها فى عيشتها وجعلتها تكره الدراسة والعلم والباقى أعرفه أنا طبعا وهو أنها فشلت لدرجة انها صارت ممثلة "نصف كم".

ونهر المدرس تلميذا وهم به ليضربه فهرول التلميذ وتعثر وهو يجرى فسقط على الأرض وأصيب فى ذراعه.. وقامت القيامة على المدرس ودخل دوامة التحقيق وكاد يدخل السجن لولا أن أم الطفل أو التلميذ ساومته على الصلح مقابل أن يدفع لها ألفى جنيه.. ولم يقل المدرس ان البعض أحب إليه مما يدعونه إليه فقبل العرض "وقب وغطس" واستدان المبلغ ودفعه للأم وعاد التلميذ إلى المدرسة بعد أن كسر "عين المدرس".. ويخرج له لسانه الآن.. ويقول له "خالصين" أنت كسرت ذراعى وأنا كسرت عينك ولو خيرنا أى إنسان بين كسر ذراعه وكسر عينه لاختار ذراعه.. لكن المدرس لم تكن له الخيرة من أمره.. وعموما فإن كسر عيون وأنوف المدرسين أصبح موجة وموضة هذا العصر.. فى ظل منهج غريب تتبعه حكوماتنا المتعاقبة وهو منهج اهدار دم وكرامة المدرسين لصالح التلاميذ.. وفى ظل غياب وغيبوبة كاملة لما يسمى نقابة المعلمين وهى نقابة ورقية لا وجود لها فى الواقع حتى أن كثيرين لا يعرفون أن للمعلمين نقابة تحميهم أو حتى تساندهم معنويا وترفع قليلا من الظلم الواقع عليهم من الحكومة والمجتمع كله.

والمدرسون مثل غيرهم من ذوى المهن والحرف ليسوا ملائكة.. وهم مثلنا جميعا على كل لون ومع ذلك فإن دمهم جميعا مهدر وكرامتهم مستباحة وهم "ملطشة" لكل من هب ودب.. ولو تعرض أحد فى أى عمل فنى أو فى حديث عابر لصحفى أو محام أو طبيب أو ضابط أو امرأة أو سائق ميكروباص لهبت النقابات ودخلت حروبا بلا هوادة فى المحاكم وعبر الصحف لتدافع عن أعضائها بالحق قليلا وبالباطل كثيرا.. بينما يتم على مدار الساعة اغتصاب المدرسين جهارا نهارا والنيل منهم فى الفن والدراما والصحافة والأرض والفضاء فى ظل نقابة معلمين ميتة وفى ظل وزارة للتربية والتعليم انحازت تماما ضد المدرسين لصالح التلاميذ وأولياء أمورهم.. فهى وزارة لتربية المدرسين لا لتربية التلاميذ.

ولو سألت أى طفل الآن "تحب تطلع إيه ياحبيبى لما تكبر؟" فسوف يقول: "أحب أطلع تلميذ" وأنا أيضا أتمنى لو عدت تلميذا فى هذا العصر الذى صار فيه التلاميذ سادة والمدرسون عبيدا فالمدرس لم يعد يمتلك أى أداة أو وسيلة لتأديب تلاميذه.. فالضرب منوع.. وخصم الدرجات ممنوع.. ولم تعد هناك نسبة حضور.. فالتلميذ يمكنه أن يتغيب

سنة الدراسية كلها ويدخل الامتحان رغم أنف المدرس.. وطرد التلميذ من الفصل أو من لدرسة ممنوع والتلميذ يمكن أن يضرب نفسه بـ"بشلة" أو ينطح الحائط برأسه.. ويصاب يدعى على المدرس أنه ضربه "ويروح المدرس فى ستين داهية" والتلاميذ كلهم سيشهدون ضده "المدرس يعمل فى مناخ سيىء للغاية وفى ظل عداء وتحفز ضده من المجتمع كله.. وراتبه الشهرى عار "وحاجة تكسف" وهو أفقر من معظم تلاميذه.. وهو متهم بأنه حرامى وتاجر دروس خصوصية.

والدروس الخصوصية هذه حكايتها حكاية ولست أدرى لماذا نعتبر المدرس هو المتهم الوحيد فيها.. لقد أصبحت جزءا من الوجاهة الاجتماعية "والمنظرة" والناس الآن يفتخرون بأنهم يعطون أبناءهم دروسا خصوصية حتى فى الرسم والتربية الدينية تماما كما يفخرون بالعلاج لدى طبيب سعر كشفه مائتا جنيه غير التحاليل والأشعات.. ويفخرون أيضا بالموت والجنازات الفخمة والمقابر الفارهة وقارىء القرآن الذى حصل على ألفى جنيه لاحياء ليلة المأتم.

وإذا عدلنا وأردنا الانصاف فإن علينا أن نعاقب المجتمع كله على مرض المنظرة الذى أصابنا جميعا.. حتى الفقراء منا يدخلون جمعيات ويقترضون من البنوك من أجل المنظرة والدروس الخصوصية احدى الوسائل التى يتبعها المجتمع لإذلال المدرس وكسر عينه.. فالتلميذ الآن ينفق على المدرس ويفتح بيته وبالتالى فإن المدرس لا يملك أمامه إلا الخضوع والسمع والطاعة.. ولا أظن أن أى تلميذ فى المدرسة يريد أن يواصل النجاح ليتخرج.. لأن السؤال الوجيه الذى يسأله لنفسه.. ولماذا اتخرج؟ أنا الآن أتقاضى راتبا من أسرتى والمدرسون كلهم عبيدى والمدرسة مجرد مكان لقضاء وقت الفراغ ولا سلطة لأحد علىّ.

وحكوماتنا المتعاقبة واقعة تماما فى أسر الطرق الأمريكية فى الحياة.. وقد منعت الضرب فى المدارس أسوة بأمريكا وفاتها أن أمريكا أعادت أسلوب الضرب إلى المدارس بعد أن أفلت العيار وصارت مدارسها ساحات قتال وحمامات دم ومدارسنا تسير على الطريق السريع للتحول إلى ميادين قتال.. ولا أدرى ما العيب فى الضرب.. انه أسلوب تأديبى أقره الدين عندما تعجزنا الحيل.. وهو مثل الكى آخر العلاج وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه "مروا أولادكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر وفرقوا بينهم فى المضاجع" وقال القرآن الكريم فى تأديب الزوجات: "فاهجروهن فى المضاجع واضربوهن".. ونحن دائما نردد مثل الببغاوات ان المدرس هو الأب.. ولايوجد أب لم يضرب ابنه.. فهل نمنع الضرب فى البيوت أيضا؟ وهل يمكن أن يقاضى ابن أباه لأنه ضربه؟ وحين أستعيد شريط ذكريات التلمذة أجدنى الآن أقر واعترف بأننى كنت استحق الضرب فى المرات القليلة التى ضربنى فيها المدرسون.. وأدعو بالصحة والعافية لمن بقى منهم على قيد الحياة وبالرحمة والمغفرة لمن مات.. فما اصابنى من نجاح فهو من المدرسين وما أصابنى من فشل فهو من نفسى وعلينا كآباء أن نعترف بأننا أصبحنا "شرابة خرج" وأن أبناءنا هم الذين يربوننا ولسنا نحن من نربيهم.. فهم صادقون ولو كذبوا.. وهم أذكياء ولو كانوا فى قمة الغباء وهم الذين يسحبوننا من قفانا إلى المدرسة لنضرب لهم المدرس

الذى ظلمهم وافترى عليهم كما فعلت المذيعة التى كسرت أنف المدرس وكل الزملاء الذين لديهم أبناء وبنات فى المدارس يتحدثون عن المدرسين والمدرسات باحتقار ويقول كل منهم انه ذهب إلى المدرسة "ومسح بكرامة المدرس أو المدرسة الأرض" لأنه أو لأنها "شخطت" فى البنت أو الولد وجعلتهما بيكيان.

ورحم الله الآباء الذين كانوا يضربون أبناءهم إذا اشتكوا إليهم من المدرسين.. ومنهم ذلك الذى سحب ابنه إلى المدرسة بعد أن ضربه "علقة" وقال للمدرس أمام ابنه: أنت تجرح وأنا أدواى.. أنت تكسر وأنا أجبر.. ولن اخجل من أن أقول ان المسحوب والمضروب هو أنا وان الساحب والضارب هو أبى رحمه الله.. وكانت تلك أول وآخر شكوى منى لأبى من أى مدرس.

ولم يجمعنى أى لقاء مع أى مدرس ولو بالصدفة إلا ورأيته محبطا ويائسا وناقما على مهنته وعلى الظروف السوداء التى جعلته يعمل فى مهنة حرق الدم.. فقد غلت الدولة يديه وقدميه وكممت فاه ثم ألقته فى البر وأمرته بالسباحة إلى الشاطىء الآخر وحذرته من الغرق.. ونقابة المعلمين صماء بكماء عمياء مستأنسة وأليفة.. وفى كل مناسبة وطنية أو عيد ميلاد أو سبوع أو طهور تظهر على الملأ ببيان مبايعة وتأييد باسم مليون أو مليونى معلم.. لا أعرف الرقم بالضبط.. ثم تعود لسباتها العميق حتى تأتى مناسبة أخرى.. وقد صدق المدرس الذى قال لى: انها نقابة المعلمين بفتح الميم الأولى وليست نقابتنا نحن المدرسين.

ومهنة التدريس مهنة إبداع وليست مجرد حرفة إلقاء الدروس وحشو الأدمغة بالمعلومات.. فالمدرس فنان ومبدع.. وعمله يحتاج إلى موهبة لكنه يعمل فى مناخ قاتل للإبداع - وجو خانق جعله مجرد ثور يدور فى الساقية - وفقد شهيته تماما للإبداع والخروج على النص الذى الزمته به وزارة "التربية جمع تربى" والمدرسون هم الذين اطلقوا عليها هذا الاسم الساخر لأن مهمتها انحصرت فى دفنهم وإهالة التراب عليهم وإلزامهم بالوقوف مؤدبين أمام تلاميذهم مع اعطاء التلاميذ حق احتقار المدرس واعطاء أولياء الأمور حق تمريغه فى الوحل.. لأن الوزارة مؤمنة بحقوق الإنسان. والمدرس فى نظرها ليس إنسانا.. بل هو مجرد خريج جامعة فاشل عليه أن يحمد الله أن وفرت له الدولة وظيفة.. والمطلوب منه أن "يبوس القدم ويبدى الندم على غلطته فى حق الغنم".

المدرس يعمل فى ظل تحفز عام ضده.. فهو متهم مسبقا قبل فتح أى تحقيق.. والكل يريد أن يحقق نصرا على حسابه والوزارة فى العادة تنافق التلاميذ وأولياء أمورهم لتكتسب شعبية ولو كسرت أنف وعين المدرس.. وهناك شبه يقين بأن المدرس فى نهاية المطاف سيستسلم ويرضى بالصلح بعد كل علقة يأكلها من تلميذ أو ولى أمره.. لأن المدرس يعلم أنه ليس له رب يحميه مثل أى ذى مهنة أخرى والرب هنا بمعنى الصاحب.

المدرس وحده هو الذى يمكنك ان تمارس عليه حرية التعبير وتصفه وأنت مطمئن بأنه نصاب وحرامى ويبتز التلاميذ.. ويمكنك أن تقول ان مهنة التدريس أصبحت سيئة السمعة ومتدنية وأن تستخدم ضد هذه المهنة المقدسة كل ألفاظ قاموس الشتائم.. ولن

ضيك أحد ولن يجرجرك فى المحاكم.. بل إن المجتمع كله سيصفق لك لأنه متحفز
بأ إعلاميا ضد المدرسين.. ولن تكون لك أى شعبية أو جماهيرية إذا كتبت مثلى
ف المدرسين وتدافع عنهم.. بينما لو تعرضت ضمنا لأى مهنة أخرى فإنك ستواجه
ل والثبور وعظائم الأمور.

حين تتحدث الدولة عن انصاف المدرسين تركز فقط على الوعود المالية والكادر
اص وتحسين مستوى المعيشة.. بينما تنسى تماما انصافهم معنويا واجتماعيا ونفسيا..
لدرس يحتاج إلى وقفة لتحسين صورته لدى المجتمع.. تماما كما يسعى العرب
سلمون لتحسين صورتهم فى الغرب ورجال الأعمال الآن يشنون حملة ناجحة للحديث
الشرفاء منهم عبر الدراما والبرامج التليفزيونية - وهم يفعلون ذلك بفلوسهم ونفوذهم
أما المدرسون فإن ذبحهم حلال.. وهذا الموقف العدائى ضد المدرسين يؤكد أن المجتمع
صل إلى مرحلة خطيرة من الجحود والعقوق والنكران.. وهى صفات اتخذت الشكل
رسمى والشعبى لأن الدولة أيضا تقود الجماهير وتعبئها ضد المدرسين.. وكنا نتمنى
مى أمنية لن ندركها أن يفاخر رئيس الوزراء والوزراء بمدرسيهم وأن يذكروا اسماءهم فى
مناسبة وأن يقيموا للأحياء منهم احتفالات تكريم.. لكنى أظن أن أى مسئول الآن يشعر
لخجل من ذكر أسماء مدرسيه بل ربما يرفض لقاء أى منهم امعانا فى الجحود الرسمى
ذى صار شعبيا بالعدوى.. فكل مسئول يود أن ينسى انه كان يوما تلميذا ويود أن يقول انه
لد مسئولا.. وكان طوال عمره وزيرا ولم يمر بمرحلة التلمذة فى حياته.

وأما أنا فإننى أقر واعترف بأننى كنت تلميذا لمدرسين أفاضل ومازلت تلميذا لأساتذة
فاضل علمونى ومازالوا يعلمونى ومازالوا يفرحون إذا رأوا أثر نعمتهم علىّ وإذا أحسوا
أن غرسهم نما وأن بذرتهم أثمرت ومنهم أستاذى رياض سيف النصر الذى لا يكف
حظة عن تشجيعى قولا وكتابة.. بل اننى أفخر بأن لى أساتذة أصغر منى سنا يعرفون ما
لا أعرف وينبهوننى ويوحون إلى أفكار كانت غائبة عنى.. والقارىء أيضا أستاذ للكاتب
الذى يقرأ له ويتواصل معه.. والمرء تلميذ وأستاذ فى كل وقت.. وإذا شعر لحظة بأنه لم
يعد تلميذا وبأنه ليس فى حاجة إلى من يعلمه فإنه يكون قد سار أولى خطواته إلى
الهاوية.. وحين يضطر أى منا إلى نقد أى مهنة أخرى غير التدريس فإنه يحرص على
التحفظ الشديد ويقول إن القاعدة العريضة من الأطباء أو المحامين أو غيرهم بخير
وهناك قلة منحرفة تلوث الثوب الأبيض.. لكن هذا لا يحدث مع المدرسين فنحن لا
نستثنى منهم أحدا عندما نشن عليهم الحملة.. بل ان هجماتنا تركز على المهنة نفسها بلا
تحفظ ولا تردد.. فنحن فى هجومنا على المدرسين والتدريس نركب موجة عامة ضدهم
وننافق المجتمع الذى يزدريهم ويحتقرهم.. فالأمة العربية كلها تعتبر التدريس مهنة حقيرة
وفى الدرك الأسفل بينما تحتفى بالمهن الأخرى حتى وإن امتلأت بالمنحرفين والحثالة
وبئس الأمة التى تجعل معلميها وعلماءها تحت قدميها وتجعل لصها فوق رأسها.

خذ ذمتى وأعطنى لقمتى!

الأحرار فقراء تحسبهم أغنياء من التعفف والعبيد أغنياء تحسبهم فقراء من التزلف والتأفف.. وأشد أنواع العبودية أن أكون عبدا لحاجاتي وأهوائي والجزء الأسفل من جسدي.. ومن صار عبدا لبطنه أو ما تحتها لن ينال الحرية أبدا لأن الحاجة هنا متجددة ولن تنتهي إلا بنهاية العمر.. والحاكم المستبد هو الذي يحبس الناس في حاجاتهم المادية الجسدية فيستعبدهم بها ويقضيها لهم فيشكرون ويهتفون.. أو يمنعها عنهم فينافقون ويتسولون والحاكم المستبد يسجن الناس في حاجاتهم ولا يحتاج إلى سجون ذات قضبان.. لذلك سميناه قديما ولي النعم.. فهو المانع والمانح.. وعندما يصبح الناس عبيدا للقمة أو "هدمة" أو مسكن أو شهوة يسهل سحقهم ولو كانوا ملايين وتسهل السيطرة عليهم ولو كانوا عدد الرمل والحصى.. فتعذيبهم يكون بالمنع وشراء ذممهم يكون بالمنح.. وساعتها لن يكون هناك إجماع أو رأي عام أو قضايا قومية أو وطنية.. لأن لكل امرئ شأنا يغنيه ويشغله يرتبط بحاجة بطنه أو ما تحتها.

وعندما يتحول الإنسان إلى عبد لحاجاته الشهوانية والمادية فإنه يتنازل عن حريته طائعا بلا إكراه.. وإذا أردت أن تحرره يرفض ويأبى ويقول لك عبارتنا الشهيرة والكريهة: "أنا خدام لقمة عيشي".. أو يقولها أكثر صراحة: "أنا خدام اللي يوكلني لقمة عيش".. وفي أمثالنا الشعبية حكمة بالغة حتى إذا كانت بعض ألفاظها خارجة.. ومنها مثل يصور انسحاق الإنسان وعبوديته وذله ونفاقه من أجل حاجاته المادية والشهوانية.. إذ يقول المثل الشعبي القديم: "المحتاجة...... لأي حاجة" ومازلت أذكر وتذكرون الكلمة الشهيرة التي كانت تنطلق من الحناجر في عيد العمال يوم أول مايو من كل عام: المنحة يا ريس.

وثار بعض الناس يوما وهاجوا وماجوا من أجل قضية عامة وهم عام وخطر جماعي رأوه يهددهم فقلت في نفسي: لعله خير.. ربما أجمعنا أخيرا على هم معنوي عام.. واندفعوا وأنا معهم للقاء من بيده الحل والعقد.. وعندما لقيهم خارت القوى وانفرط العقد وصار العام خاصا.. وراح كل منهم يسابق أخاه من أجل عرض قضيته الخاصة جدا.. وكل القضايا التي عرضت كانت حول حاجات البطن وما تحتها.. وكيف يأكل كل منهم "ويؤكل عياله" وصفقوا عندما أخذوا وعدا.. فقلت: لا فائدة ولا جدوى ولا إجماع لعبيد البطون والفروج.. فما أسهل اختراق أناس شغلتهم حاجاتهم المادية واستعبدتهم.

والناس عندما تستعبدهم حاجاتهم المادية ويخدمون "لقمة عيشهم" يسهل تجنيدهم

جواسيس ضد زملائهم فى العمل أو ضد الوطن إذا لزم الأمر.. فالولاء والسمع والطاعة
ن يدفع أكثر ويقضى المزيد من الحاجات.. وعبيد الحاجة ليست لديهم كماليات فكل
حاجاتهم ضروريات لأن العبودية للحاجة المتجددة لا المنتهية.. وعبد الحاجة إذا حصل
لى هاتف محمول فإن عبوديته تقوده إلى الحاجة لموديل أحدث.. وإذا حصل على علاوة
ظر فى علاوات الآخرين ثم يطلب المزيد.. وهو "بصباص وعينه زائغة" ويرى زوجات
لآخرين أجمل من زوجته.. وهو خائن لزوجته وخائن لوطنه إذا وجد الفرصة.. وهو
حسود وحقود ويمد عينيه إلى ما متع الله به غيره.

والحكومات تقود الناس بحاجاتهم لا بسياستها الحكيمة ولا بقدرتها الإبداعية فالناس عندما تستعبدهم الحاجة يمكن لأى أبله أن يحكمهم ويسوسهم فالقطيع لا يشترط مواصفات معينة فيمن يسوقه إلى الماء أو المرعى أو الحظيرة.. والحكومات التى تزعم أنها تعيد بناء الإنسان إنما هى فى الحقيقة تعيد هدمه عندما تشغله ببطنه وما تحتها وعندما تسخر إعلامها وتصريحات مسئوليها للحديث عن توفير الطعام لكل فم وضبط الأسعار وتحسين الأجور.. بينما لم نسمع عن اتجاه إلى إصلاح أخلاقى وقيمى وثقافى.. كما أن هناك مقولة مدمرة نسمعها ليل نهار وهى ربط التعليم باحتياجات سوق العمل.. أى أن الحكومات فى العالم الثالث وفى الدول العربية على وجه الخصوص تعترف صراحة بأن العلم والتعليم وسيلة وليس غاية.. وأن المطلوب من الناس أن يتعلموا ليخدموا لقمة عيشهم.

وعندما يصبح الناس عبيدا لبطونهم وفروجهم فلا تحدثنى عن نخبة وصفوة وقمة المجتمع.. فالكل فى خدمة لقمة العيش سواء.. وكل الذمم قابلة للشراء ويختلف الثمن باختلاف الموقع فذمة الخفير ثمنها أقل من ذمة الوزير أو الأمير أو الصحفى أو القاضى أو المهندس أو الطبيب.. لكن المحصلة فى النهاية أن كل الذمم معروضة للبيع فى سوق النخاسة وعبودية الحاجة.. وفى سوق الذمم المعروضة للبيع يصبح الوطن كله فى خطر داهم ويسخر الناس من قيم مثل التضحية بالنفس والنفيس من أجل الوطن أو من أجل قضية أو قيمة أو معنى ويصبح حديث مثل هذا رومانسية خائبة ومثالية بلهاء.

ولم نعد فى حاجة إلى ضرب أمثلة من الماضى السحيق حول تحرر الناس من عبودية الحاجة وتضحيتهم بالنفس والنفيس من أجل عقيدة أو قيمة أو قضية أو وطن.. فقد دار حوار بينى وبين بعض الأصدقاء عن معنى الاستشهاد لدى إخواننا فى فلسطين أو العراق.. وتلك أمثال ونماذج ماثلة أمامنا ولسنا محتاجين إلى تقليب صفحات كتب التاريخ للبحث عنها فأهل الحاجة وعبيدها يقولون إن الشباب والفتيات الفلسطينيين الذين يفجرون أنفسهم يدفعهم إلى ذلك اليأس والقنوط وقسوة الحياة وعدم قدرتهم على تلبية حاجات بطونهم وفروجهم ولم يخطر ببال هؤلاء أن العمليات الاستشهادية هى تعبير عن منتهى اليقين والأمل وقمة التحرر من حاجة البطن أو الفرج ودرجة تبلغ من السمو حدا لا ترقى إليه عقولنا وقلوبنا نحن الذين يخدمون لقمة عيشهم ويريدون أن يربوا عيالهم.. وقد

وصلنا فى حوارنا إلى أن هؤلاء الاستشهاديين تجار ومستثمرون أشطر منا.. لأنهم يرجون تجارة لن تبور بينما نتعارك نحن من أجل سبعين عاما فى الدنيا إذا عشنا كثيرا ونضحى من أجلها بحياة لا نهاية لها فى النعيم أو العذاب.

وعبيد الحاجة قوم بلا كرامة.. لذلك تضحى حكومات كثيرة فى العالم الثالث بكرامة شعوبها من أجل أن تلبى لهم حاجات البطون والفروج.. فلا يهم أن تحصل على لقمة عيشك بكرامة وشرف وعزة نفس.. لكن المهم أن تحصل عليها بأى وسيلة ولو بضربك على "قفاك" وهناك من يريد أن يعيش حياة كريمة حتى إذا كان فقيرا.. يريد أن يركب مواصلات بكرامة ويسير فى الشارع بكرامة.. ويؤدى عمله بشرف.. ويلقى معاملة كريمة فى أى مصلحة حكومية أو خاصة هناك من يود أن يلقى معاملة كريمة فى المستشفى والمطعم والفندق والمطار.. لكن هذا لا يحدث لأن الشعار أن ألبى لك حاجتك بشرط أن امتهن كرامتك وآدميتك وأنت بالطبع لا تمانع لأنك خدام لقمة عيشك المغموسة بالمهانة والذل.

والأغنياء فى العالم الثالث هم السادة لأنهم يملكون حاجات العبيد المادية.. وعبودية الحاجة هى التى تجعل الغنى سيد قومه ولو كان شرهم مكانا وأحقرهم مكانة.. وفى الدول التى تحترم آدمية الإنسان لا تكاد ترى فروقا جوهرية بين غنى وفقير لأن الفقير كريم عزيز النفس ويلقى احتراما وتقديرا من حكومته والغنى يعرف حدوده ويعى أن كرامة الناس غير قابلة للشراء.

وعبيد الحاجة هم الذين يصنعون الجبابرة والعتاة والمستبدين.. فكيفما تكونوا يول عليكم.. والاستعمار الجديد لم يعد فى حاجة إلى تجريد جيوش لاحتلال الدول ولكنه لجأ إلى أسلوب جديد وهو تحويل الناس فى الدول المستهدفة إلى عبيد لحاجاتهم.. وبذلك يحتلهم بالقروض والمعونات التى تؤدى فى النهاية إلى إملاء الشروط وفرض الاجندات وليس أمام الحكومات وشعوبها إلا السمع والطاعة من أجل إطعام الفم لتستحى العين.

وحياء العين فضيلة ليست مقصودة فى المثل الشعبى ولكن المقصود هو : "أطعم الفم تكسر العين".. والفم طبعا لا يشبع لذلك تظل العين دائما مكسورة.. وأمثالنا الشعبية فيها ما يكفى من الدعوة إلى الذلة والمسكنة والعبودية للقمة العيش وحاجة البطن والفرج مثل "اللى يتجوز أمى أقوله يا عمى".. "والايد اللى ما تعرفش تعضها بوسها" و"إن كان لك عند الكلب حاجة قوله يا سيدى".

ويقال إن الأمثال الشعبية التى تدعو إلى الخضوع والذل نشأت أو ظهرت فى عهد حكم المماليك الذين انحط فى ظلهم الأدب والشعر والقضاء والقيم والأخلاق وعلت القيم المادية وشاعت الوصولية والتزلف وانتشرت المفاسد وتآلف الناس مع حكام أرقاء وعبيد وتعلموا عبودية الحاجة المادية أو حاجة البطن والفرج حتى أن الناس قالوا فى أمثالهم "آخر خدمة

ـفز علقة" والغز هم المماليك.. أى أن الناس تآلفوا مع أن يكونوا خدما ثم يكون أجرهم الضرب على قفاهم.

وإعادة بناء الإنسان تحتاج إلى حكومات مبدعة لديها خيال واسع.. فالسياسى الناجح هو الذى يمتلك القدرة على الإبداع ويمتلك الخيال الواسع.. وهذا ما لا يتوفر لحكوماتنا لأنها حكومات إقرار لواقع لا تغيير هذا الواقع.. فقد اعتدنا من حكوماتنا أن تقنن أوضاعا مخالفة لأنها صارت واقعا لا تملك القدرة على تغييره.. فهى تقر العشوائيات وتقنن البناء على الأرض الزراعية وعندما ارتفع سعر السكر رفعتْ الحكومة سعر توريد أو تسليم طن القصب ثلاثين جنيها وكأنها أقرت واعترفت بارتفاع سعر السكر الذى أصبح واقعا لا تملك الحكومة القدرة أو الشجاعة لتغييره.

وينتابك شعور بأن كل شىء يجرى غصبا عن الحكومة ورغم أنفها.. وأن يديها مغلولتان.. وعندما يقع شىء خارج إرادتها تقننه وتعطيه شرعية حتى يقال إنها تدير الأمور لكن الواقع يؤكد أن العيار أفلت فى أمور كثيرة.. وأن الحكومة تدير أزمات لم تصنعها ولا تملك حلها.. أى أنها مجرد حكومة إدارة أزمات لا حل هذه الأزمات والحل يأتى عادة بقدرة قادر.. أو لا يأتى فى الغالب ولكن الناس عندنا قادرون على التآلف والتكيف مع الأزمات يصابون بالفزع والهلع فى البداية ثم تصبح الأزمة أو حتى الكارثة من طقوسنا الحياتية اليومية ولا مانع بعد أن نعتاد ونهدأ من إطلاق النكات حول الكارثة حتى إذا كانت نكات سخيفة وثقيلة الدم.. فقد فقدنا أيضا خفة دمنا القديمة وحل محلها الاستظراف الذى يصيب سامعه بالقرف والاشمئزاز.

وإذا كان من يحكمك أو يعلمك بلا خيال وفاقدا للقدرة على الإبداع والابتكار فإن الشعوب أو المتعلمين يصابون بالعدوى.. عدوى الجمود والتحجر.. مثل اثنين من المدرسين أعطى كل منهما اثنا عشر تلميذا.. وقالوا لهما: نريد أن يحفظ هؤلاء التلاميذ شهور السنة فى خلال ساعة.. فراح المدرس الأول يقول: يناير- فبراير- مارس ويردد التلاميذ خلفه اسم كل شهر بلا جدوى.. بينما قال الآخر لتلاميذه.. أنت يا أحمد يناير وأنت يا على فبراير وسمى كل تلميذ باسم شهر وطلب أن ينادى كل منهم الآخر باسمه الجديد فحفظ تلاميذه شهور السنة فى عشر دقائق.. أو عالم الدين الذى مر بجماعة يلطمون الخدود ويشقون الجيوب على ميت فراح يصرخ فيهم يا عالم.. يا ناس.. هذا حرام.. هذا كفر.. لكن أحدا لم يعره اهتماما فلعنهم ومضى.. ومر بهم عالم آخر فوجدهم على حالهم فخلع عمامته وجبته وراح يشاركهم اللطم والصراخ فتعجبوا من أمره وتوقفوا عن صراخهم وراحوا يتطلعون إليه.. فانتهز الفرصة ووعظهم وهداهم سواء السبيل.

وهكذا تظل الحكومات العاجزة عن الإبداع والمحدودة الخيال تصرخ وتولول وتصرخ وتعبىء الجماهير من أجل قضايا ولكنها لا تجد آذانا مصغية وتظل فى واد وشعوبها فى واد آخر.. وهكذا أيضا تسقط الحكومات الواحدة تلو الأخرى وتحيا المشاكل والأزمات.. ويبقى شعارنا الخالد: خذ ذمتى وأعطنى لقمتى وهدمتى.. يا بلاش.

السفينة هشة والحكومة قشة!

صدق من قال ان ثورة ٢٣ يوليو أرادت ان تطبق الاشتراكية برأسماليين.. ثم أردنا بعد ذلك ان نصنع انفتاحاً باشتراكيين ثم أردنا ان نخصخص بانفتاحيين.. والنتيجة أننا لم نصبح اشتراكيين ولا رأسماليين ولا مخصخصين.. "ولا طلنا عنب الاشتراكية ولا بلح الرأسمالية" وخرجنا بمولود مشوه نتيجة زواج غير شرعى أو علاقة محرمة بين الفكر الغربى والبيئة الشرقية.. فزرعنا فى تربتنا بذورا لم تنبت ولم تثمر كما ينبغى.

والمشكلة أننا اعتمدنا نظرية خاطئة منذ أكثر من نصف قرن هى نظرية التجربة والخطأ أى أننا نجرب ثم نرى النتيجة فاذا كانت سيئة نرجع فى كلامنا ونجرب شيئاً آخر.. وهذه النظرية قد تصلح لرسم هندسى أو لمصنع نقيمه ثم نهدمه بسبب خطأ فى التصميم.. لكن التجربة والخطأ نظرية مدمرة اذا طبقناها على الانسان.. فالخطأ فى حالة الانسان قد يعنى الموت أو الشلل أوالعاهة المستديمة.. فلا تصلح بعد ذلك تجربة أخرى ونتيجة لهذا التخبط وتلك العشوائية صارت حكوماتنا المتعاقبة "بوشين".. فهى تمضى عمليا فى غسل يديها وابراء ذمتها واخلاء طرفها من الفقراء.. وتقسم فى نفس الوقت على أنها لن تتخلى عن الفقراء ولا محدودى الدخل ولن تلغى الدعم ولن تمس حقوق العمال فى الشركات التى تتساقط تباعا فى بحر الخصخصة والبيع.

وقد قال الدكتور محمود محيى الدين وزير الاستثمار يوماً ان الخصخصة تحولت بلا داع إلى كلمة سيئة السمعة.. رغم انها مجرد أداة اقتصادية لا ينبغى ان نحبها أو نكرهها بل نتعامل معها كأداة جامدة ولا نخضعها لمشاعرنا.

وهذا كلام فيه نظر رغم ان ظاهره منطقى.. فنحن لا نحب أو نكره النظريات أو الأدوات.. لا نحب أو نكره الاشتراكية أو الشيوعية أو الرأسمالية أو العولمة أو اقتصاد "السوء" أو النظام العالمى الجديد.. وانما نحب أو نكره التطبيق ومدار حكمنا كله حول التنفيذ.. ونحن نحكم مسبقا بالفشل على الخصخصة وتحرير اقتصادنا وسوقنا لأننا آمنا بالاشتراكية وغنينا لها وهتفنا بحياتها حتى سقطت وسقطنا معها واستيقظنا على "هم ما يتلم" وآمنا بالانفتاح وفتحنا له قلوبنا وحدودنا حتى فوجئنا بأن محافظنا "اتنشلت" وباننا "أكلنا الأونطة".. ومن

طبيعى.. بل من الصواب ان ننظر بشك وريبة وتوجس للخصخصة وما يجرى حولنا من أدوات لما يسمى الاصلاح الاقتصادى.

الانسان المصرى تعرض للخداع كثيرا.. وحصل على مئات الوعود الكاذبة بالرخاء والرفاء والبنين.. وعندما ينكشف المستور وتتبخر الأمال والوعود ويظهر الكذب كالشمس فى كبد السماء تعلن الحكومة- أى حكومة براءتها ونصبح نحن أبناء هذا الشعب الصابر الجناة والمتهمين لأننا نتكاثر ونتوالد ونأكل كثيرا ونشرب كثيرا ونعمل "زى الناس" كثيرا ونعتمد على الحكومة ولا نعمل ونريد الجلوس على المكاتب كعمالة زائدة.

وتقول الحكومة ذلك وتنسى أو تتناسى أنها تأخذنا دائماً على غرة وبلا مقدمات فنفاجأ بأننا اشتراكيون ثم نفاجأ بأننا انفتاحيون ثم نصدم بأننا مخصخصون.. وتنسى الحكومة أو تتناسى أننا ظللنا سنوات ممنوعين من كل شىء.. فالدولة كانت تفكر لنا وتخطط لنا.. وتعلمنا وتوظفنا وتزوجنا وتطعمنا وتسقينا ثم تدفننا عندما نموت.. وكل ذلك مقابل الولاء والتسبيح والتحميد والتهليل والهتاف لها.. الدولة علمتنا أنها "بابا وماما وأنور وجدى"- حتى عندما أرادت الدولة ان تخصخص الاقتصاد والمصانع والشركات حرصت على أن يبقى الانسان وحده قطاعا عاما وان يظل قرار التأميم وقوانين يوليو الاشتراكية سارية على أفكارنا وأدمغتنا.. فلا يصح ان نفكر فى عكس ما تفكر فيه الحكومة ولا ينبغى ان نرفض ما تقبله أو نناقش ما جعلته قرارا أو قانونا.. وبينما تخصخص الدولة كل شىء تمضى قدما فى تأميم المساجد وفرض فكرها ومنهجها على المدارس.. أى انها مشغولة تماماً بتأميم الفكر بحجة التوعية والتعبئة وحشد الناس حول قضايا تراها هى وحدها قومية ومصيرية.

اننى مندهش لأن الحكومات المتعاقبة لا تتعلم من أخطائها المتكررة وتكرر نفس السيناريو بشخوص مختلفين.. فالفيلم هو سواء كان أبيض وأسود أو ملونا.. فالتعبئة الاعلامية الرهيبة التى كانت تمارس أيام الاشتراكية هى نفسها التى تمارس الآن فى عهد الخصخصة- فقد قالوا لنا زمان وفى سالف العصر والاوان ان الاشتراكية قضاء وقدر ومنهج لا مفر منه وهو فطرة الله التى فطر الناس عليها.. وان من لا يؤمن بالاشتراكية والتقدمية فهو رجعى ورأسمالى متعفن ويبلغ درجة الكفر وقالوا لنا ان الاسلام اشتراكى وان كل الانبياء جاءوا برسالات اشتراكية.

والان يقولون ما يشبه ذلك أو يزيد عن الخصخصة والعولمة واقتصاد "السوء".. انهم يقولون ان الخصخصة مسألة حياة أو موت وهى قضاء وقدر وقطار العولمة قادم لا محالة ولابد ان نركبه وعلينا أن نندمج فى الاقتصاد العالمى أو "نغور فى

ستين داهية" ويقولون ان الحكومة لم تعد قادرة على استيعاب عمالة وأنها ينبغى ان تكون طاردة للعمالة لا جاذبة لها.. ومن يود ان يعمل فليتمرغ فى تراب القطاع الخاص لا فى تراب الميرى.

ومن حق الناس ألا يصدقوا وألا يؤمنوا بكل ما قالته وتقوله الحكومات المتعاقبة.. بل من حقهم ان يطلقوا الشائعات حول أموال التأمينات والمعاشات وتسمم مياه النيل وغيرها من الأكاذيب.. لأن الحكومة الحالية حتى اذا كانت صادقة وشفافة كما يقال فإنها يجب تدفع ثمن سنوات طويلة من الأكاذيب والوعود الهوائية والهرائية والطنطنة الفارغة.. ولم يعد سهلا الان بعد كل هذه التجارب المرة والصعبة مع الحكومات السابقة ان يقول الناس للحكومة الحالية: آمين.

ومن حق الناس بعد ان ذاقوا الأمرين ان يقولوا ان الحكومة تنفذ أجندات البنك وصندوق النقد الدوليين أو أجندات أمريكا وأوروبا.. وقد كنا نقول فى الماضى ان الحكومة تنفذ أجندة الاتحاد السوفيتى- لأن المشكلة كانت دائماً وستبقى هى فقدان الثقة بين الشعب والحكومة.. فالحكومة كانت ومازالت تتهمنا بالكسل والبلادة واللامبالاه وبأننا نعمل ٢٧ دقيقة فى اليوم وبأننا مشغولون بالاستهلاك والانجاب ولا ننتج.. ونحن نتهمها بأنها تضحك علينا وتعمل لنا من البحر طحينة وتسحقنا لصالح رجال الأعمال "والحرامية" وتطعمنا مواد مسرطنة.. وتعطى الفرصة للفاسدين والهاربين بأموال الشعب للخارج وتتصالح معهم وتخضع لشروطهم بينما تطارد الفلاحين المطحونين فى كل قرى مصر لأنهم اقترضوا مبالغ تافهة من بنك التنمية والائتمان الزراعى.. فهناك الألوف من أبناء الريف يسيحون فى الأرض وتركوا قراهم ويغيرون محال اقامتهم كل يوم هربا من أحكام بالسجن تلاحقهم بسبب ديونهم لبنك التنمية والائتمان الزراعى.. ذلك المرابى اليهودى الذى ارتدى ثوب بنك وخرب مئات البيوت وشرد ألوف الأسر.

ومن حق الناس ان يقولوا ان الحكومة تصطادنا الواحد تلو الآخر بالقروض والديون وأبواب الاستهلاك المفتوحة على مصاريعها وعندما نقع فى الفخ الذى نصبته لنا تتهمنا بأننا مسرفون وسفهاء وتلاحقنا بأحكام السجن.

ومن حق الناس أن يقولوا ان الحكومة تبيع القطاع العام بتراب الفلوس وتعطى ظهرها للعاملين به وتتركهم لمصيرهم المظلم فى مواجهة صاحب رأس المال الذى اشترى المصنع واشترى معه على "البيعة" مصير وأرزاق العمال.

وعلى طريقة التجربة والخطأ طبقت الحكومة نظام المعاش المبكر على العاملين بالشركات والمصانع التى بيعت.. وابتلع العاملون الطعم فمنهم من أعجبه المبلغ الذى تقاضاه واكتشف بعد فوات الأوان انه ضاع على المقهى فى شهرين.. ومنهم

من أراد الاستمرار فى العمل فتعرض للتعسف والقهر حتى أجبر على الرضوخ والخروج على المعاش.. وبعد خراب مالطا اكتشفت الحكومة ان نظام المعاش المبكر كان فاشلا.. وراحت تفكر فى تعديله.. ثم أخذت تفكر وتفكر وبينما هى تفكر وتفكر انضم ألوف ممن كانوا عاملين إلى صفوف العاطلين ووجدت الحكومة نفسها أمام بطالتين- الأولى خلقها نظام تعليم فاشل وخروج الحكومة نفسها على المعاش بعد ان تقاعست وتقاعدت وتركتنا فى قبضة القطاع الخاص- والبطالة الثانية صنعتها الحكومة بنفسها باختراع نظام المعاش المبكر.

ومن حق الناس بعد كل هذه التراكمات ان يفقدوا الثقة بالحكومة لأنها لا تكف عن اعترافها بالانسحاب.. وبأنها أصبحت بلا حول ولا قوة وأنها أحيلت أو أحالت نفسها للتقاعد وأنها أعطت سبعين فى المائة من أوراق اللعبة للقطاع الخاص.. بل ان القطاع الخاص صار الآن هو الحكومة فهو يرفع الاسعار ويحتكر ويمنح ويمنع ويوفر فرص العمل اذا شاء أو يطرد العمال اذا أراد.. واتحاد العمل ونقابات العاملين صارت "شخشيخة" وحبرا على ورق ومجرد حلقات ذكر ومبايعة ومنتديات لاصحاب المصالح.

من حق الناس ان يتساءلوا بعد كل هذه التعقيدات: إلى أين المسير؟ وأين المصير؟ ولا يوجد أى دليل على ان الحكومة تكذب أو تتجمل بل هناك ألف دليل على ان الحكومة تسعى إلى ان تكون صادقة وصادمة أيضاً فى صدقها لكن المشكلة ان الناس محتاجون إلى ثورة ثقافية كتلك التى حدثت فى الصين- لابد ان تتغير ثقافتنا التى تكونت وتراكمت عبر السنوات الاشتراكية والانفتاحية.. وكان ينبغى على الحكومة اذا أرادت ان تنجح فى نهجها الاقتصادى ان تمضى بالتوازى معه فى انقلاب ثقافى يغير تفكير الناس وسلوكهم ويحررهم من التابوهات التى تود الحكومة ان تهدمها بلا تمهيد ولا مقدمات.. لابد ان نقلع عن ظاهرة قديمة قتلت المبادرة والحماس لدى الناس وهى ظاهرة ارتباط أى نظام سياسى أو اقتصادى بأشخاص الجالسين على مقاعد السلطة فهو يبقى ببقائهم وينهار برحيلهم- وكل من يأتى يتفرغ تماما لهدم ما بناه السلف ويظل الشعب كله على مقاعد المتفرجين بلا مشاركة وبلا أدنى اعتبار لرأيه.. حتى آمن جميع أبناء هذا الشعب بنظرية اللاجدوى واللافائدة وصرفوا أنظارهم تلقاء همومهم الخاصة.. وفى النهاية تتهمهم الحكومة بالسلبية والعزوف.. ويتهمونها هم بأنها تقود من برج عاجى. وتفعل ما تريد بصرف النظر عن رأى الشعب أو مصلحته.. وتتصرف مثل الوصى الظالم على مجموعة من اليتامى القصر.. ووسط هذا البحر المتلاطم من تبادل الاتهامات وانعدام الثقة نبقى جميعا متهمين فى القفص.. ولا نجد القشة التى تنقذنا من الغرق فالسفينة التى نركبها هشة.. والحكومة التى نتمرغ فى ترابها أصبحت هشة!!

يا بدع الوفد..
يا جمال الغد!!

المدح فى أيامنا أصعب من القدح والهجاء اسهل من الثناء.. فأنت مطالب بألف دليل عندما تمدح أحدا أو تثنى على حكومة أو معارضة أو دولة أو فكرة.. وأنت متهم دائما حين تمدح وتشيد وتحيط بك نظرات الشك والريبة.. ويقال انك قبضت ثمن مدحك أو اشترى الممدوح ذمتك أو قلمك أو لسانك.. ويقال إنك منافق مداهن.. ولايتردد الناس فى رميك بكل الكبائر والصغائر.

وحين تقدح أو تذم أو تهجو فإن احدا لايطلب منك دليلا ولايطالبك بموضوعية وانصاف وعدل وانت فى نظر من يقرأ ومن يسمع بطل صنديد.. وصادق ولو كذبت.. بينما انت كاذب ولو صدقت عندما تشيد وتثنى.. وانت حين تمدح مطالب بالمشى على الاشواك واختيار الفاظك بدقة وتقديم براهين ساطعة على موضوعيتك فى الثناء.. لكن الناس يعفونك من أى دليل على الصدق وقوة الحجة فى حالة الهجاء والهجوم وليس مطلوبا منك سوى ان تصرخ باعلى صوتك وتكيل السباب والشتائم لتبدو جريئا شجاعا يحلف الناس بحياتك.

وعلينا ان نعترف باننا فقدنا كثيرا من الموضوعية والصدق والحياد والتجرد فى مدحنا وقدحنا لذلك لايصدقنا الناس عندما نشيد لكنهم يصدقوننا عندما نهجو لا لأننا موضوعيون ولكن لان الناس فى كل زمان ومكان لايحبون السلطان فى اى موقع ولان رضا العامة غاية لايدركها سلطان مهما بلغ عدله.. كما أننا تعودنا ان نتهم السلطة ولانلتمس لها عذرا ونحملها اوزار فقرنا أو فشلنا فى الحب او علاقة الزواج او أى شئون صغيرة أخرى.. كما ان السلطة تحملنا اوزار فشلها وتخبطها.. وتديرنا من صندوق مغلق فى اعلى البرج وانفصلت تماما عن الشعوب خاصة فى عالمنا الثالث فازدادت المسافة اتساعا بين الحاكم والمحكوم كما ازداد التباعد الوجدانى والعاطفى والفكرى بينهما.

وآفة الخوف من المدح والاشادة اصابتنى مثلما اصابت غيرى.. وأجدنى مترددا كثيرا فى الثناء خوفا من ان افقد القارئ او يقول اننى قبضت ثمن مدحى وثنائى.. وقد قررت فجأة ان احسم التردد واسجل اعترافا ولوسماه القارئ مدحا مدفوعا.. فالحق احق ان يتبع واما الاعتراف فهو اننى سعيد وفخور كعربى بسلاسة وسهولة وتحضر نقل السلطة فى الامارات والكويت بعد رحيل الشيخين زايد بن سلطان آل نهيان وجابر الاحمد الصباح فقد راهن كثيرون وخاف مخلصون اكثر على التجربتين الديمقراطيتين فى البلدين .. لكن

الراهنين خسروا والخائفين اطمأنوا بعد ان تأكدنا من النضج السياسى والدستورى.. ولم نعد بحاجة الى الاستشهاد بتجارب ديمقراطية ناجحة فى الغرب او الشرق وبين ظهرانينا تجربتان عربيتان تستحقان الاقتداء بهما وتستحقان ايضا الفخر والزهو بأن تربتنا العربية صالحة لزراعة الديمقراطية النابعة من قيمنا وتقاليدنا لا الديمقراطية المعلبة والمستوردة من الغرب.

"خلصنا من الامارات والكويت" لاجدنى اعود الى الداخل .. الى وطنى لأرصد مهزلة وفضيحة "بجلاجل" اسمها أحزاب المعارضة.. وهى مهزلة وملهاة تجعلنى أحسم ترددى واهتف بعبارة قد يراها كثيرون مدحا مدفوعا اقول فيها بصوت مجلجل : نار الحكومة ولاجنة المعارضة.. وبعد الهتاف المدوى أتساءل وينبغى ان تتساءلوا معى : ما الذى ينتظرنا من سوء المصير والعذاب الاليم اذا حكمنا هؤلاء الذين يسمون انفسهم معارضة؟ ما الثمار التى يمكن ان نجنيها من هؤلاء المتصارعين على السلطة والسلطان والمقاعد فى احزابهم..؟ وهل يصدق احدكم ان هؤلاء باحثون عن ديمقراطية او يعنيهم اصلاح سياسى او حتى يعنيهم الوطن فى شىء؟

الاسئلة كلها تجيب عن نفسها "وعلى وشك بيان باندلاع اللبان" وما يجرى من خيبة "بالويبة" فى احزاب المعارضة ليس سوى شهادة وفاة رسمية لتجربتنا التى سميناها ديمقراطية ولهذا الذى سميناه الاصلاح السياسى.. فلا يمكن لمن لديه نصف وعى وربع عقل وعشر ادراك ان يقتنع بأن الفاسد يمكن ان يصلح.. فأول شروط الاصلاح والف باء التحديث والتطور ان يرحل المفسد وان تحل الاحزاب المسماة معارضة نفسها ونبدأ اللعبة من الصفر بأحزاب تحتية يفرزها الشعب لا بأحزاب فوقية تهبط على الناس بالمظلة ويتم تحضيرها فى المعامل او يفصلها ترزية القوانين.

وعندما يقال ان احزاب المعارضة بوضعها المهين الحالى جزء من النظام فإننى اجزم تماما بأن هذا القول ادانة للنظام كله فليس شرفا ولامصدر فخر ان تكون هذه الكيانات المتسلقة جزءاً من نظام يحترم نفسه ويحترم شعبه.. واى عضو فاسد فى الجسد لاخيار إلا بتره والا فسد الجسد كله وفاضت الروح وتحول البدن الى "رمة" .. ونار الحزب الواحد ولاجنة الاحزاب المتعددة "فى الليمون" والتى تسئ اساءة بالغة الى الوطن والى الشعب الذى تقول ليل نهار وبلا ملل انه شعب عريق وصاحب حضارة سبعة الاف سنة "ربما صارت ثمانية الاف الآن".

ولدى قاعة ربما تعرضنى لمتاعب هى ان وصول اى خلاف سياسى أو ديمقراطى الى المحاكم والقضاء يعنى حكما قاطعا لانقض فيه ولا ابرام بأن الآلة الديمقراطية لم تعد تعمل وصارت معطلة وينبغى "تكهينها" وبيعها خردة.. فإذا دخل القاضى اللعبة السياسية من الباب خرجت الديمقراطية من الشباك.. واللجوء الى القضاء فى الخلافات السياسية والديمقراطية يعنى ان الديمقراطية تنادى وهى كسيحة مشلولة "اللى يحب النبى يزق"..

والقضاة فى هذه الحالة مجرد مارة فى الشارع السياسى استعان بهم المتصارعون لدفع عجلة الديمقراطية "النائمة" أو التى فرقعت ولم تعد صالحة.

وعندما لجأ الرئيس الامريكى جورج بوش الى المحكمة لاثبات فوزه فى انتخابات الرئاسة قلت ان الديمقراطية الامريكية فى حالة احتضار وهو قول تثبت الايام والاحداث صدقه حتى اننى اقول الان ان الديمقراطية الامريكية تجاوزت الاحتضار وماتت فعلا.

وقد أضحكتنى لجنة شئون الاحزاب عندما قالت ان مايجرى فى حزب الوفد شأن داخلى لايحق لاحد اقحام نفسه فيه.. وكلمة التدخل فى الشئون الداخلية من الكلمات التى تغيظنى جدا والتصريحات المستمرة برفض التدخل فى الشئون الداخلية تعنى شهادة اعتماد للفوضى والاستبداد.. وينسى من يردد هذه العبارة ان عصرنا لم تعد فيه شئون داخلية لأى دولة فما بالنا بالاحزاب داخل الدولة الواحدة؟.. ومن قال ان المهازل التى تجرى فى احزاب المعارضة لاتعنينا كشعب وابناء وطن يساء اليه جهارا نهارا دون ان يحرك احد ساكنا بحجة ان تلك شئون داخلية للاحزاب؟

والمسألة لاتقتصر على احزاب المعارضة وحدها.. فنحن نرى القضاء سيد الموقف فى اللعبة السياسية برمتها .. وفى اى انتخابات برلمانية او غير برلمانية يصبح الامر مهزلة اخرى حيث "لاشغلة ولا مشغلة" للقضاء الا الفصل فى الطعون وقبول او رفض الاستشكالات او الاشكالات والبت فى صحة عضوية او عدم صحتها واصدار احكام حول صفات العمال والفلاحين والفئات.. وفى النهاية تجد نصف النواب أو أكثر خرجوا من المجالس بحكم قضائى او دخلوها بحكم قضائى.. ولا قيمة للتجربة الديمقراطية ولا للناخب الذى اختار أو ادلى بصوته.. حتى أننى لم أعد ارى داعيا للتكاليف والمصاريف والملايين التى تتبدد فى الهواء من اجل انتخابات لاقيمة لها .. وأرى ان نلجأ للقضاء من أولها .. وان يقف المرشحون جميعا أمام القاضى ليحكم لهم بالعضوية أو الفوز أو الخسارة بعد المداولة.

وعندما يلجأ المتصارعون على رئاسة الاحزاب الى المحاكم لا يقول القضاة العبارة الشهيرة.. اننا نرفض التدخل فى الشئون الداخلية للاحزاب بل تتواصل الحرب القضائية بلا هوادة فتحكم دائرة لهذا وتحكم اخرى لذاك برئاسة حزب ما وتتفاقم المهزلة ويحدث التشظى والانشطار النووى للحزب وتصدر عنه عدة صحف فتلك صحيفة حزب الغد وهذه صحيفة شرفاء الغد وتلك صحيفة الوفد وهذه صحيفة اصلاحيى الوفد وكلها اسماء ما أنزل الله بها من سلطان فالذين يطلقون على انفسهم الشرفاء او الاصلاحيين سموا انفسهم ولم يسمهم احد.. مثلهم مثل الذين سموا انفسهم "الناجون من النار" ولا ندرى من الذى اعطاهم شهادة وصك الغفران والنجاة من النار او هؤلاء الذين سموا انفسهم "الاخوان المسلمون" مما يعنى اننا جميعا لسنا اخوانا ولا مسلمين.

والمدهش والمضحك ايضا ان محمود أباظة ونعمان جمعة المتصارعين على كعكة الوفد

ولان بصوت واحد ان هناك مؤامرة من الحكومة وحزبها على الوفد وإن لجنة شئون الاحزاب تريد اطالة امد النزاع حتى تظل ممسكة بخيوط الاحداث.

.. واذا اردت ان تضحك فاضحك واذا اردت ان تبكى فابك "بدل الدموع دما" من اناس يفترض انهم مسئولون يتمسحون فى نظرية المؤامرة ليستمروا فى المهزلة والملهاة على اساس ان الحكومة وحزبها يتحملان تبعة ما يجرى وان اباظه وجمعة مجرد دميتين يتحركان على المسرح بأصابع الحكومة والحزب الوطنى.

انه اعتراف مخجل ويدعو للاسف والاسى اعتراف صريح من أباظة وجمعة بأنهما بلا ارادة وانهما مجرد اداتين لتنفيذ مؤامرة الحكومة والحزب الوطنى.. وقد فعل ذلك أيمن نور عندما اتهم الحكومة وحزبها بالتآمر وتخريب حزب الغد .

وحتى اذا كانت هناك مؤامرة وعليها مليون دليل فإننى لا ادين المتآمر ولا احمله اى مسئولية "حد يلاقى دلع ومايدلعش؟" .. فحين يستعبطنى أحد ويضحك علىّ وينصب علىّ فإننى المدان وليس من ضحك علىّ.. إنها حماقتى وغفلتى لافطنة وذكاء من خدعنى وغشنى .. وحتى اذا كانت هناك مؤامرة من الحكومة والحزب الوطنى فإن المتآمر استثمر شهوة السلطة لدى أباظة أو جمعة أو نور أو أى متصارع على أى حزب.. تماما مثل رجل فتوة يقف على شاربه الصقر ولايقف فى وجهه احد ولايستطيع الايقاع به وقتله.. امرأة جميلة استثمرت شهوته واستدرجته فسار خلفها "كالرطل" ليلقى حتفه.

ان المتآمر يخترقك من نقاط ضعفك .. شهوتك للسلطة .. شهوتك للمال او شهوتك الجنسية وهذا حقه والحرب خدعة .. والجريمة جريمتك والذنب ذنبك لانك مكنت المتآمر سواء كان دولة أو جهة أوشخصا من اختراقك وتوجيهك الى حيث يريد وقد لام آدم عليه السلام نفسه ولم يلم أحدا عندما تآمر عليه الشيطان واخرجه من الجنة.. وروى ان آدم عليه السلام قيل له لما اخرج من الجنة: ماهذا النشرة؟ بعت الجنة بشجرة .. فقال : من اغتر بعدو .. وقبل اشارة امرأة واتبع الهوى وقع فيما وقعت فيه.

والمتصارعون على رئاسة الاحزاب لعبة فى يد من يتآمر اذا كانت هناك مؤامرة .. والصراع على الاحزاب هو صراع على رقابنا .. من يمتلك رقابنا ويسوقنا سوق القطيع؟ وعندما وصل الصراع الى ساحات المحاكم دخل القضاة اللعبة السياسية فصاروا طرفا فيها .. والقاضى محكوم بورق ونصوص ينظر فيها .. ولاعلاقة له برأى عام او ارادة شعبية او واقع سياسى.. لذلك لايصلح حكما فى مباراة الديمقراطية التى ينبغى ان يكون الشعب هو حكمها الوحيد.. اذا كان هناك شعب ولو ان المطربة الراحلة أسمهان عاشت عصرنا لسايرت الموجة السياسية الحالية وغيرت كلمات اغنيتها عن الورد.. لتصبح يابدع الوفد.. ياجمال الغد!!

المهنة.. شيال قضايا !!

كنت أسخر من الأفلام والدراما وأقول انه "شغل سيما" حتى صار الواقع نفسه شغل سيما.. ولم أكن أصدق اننى سأعيش حتى أرى مهنة "شيال القضايا" أو السجين البديل "الدوبلير".

لم أكن أتصور أن مهنة "الدوبلير" ستصبح مهنة شعبية عامة.. وانها ستتسع لتتجاوز مجرد شخص يتلقى الضربات ويؤدى الحركات الخطيرة بدلاً من النجم المدلل الذى يكتفى بأن "يقبل البطلة ويعانقها ويفوز بحبها" فى نهاية الفيلم.

ولكننى كما قلت من قبل وسأقول حتى النهاية لم أعد أندهش ولم أعد أصدم.. لأن الدهشة أصبحت ترفاً لا معنى له.. ولأن فى جراب الزمن الحاوى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

المدهش حقاً أن أرى شيئاً حقيقياً فى زمانى هذا.. فكل شىء إلا ما ندر صار مزيفاً ومكذوباً حتى السجناء ومن يرتكبون الجرائم أصبحوا بدلاء مزيفين لمجرمين حقيقيين تحميهم فلوسهم من يد القانون القصيرة وعينه المعصوبة.. وهناك الآن متهمون بالايجار وسجناء للبيع.. هناك من يبيعون حريتهم وآدميتهم كما يبيعون أكبادهم وكلاهم ودماءهم ولحمهم وشرفهم وأعراضهم ألم أقل لك ان البيع صار وباء "وفرة" وشوطة.. وأن كل شىء الآن للبيع؟

الجريمة لابد لها من متهم.. والقانون الذى توقف نموه وعجز عن مسايرة الجرائم كما عجز الطب عن مسايرة المرض يقول قولاً لم يعد له محل من الإعراب الآن وتجاوزه الزمن بمئات السنين وهو ان الاعتراف سيد الأدلة.. فالاعتراف فى أغلب الأحيان الآن عبد الأدلة وأحقر الأدلة.. بل انه ليس دليلاً على الاطلاق لانه اعتراف مدفوع الأجر.. وفى الماضى كان هناك شاهد الزور واليوم أضيف إلى شاهد الزور.. مجرم الزور.. ومتهم الزور وسجين الزور.. والقانون مجرد ورق مستوفى وكامل ولا ثغرات فيه.. ولو كان ضد طبائع الأشياء ومنطق الأمور.. ومادامت القضية جاهزة ومستوفاة فلا معنى للإبداع وإعمال الفكر ووجع الدماغ.

والحسبة بسيطة جداً.. وهى بكم..؟ فالفلوس هى ست الحسن والجمال التى يركع الشاطر حسن وكل شطار الدنيا عند قدميها وينفذون ارادتها ويضحون من أجلها

باللحم والدم والعرض والحرية.. ولا يوجد الآن ما يتوارى الانسان خجلاً منه.. فلم يعد عاراً أن آكون "رد سجون".. ولم يعد أبنائى يمتنعون عن الذهاب للمدرسة لان زملاءهم يقولون لهم.. يا أولاد الحرامى.. يا أولاد المجرم.. يا أولاد المرتشى.. يا أولاد الرقاصة.

لا شىء يدعو للخجل والشعور بالعاروالفضيحة.. وشرف البنت لم يعد مثل عود الكبريت.. بل مثل الولاعة يمكن تعبئتها من جديد إذا فرغت.. فالحل دائماً موجود.. والحل هو الفلوس.

"شيل القضايا" أصبح مهنة معترفاً بها شعبياً.. وهى مهنة تدر دخلاً أضعاف مهنة شهادة الزور.. وليس صعباً أن تجد شيال قضايا.. فهم أكثر من الهم على القلب.. وربما نجد لهم قريباً نقابة باسم نقابة شيالى القضايا.. وهم يتنافسون على أداء عملهم بتفان واخلاص ويقولون عنهم فى القاموس الشعبى "فلان شال الليلة بدلاً من الكبير".. والكبير الذى يدفع ثمن "شيل القضية أو الليلة" يعنيه الا يرد اسمه فيها وألا يصل هو أو ابنه إلى المحكمة.. والقانون أمامه متهم معترف بالجريمة فماذا يريد غير ذلك؟

وشيال القضايا لديه منطق معقول فى عصر اللا معقول.. وهو ان سنوات السجن المدفوعة الأجر تعتبر سنوات سفر إلى الخارج.. والحصيلة ربما تكون أكبر بكثير من السفر للعمل بالخارج ثلاث أو خمس أو سبع سنوات.. وليس فى الأمر عار ولا كارثة.. والكبير الذى دفع ثمن شيل القضية متكفل بمصاريف أسرة الشيال طوال فترة إعارته للسجن.

وشيل القضايا لا يقتصر على جرائم الضرب أو الأفعال التى تؤدى إلى السجن.. فهناك من يشيل قضية تهرب جمركى أو ينفذ أوامر الكبار المخالفة للقانون أو يكون وسيطاً فى رشوة للكبير أو يسهل الدعارة له.. وعندما ينكشف المستور يسارع شيال القضايا بالاعتراف بالجريمة وبأنه ارتكبها وحده ولا شريك له فيها.. وهكذا يشيل الليلة كلها كما يقولون.

ويبقى المجرمون الحقيقيون طلقاء أحراراً ويعاودون نشاطهم ويوسعونه اعتماداً على أن هناك المئات من شيالى القضايا فى انتظار أن يأتى عليهم الدور ويفوزوا بفرصة ذهبية لتحسين مستوى معيشتهم عن طريق مهنة "شيل القضايا والليلة".

والقانون المسكين أصبح ساذجاً للغاية.. وهو يريد أدلة قاطعة وبراهين ساطعة.. وعملية اصطناع الأدلة صار لها أساتذتها وعباقرتها.. والقانون الذى ادعى كثيراً انه لا يحمى المغفلين صار شيخ المغفلين.. فهو يأخذ بأدلة مزيفة وشهادات مزورة ومتهمين مضروبين ومستأجرين.

والناس الذين مازالوا يتمسكون بالشرف والنزاهة والطهارة يرون الرذائل والمفاسد بأعينهم ولا يتكلمون لانهم يعلمون أن فلوس الكبار تحمى فسادهم وان هناك من

سيلبس القضايا بدلاً منهم وان الفاسد تزداد نجوميته كلما مضى فى فساده.. فنحن لسنا شعبا سلبيا كما يقال عنا.. ولكننا أرحنا أنفسنا باليأس واكتفينا بتغيير المنكر بقلوبنا.. وابتعدنا عن الشر وغنينا له.. وهذا كل ما لدينا.. ولو تصدينا للشر ولم نغن له.. لذهبنا فى داهية.

وعندما يتطوع أحدنا ويصرخ ضد الفساد والجرائم وبيع الوطن بثمن بخس وتحصيل عمولات بالملايين من صفقات مشبوهة لاهدار أرزاقنا ومصائرنا.. تتقلب عليه الدنيا ويشيل الليلة وحده بلا مقابل.. ويثبت الفاسد براءته ونزاهته ويسقط الشريف فى الوحل.. ويخرج له الجميع ألسنتهم قائلين.. "عامل فيها شريف ياسى عمر أفندى.. طب شيل الليلة بقى".

والناس فى هذه المسألة أنواع.. احدهم الشريف الصامت وهو الذى ينجو.. والآخر الشريف الصارخ وهو الذى سيكون فى النهاية المجرم.. والثالث الفاسد الصغير الذى يحمى الفاسد الكبير ويشيل القضية نيابة عنه.. والفائز فى كل الأحوال هو الفاسد الأكبر الذى استفاد من الشريف الصامت وقضى على الشريف الصارخ وجند الفاسد الصغير.

والفقر هو المبرر الجاهز والحجة الدائمة لمن يبيعون شرفهم أو لحمهم ومن يشيلون القضايا مثل الساقطة التى تنام على كل الأسرة ثم تبكى وتقول ان أمها كانت مريضة.. وباعت هى لحمها لتشترى لها الدواء.. ونتعاطف نحن مع الحكاية السخيفة والساذجة فى الفيلم ونبكى وندعو للساقطة بالستر ولأمها بالشفاء.

ونحن نعيش عصر العدل الظاهر.. فالورق تمام التمام.. والجريمة مكتملة الأركان والأدلة دامغة.. والمتهم فى القفص واعترافاته تفصيلية.. وهكذا فإن الحكم فى الظاهر بلغ غاية العدل وتمامه.. لكن الحقائق التى لا يطالها القانون مازالت خارج قاعة المحكمة.. والفلوس سد منيع أعلى من سور الصين العظيم وهى تفصل تماما بين المجرم الحقيقى ويد العدالة.. والشهود العدول الشرفاء يخافون الادلاء بشهاداتهم ويؤثرون السلامة.. وشهود الزور يتزاحمون على باب المحكمة للادلاء بأقوالهم.. والمتهمون البدلاء جاهزون لرحلة السجن التى تدر دخلاً وفيراً.. والقاضى بشر مثلنا.. وربما يعرف الحقيقة بقلبه وعقله ولكنه يحكم من خلال الورق.. وهو مثلنا أيضا يؤثر السلامة فى بعض الأحيان ويجنب نفسه وجع الدماغ.

وزمان كنا نقول: "ياما فى الحبس مظاليم".. واليوم أيضا فى الحبس مظاليم ولكنهم ظلموا أنفسهم ولم يظلمهم أحد.. ظلموا أنفسهم باختيارهم وبأجر وبمقابل كبير أو صغير حسب قيمتهم.. والحجة دائماً انهم فقراء ومعدمون.. ويريدون أن يربوا عيالهم.

ومهنة شيل القضايا ليست مهنة المعدمين والسوقة وأراذل الناس فقط بل اتسع نطاقها وهناك أناس مستورون ومن النخبة يشيلون القضايا لان البحر يحب الزيادة..

ناس يشيلون القضايا لا ليأكلوا "عيش" .. بل ليأكلوا "جاتوه" أيضا .. والمسألة ليست
راً .. بل هى طمع وشراهة وعيون لا يملؤها إلا التراب .. واقتناع تام بأن الفلوس تزيل
ار وتمسح التاريخ الأسود .. ولان شيالى القضايا صاروا بالألوف فقد الشرفاء القدرة
لى التصدى والمبادرة .. فهناك المئات من قضايا التهرب الجمركى التى تمر أمام
وظفى الجمارك ويغضون عنها الطرف لا لانهم منحرفون ولكن لانهم حسبوها
صح" .. فالشحنة قادمة لصالح "رأس كبير" وإذا ضبطها الموظف فانه سيدخل عش
لدبابير .. فالأفضل أن يتغاضى أو "يكبر دماغه" لانها قضية "فشنك" سواء ضبطها أو
م يضبطها .. فلماذا وجع الرأس؟

ومهنة شيل القضايا وخروج الفاسدين الكبار كالشعرة من العجين هى التى أدت إلى ظاهرة الأيدى المرتعشة بل والمشلولة فى كل المؤسسات .. وهى التى أدت إلى تفشى البيروقراطية والروتين وتعطيل المصالح .. فالموظف لا يعلم من أين تأتيه الطعنة .. فهو يخاف دائما من ان يشيل هو القضية .. ويخاف من نفوذ الفاسدين الكبار .. والقانون الأحمق يأخذ بالظاهر ولا ينصف أحداً .. لذلك ساد الخوف والتردد والرعب لان أصحاب النفوذ والفلوس كثروا وتجبروا وإذا بطشوا بطشوا جبارين .. والصغار دائما يدفعون الثمن لذلك يلوذون بالروتين والأوراق واللوائح ويؤمنون بأن تعطيل مصالح الناس أكثر أمانا من انجازها .. وان يعاقب الموظف على تعطيل المصالح خير من أن يقع فى محظور سرعة الانجاز .. والعقاب على أداء العمل أقسى كثيرا من العقاب على تأخيره أو تأجيله ولم تعد الدعوة إلى عدم تأخير عمل اليوم إلى الغد ذات قيمة .. بل الأفضل والأكثر أمانا الآن ان تؤخر عمل اليوم إلى بعد غد .. وفتش فى كل ذلك عن الخوف والرعب لا عن الاهمال والكسل .. نحن نخاف أكثر مما يجب لاننا لا ندرى من أين تأتى الطعنة .. وكل من يأتى لانجاز عمل عندى كموظف يقول لى بكل صلف: انت مش عارف بتكلم مين؟ .. وأنا موظف غلبان لا أدرى بالفعل من الذى أكلمه .. فربما هو سائق أو طباخ أو مرمطون .. لكنه مرمطون عند "عظمة كبيرة".

أنا مستعد لان أكون شجاعا وأتصدى للفساد والشر حتى لو انتصر الشر .. ولكنى أريد من يضمن لى اننى لن أكون أنا المجرم فى النهاية "وأشيل الليلة" وحدى فالفساد وأهله صاروا مبدعين بفلوسهم ونفوذهم "وايدهم الطايلة" .. والظلم أسرع فى خطواته إلى الفقراء والمعدمين أضعاف سرعة العدل .. ونحن لا نحب السير فى الاتجاه المعاكس أو عكس اتجاه الريح .. ونلعب دائماً على المضمون .. واتجاه الريح اليوم مع أهل الفساد والذمم الخربة والتصدى لهؤلاء مغامرة محفوفة بالمخاطر .. ونحن نفضل ألا نصل على أن نصل إلى الهاوية .. ومثلنا الشعبى يؤكد طبيعتنا وهو يقول "امشى سنة ولا تعدى قنا" .. فعبور القناة يوصلنى فى دقائق .. لكنى أمشى سنة خوفا من الغرق .. "وفوت علينا بكرة".

بلاغ عن سرقة خاتم سليمان!!

رحم الله أيام الشجب والتنديد والادانة والاستنكار.. فقد كانت أياماً حلوة.. ليتها دامت.. كنا نسخر منها ونقول: إن العرب لا يجيدون إلا الشجب والتنديد.. وكنا نتوقع بيانات الاستنكار قبل صدورها.. والآن أدركنا بعد فوات الأوان اننا "رفسنا النعمة" فزالت.. واننا كنا جاحدين وعوقبنا على جحودنا بعقلية عربية جديدة.. عاقبنا الله ببيانات الإعراب عن القلق والاستياء.. وضحكنا أيضاً منها.. فزالت نعمة أخرى وحل محلها ما يبكينا لا ما يضحكنا.. وهو المطالبة بضبط النفس والهدوء واتخاذ قرارات شجاعة بالخنوع والتنازل.. على أساس اننا ينبغى أن نكون واقعيين ونتعامل مع المتغيرات الدولية.. وأخيراً وليس آخراً أصبح العرب بارعين فى دبلوماسية التبرير.. فما تفعله إسرائيل بنا يومياً مجرد تصرفات انتخابية لها ما يبررها.. وعلينا الصبر حتى تنتهى الانتخابات الإسرائيلية وبعد ذلك يكون لكل حادث حديث.. كما أن ضغوط الولايات المتحدة علينا مجرد اختلاف فى وجهات النظر بين الأصدقاء.. لقد أصبح العرب عقلاء للغاية ومتحضرين جداً بدليل انهم يستغضبون فلا يغضبون.. ومن استغضب ولم يغضب "شوفوا انتوا يبقى ايه".

وبلغت العقلانية والواقعية بالدبلوماسيين العرب أن يصبحوا مثلنا نحن الدهماء والعوام والهوام.. فهم كلما وقعت واقعة يتساءلون مثلنا تماماً ولا يعرفون الجواب: لماذا أقدمت إسرائيل على اقتحام وتدمير سجن أريحا؟ ما الهدف من هذه العملية فى هذا التوقيت؟ لماذا هذه الفوضى فى العراق؟ ماذا ستفعل القمة العربية فى الأزمات الكثيرة التى تضرب أمتنا؟ ما العمل..؟ ما الحل؟ ثم يختتمون تساؤلاتهم بقول نعرفه جميعاً وهو ان الأوضاع صعبة ومعقدة للغاية وينبغى على كل الأطراف أن تتعامل معها بحكمة وتقدير للعواقب الوخيمة.. ودائماً يوجه الدبلوماسيون العرب دعوة الحكمة والهدوء وضبط النفس لكل الأطراف.. وتعبير "كل الأطراف" يعطينى ويعطيك دليلاً أكيداً على أن العرب عاجزون عن مخاطبة طرف بعينه وباسمه.. وانهم يلجأون إلى تفريق دم أى قضية بين كل القبائل حتى لا يغضبوا أحداً.

ويواصل الدبلوماسيون والمسئولون العرب نهجهم العاقل والرزين والحكيم حين

يرددون دائماً انهم لا يعبأون بعواطف وانفعالات الشعوب وغضبها وان السياسة لها شعابها وهم أدرى بها.. ولاينبغى أن ينساقوا وراء الهياج الشعبى والحماس الجماهيرى.. ومرة أخرى يؤكدون ضرورة معالجة الأمور بحكمة.. وهذا النهج الذى لا يعبأ بمشاعر الشعوب ولا يهتم بغضبها يؤكد ان المسئول العربى لايستمد شرعيته وموقعه من الشعب.. وانه مدين بمقعده لجهة أخرى غير شعبه.. لذلك فهو معنى بهذه الجهة وليس معنياً بشعبه.. وفى هذه عندهم كل الحق.. فالشعوب لم تأت بهؤلاء المسئولين إلى القيادة ولا تملك إزاحتهم فلا معنى للاهتمام بمشاعرها أو رغباتها.. فأنا مدين لمن رفعنى وأخشاه لأنه قادر على أن يضعنى ويقصينى ويستبدل بى غيرى.

ويخطر لى كثيراً خاطر أراه صواباً وهو أن الحكومات العربية أصبحت ديكورية وأن الأمور خرجت من يدها سواء فى السياسة الخارجية أو الداخلية وانها لا تملك ولا تحكم وليس لها من أمرها أو أمرنا شىء.. فهى ليست ديمقراطية ولا ديكتاتورية ولكنها ديكورية.

يخطر لى أحياناً افتراض وجيه وهو: ماذا يحدث لو لم تكن هناك حكومات فى الدول العربية؟ ما الذى سيتغير؟ وتأتينى إجابة مزعجة ولكنها وجيهة.. لن يحدث أى شىء.. فحكوماتنا العربية صارت مثل سيدنا سليمان عندما مات.. وظل ميتاً وهو مستند إلى عصاه عدة سنوات وما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته حتى خر فعلمت الجن انه مات عليه السلام.

وكل دواب الأرض تأكل منسأة الحكومات العربية ومع ذلك لا تريد الشعوب أن تدرك أن تلك الحكومات ماتت وخرت وشبعت موتاً.. وأن ما نراه الآن ليس سوى إدارات للعلاقات العامة فى كل الدول العربية اسمها حكومات مهمتها التبرير والتأويل والتعليق على الأنباء فى الخارج والداخل واصدار النشرات لمجرد اثبات الوجود وإبراء الذمة.. لكن هذه الإدارات المعنية بالعلاقات العامة والمسماة حكومات لا تملك قراراً ولا إرادة ولا حلاً ولا عقداً وهى عاجزة عن صنع مشكلة وبالتالى هى عاجزة عن حلها.

والغريب فى الأمر هو الشعوب التى توقف نموها عند مرحلة كانت فيها حكومات عربية فعلاً فمازلنا نسمع الناس يحملون الحكومة مسئولية أى مشكلة ويطالبونها بالحل.. ويقولون كلاماً عفا عليه الزمن مثل.. ينبغى على الحكومة أن تفعل كذا وتقرر كذا.. رغم أن الحكومة لا تملك أن تفعل أو لا تفعل.. فى الخارج هناك من يفعل ودور الحكومة أن تبرر له وتشرح لنا مغزى ومعنى الفعل.. وفى الداخل هناك من يفعل ودور الحكومة أن تفسر وتحلل وتشرح.. لكنها فى كل الأحوال لا تملك ولا تحكم ولا تفعل.

وعندما التهبت الأسعار وبلغت درجة الغليان ومازالت تتصاعد شن الناس حملة ضارية على الحكومة وطالبوها بالتدخل لخفض الأسعار.. وقد حدث ذلك لأن الناس توقف نموهم عند مرحلة مضى عليها نصف قرن عندما كانت هناك حكومة ترفع وتخفض وتعز وتذل.. ولا يريد الناس أن يدركوا انه لم تعد هناك حكومات ترفع الأسعار حتى تخفضها.. فالحكومة صارت مجرد إدارة علاقات عامة فى مؤسسة القطاع الخاص الضخمة.. وكل شىء يجرى رغم أنف الحكومة.. لكنها حفظاً لماء الوجه وكنوع من "حلاوة الروح" تقول انها لن تسمح بانقلاب الأسعار وسترفع الأجور وستعمل على استقرار الأسواق.. وهى فى الحقيقة لا تملك من ذلك مثقال ذرة فعل.. فقد مضى زمن الحكومات ونعيش الآن زمن إدارات العلاقات العامة التى تقوم على خدمة السيد الغنى والوجيه الأمثل المستثمر وصاحب رأس المال وزعيم عصابة النظام العالمى الجديد.

وقد رأيت بعينى رأسى تأشيرات وزراء يلقى بها من وجهت إليهم فى سلال القمامة ويقول صاحب المدرسة الخاصة أو المؤسسة أو الشركة: "هذه التأشيرة بلها واشرب ميتها وخللى الوزير ينفعك".. فالحكومة أصبحت "خيال مآتة" لا يقيم لها أصحاب المال والنفوذ وزناً ولا تزن عندهم جناح بعوضة.. والفقراء فقط والذين لا حول لهم ولا طول هم الذين مازال لديهم أمل فى الحكومة لكنه حمل كاذب وسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء.

وأنا أحاول أن أرفع الظلم عن الحكومة وأقول للناس ان الحكومة بريئة من رفع الأسعار وبريئة من تدنى الأجور وبريئة من بيع أرزاقنا وبريئة من استيراد أطنان الفياجرا.. نعم هى بريئة لأنها لاتملك ولا تحكم.. وهى مضطرة لإقرار كل ما يجرى رغم أنفها لتثبت انها مازالت على قيد الحياة رغم أن دابة الأرض أكلت منسأتها.. وقد مضى زمن زينب فى الفيلم الشهير المأخوذ عن رواية الدكتور محمد حسين هيكل.. عندما قالت راقية إبراهيم فى الفيلم: اللى مالوش أهل الحكومة أهله.. فالحكومة نفسها صارت بلا أهل ولا أهلية.. والتعلق بها صار مجرد تعلق "فى الحبال الدايبة"..

وإذا أردت أن تدرك مدى ضعف قوة الحكومات وقلة حيلتها وهوانها على الناس فانظر إلى القمم العربية واسأل نفسك وجيرانك والحيطان حولك.. ماذا يمكن أن يحدث لو لم تعقد أى قمة عربية؟.. ماذا يمكن أن يتغير لو لم تكن هناك جامعة عربية ولو لم تكن هناك وزارات عربية للخارجية؟ لاشىء ألبتة.. ماذا بقى من أفعال وضربات ومهانة حتى يغضب العرب؟ ثم اتجه إلى الداخل فى أى دولة عربية واسأل الجيران والحيطان أيضاً.. ماذا يحدث لو ألغيت كل الوزارات كما ألغت بعض الدول العربية وزارة الإعلام؟ لا شىء ألبتة.. فقافلة القطاع الخاص تسير

لب الحكومة لم يعد حتى ينبح.. بل صار يتبع قافلة القطاع الخاص ويحرسها
تى تصل إلى مبتغاها.. ومبتغاها هو طحن الفقراء وسحلهم وعقابهم لأنهم فقراء
حاقدون على أسيادهم الأغنياء.

والفقراء فى رأى السادة الأغنياء وتابعهم الحكومة مجرد أفواه يتم من خلالها
سل الأموال القذرة.. فأفواه الفقراء مفتوحة لتلقى فيها حفنة من أموال الأغنياء
بهدف غسل هذه الأموال.. وساعتها يسبح الفقير بحمد الغنى.. ونرى الغنى وقد
زوج بفلوسه محافظة بأكملها يقول فيسمع الناس لقوله ويأمر فيطاع ويترشح
يفوز ويحصل على لقب الحاج وزوجته الحاجة.. ويصدق وهو كذوب لأنه يطعم
لفم فتستحى العين.. وهو وأمثاله أقوى من الحكومة لأن الحكومة تتمرغ فى
خيره.

وهذا ليس منطق عصرنا وحده ولكنه عودة من جديد إلى منطق الجاهلية عندما
لم تكن هناك حكومات ولا قيم.. وساد الأغنياء بفلوسهم ومارس الشعراء
الصعاليك حرفة غسيل الأموال عندما كانوا يسطون على الأغنياء ويوزعون جزءاً
مما نهبوه على الفقراء كنوع من غسل أموالهم وكسباً لتعاطف الناس مع جرائمهم..
فقد كان الصعاليك أول من مارس غسل الأموال فى التاريخ.. وكان منطقهم هو
السائد الآن.. وهو أن المجد هو الغنى.. وأن الفقر غربة فى الوطن والغنى والثراء
وطن فى الغربة.. ولله در الشاعر الذى قال:

يغطى عيوب المرء كثرة ماله	يصدَّق فيما قال وهو كذوب
ويزرى بعقل المـــرء قلة ماله	يحمقــه الأقــوام وهو لبيب

وقد كان الشاعر عروة بن الورد من الصعاليك وعاش ومات بمنطق ان المجد هو
الغنى ويقول فى ذلك:

ذرينى للغنــى أســعى فإنى	رأيت الناس شرهم الفقير
ويقصــــيه الندى وتزدريه	حليلته وينهــره الصــــغير
وتلقى ذا الغنى وله جــلال	يكاد فؤاد صاحبه يطيــر
قليل ذنبــــه والذنب جــم	ولكن الغنــــى رب غفــور

وفى حوار مع بعض الأصدقاء أبدى أحدهم إعجابه بمقال قرأه ويرى أن قطار
الحكومة يمضى فى طريقه فوق أشلاء الضحايا لا يوقفه نقد ولا هجوم ولا
صراخ.. ولم أبد رأيى فى حينه لكننى الآن أقول انه قول جانبه الصواب لأنه مبنى
على منطق قديم عندما كانت هناك حكومات.. أما الآن فإن الحكومات ماتت
وخربت بعد أن أكلت دابة الأرض منسأتها وسرق منها القطاع الخاص خاتم سليمان

الذى كان فى اصبعها.. ولم يعد للحكومة قرار ولا قطار.. فالحكومة لم تبع القطاع
العام فقط ولكنها باعت نفسها وقرارها وإرادتها للأغنياء الذين صار بيدهم خاتم
سليمان وحذاء سندريلا وصولجان الملك.. ونحن نهاجم الحكومة وننتقدها وننصرخ
فيها ظناً منا انها خربت الدنيا وهى قادرة على تعميرها.. وهو منطق سقيم لأن
الحكومة لا تملك تخريب الدنيا ولا تعميرها.. والحكومة لا ترد على هجومنا لأنها
بريئة من الخراب وعاجزة عن الإعمار.. والحكومة لم تعد حتى قادرة على شد أذن
من يهاجمها.. ولكننا جميعاً عاجزون عن مهاجمة أى حرامى فى القطاع الخاص
باسمه ونكتفى بالتلميح فقط.. لأن هذا الحرامى يمكن أن يبهدلنا فى المحاكم إذا
كان "على قده" أما إذا كان من أصحاب القول والحول والطول وهم كثر فإنه يمكن
أن يستأجر من يقتلنا فى عز الظهر أو على الأقل "يضربنا علقة ساخنة".. لكن
الحكومة لا تفعل ذلك رغم اننا نهاجم وزراءها وكبار مسئوليها بالاسم الثلاثى
والرباعى.. فالحكومة صارت مثل الأهالى غلبانة ومكسورة الجناح ومجرد "سمعة
على الفاضى".. والحقيقة اننا نعيش عصر الجاهلية حيث لا حكومة ولا دولة فى
العالم العربى.. وإنما السائد عندنا هو منطق القوة ومنطق الثروة.. وفى الجاهلية
الأولى كانت القوة فى جانب والثروة فى الجانب الآخر.. أما الآن وفى الجاهلية
الحالية فإن القوة والثروة معاً فى صف واحد.. لأن الثروة تشترى القوة والسلطة
والبلطجية.. والحكومة ليست لديها قوة ولا ثروة وهى مجرد "ريش على ما فيش"..
والأغنياء هم حكومة الظل والنور فى عالمنا العربى.. وهم يستخدمون الفقراء
كبلطجية ويستخدمون الحكومة كجهاز للعلاقات العامة والتبرير لأفعالهم..
فالفقراء والحكومة موظفون بالأجر عند الأغنياء ورجال الأعمال..

والفقراء وحدهم هم الوطنيون العاشقون لتراب الوطن.. وهو ليس مبدأ ولا
منهجاً لديهم ولكنها وطنية اضطرارية فإذا تعرض الوطن لمكروه فهم لا يملكون
الفرار منه.. أما الأغنياء فإنهم مثل البدو الرحل فى الجاهلية الأولى.. وطنهم
حيث الماء والمرعى والكلأ يذهبون إليه ويحطون رحلهم عنده أينما كان.

وأغنياء الجاهلية الحالية وطنهم فلوسهم.. يذهبون خلفها إلى أى مكان.. وفى
أى بنك ويحطون رحالهم ويبنون خيامهم أو يقيمون قصورهم بجوار فلوسهم إذا
تعرض مسقط الرأس لمكروه أو غزو أو كارثة.. فالفلوس وطن فى الغربة.. فالغنى
يستطيع أن يفر بدينه أو معتقداته السياسية أو بالغنيمة التى سرقها.. ويستطيع
فى الوطن البديل أن يدعى البطولة والمعارضة بفلوسه مثل هؤلاء الذين يسمون
أنفسهم أقباط المهجر.. أما أقباط أو مسلمو أو حتى زنادقة الداخل فإنهم فقراء
ويعانون لأنهم فقراء ويزايد الأغنياء بقضاياهم وآلامهم فى الداخل والخارج
ويعملون أبطالاً "على قفاهم".. وهؤلاء الفقراء ليس لديهم بديل سوى العذاب

والعـيش والموت فـى الوطن.. وهـم وقـود حـرب الوطن إذا حـارب.. وهـم
ون من الغنائم عند النصـر.. فـهم وقـود الحـرب وضـحـايا السـلام.. وهـم
ن فى الشدة وهم ضـحـايا الرخـاء.. وهـم المخـدوعون بالتـأميم والمطحـونون
ـصة.. والحكومـات تنفـذ أجندات النظام العـالمى الجـديد فـى الخـارج..
ت وإرادة الأغنيـاء فى الداخل.. لكنهـا غـيـر مـعنيـة بآمـال وآلام الفقـراء..
، طردى ولا مفـر منه فلكى يزداد الغنى ثراء لابد أن يزداد الفقـير فقراً..
ـيش الطبـيب على أمـراضنا ويحـيـا الحـانوتى بموتنا ويقـتـات المحـامى
.. يعيش الغنى على فقرنا وينعم ببؤسنا.. فارفعوا أيديكم عن الحكومات..
رب فى الميت حرام.

يا دنيا يا غرامى..
يا جنة الحرامى!!

يقولون إن كل ما جاد به عصرنا من اختراعات وابتكارات يرمى إلى تيسير سبل الحياة للإنسان.. أما أنا فأقول إنه تيسير أيضاً لسبل الموت.. وكل ما تراه حولك من منجزات العصر له وجهان أحدهما تيسير العيش والآخر تيسير الموت.. والطب لم يتقدم كما يزعمون.. لكن ما تقدم هو فقط وسائل التشخيص.. أما سبل العلاج فإنها لم تتقدم سوى بخطوات سلحفاة.

أنا أستطيع بكل سهولة أن أعرف مرضى.. لكنه فى الغالب مرض بلا علاج.. كما أن الأمراض سارت أسرع فى خطواتها وقدراتها على التطور من الطب.. والفيروسات والميكروبات أصبحت أسرع تطوراً من الإنسان وأذكى منه أيضاً.. ومنجزات الطب كلها تقريبا منجزات إعلامية ودعائية وليست حقيقية.. ومنجزات وانتصارات الأمراض والفيروسات هى الحقيقية.

وهكذا فى كل مجال ترى المشاكل أضعاف أضعاف الحلول والأسئلة أضعاف الأجوبة وعوامل الهم والنكد أضعاف عوامل السرور والترفيه.. وأسباب اليأس والاحباط أضعاف أسباب الأمل والتفاؤل.. والإنسان الذى أحيط بكل وسائل تيسير الحياة والترفيه والاسترخاء صار أكثر لهاثا وجريا وأكثر صراعا مع عدوين لدودين لا يكف عن العراك معهما حتى يهدأ فى القبر وهما المسافة والزمن.. والإنسان الذى أحيط بكل أسلحة النصر على المسافة والزمن صار أكثر عجلة وأشد تأففا وقرفا ورغبة فى إزاحة الآخرين ليدرك منصباً أو أموالا أو حظوة قبل أن تغلبه المسافة والزمن ويموت.. وهو فى الغالب يموت ساخطا لأنه لم يدرك بغيته.

والإنسان يشترى ويقتنى ليفاخر الآخرين ويغيظهم.. بينما فى حقيقة الأمر هو يشترى السيارة ليموت بها ويركب الطائرة ليلحق بقبره ويزداد هما كلما اغتنى لأنه يكتشف من هو اغنى منه.. ويزداد ألما كلما علا لأنه يرى من هو أعلى منه.. ويحارب الدنيا كلها ليتزوج امرأة أعجبته ليفاجأ بأن الأجمل منها تزوجها غيره.

والإنسان ينتحر إذا أحب وينتحر إذا كره.. ويموت من الحزن ويموت من الفرح.. ويخاف الحاسدين والحاقدين إذا اغتنى ويخاف الاحتياج الى سؤال اللئيم إذا افتقر.. وينافق طمعا فى الغنائم وينافق خوفا من العقاب.. ويحارب من فوقه ليغتصب مكانه ويحارب من دونه حتى لا يصل إلى ما وصل إليه.

الإنسان أحمق لأنه يتصرف ضد نفسه ظنا منه أنه يعمل لصالحها.. والإنسان عجول

تى أنه يتعجل نهاية عمره عندما يتمنى أن ينتهى الشهر بسرعة ليقبض راتبه أو تنتهى سنة الدراسية ليرتاح أو يأتى الاسبوع القادم بسرعة ليقابل حبيبته أو لينهى أوراقه فى مؤسسة حكومية.. والإنسان أحمق لأن سعيه يضل وهو يحسب أنه يحسن صنعاً.
والإنسان أحمق لأنه يعتبر علاجه الوحيد تخلفا ورجعية وتزمتاً وأصولية.. وعلاجه الوحيد هذا هو الإيمان بالله واليقين بأن ما كان له لن يذهب إلى غيره وما كان لغيره لن يأتيه أبداً.

ويقول الحمقى إن هذه دعوة إلى التواكل وتوقف السعى وعدم التخطيط والقدرية المقوتة.. وهو كلام أحمق لأن الإيمان بالله ليس ضد السعى وليس دعوة إلى التواكل.. ولكنه علاج للصراع والهم والنكد أثناء السعى.. فأنا أسعى وأخطط وأرسم مع الإيمان بأن ما كان لى يخطفنى وما ليس لى لن يصيبنى أو أصيبه.. ساعتها لن تكون هناك صدمات أو ارتفاع فى ضغط الدم أو انفجار فى المخ.. ولن تكون هناك حاجة إلى وسائل غير شريفة أو تنازلات موجعة أو سلوكيات رخيصة أو رضا بالدنية والدونية.

والإيمان بالله لصالحى وليس لصالح ربى.. وهو وقاية لى من أمراض العصر وحتى إذا أصابتنى تلك الأمراض فإن إيمانى يجعلها خيرا لى.. وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه.. عجبا لأمر المؤمن.. إن أمره كله خير.. فإن أصابه خير شكر فكان خيرا له وإن أصابته مصيبة صبر فكان خيرا له.

والإيمان بالله يجعل الغنى خيرا لى ويجعل الفقر خيرا لى.. فأنا أسعى إلى الغنى إذا كنت فقيرا لكن الإيمان يجنبنى وسائل السعى المرذولة.. ويحمينى من التأفف والقنوط إذا لم ينجح مسعاى.. والإيمان ليس كلمة تقال.. بل أفعال وابتلاءات ومحن يتعرض لها المرء.. وفتن تحيط به ومغريات تناديه فيأبى.

وقد عجبت يوما لكلمات قالها وزير أوقافنا عندما دعا خطباء المنابر إلى ترك الحديث عن عذاب القبر والموت والنار والسعير.. والاكتفاء بحديث النعيم والتمتع بملذات الحياة.. باعتبار أن حديث الموت وعذاب القبر تنفير من الإسلام وأن الحديث عن التمتع بملذات الحياة ونعم الله تبشير وترغيب فى الإسلام.. ويبدو أن وزيرنا فاته أن أعظم علاج لادران وأمراض ومصائب الإنسان هو ألا ينسى لحظة واحدة أنه سيموت.. وأنه ينبغى أن يعامل الناس معاملة مودع وأن يكتب كتابة من سيموت ومن يقول آخر كلماته فى الدنيا وأن يصلى صلاة مودع.. وأن يخرج من بيته مودعا أهله على أساس أنه قد لا يعود.. فإذا نسينا الموت فإنه لا ينسانا وإذا تركناه فإنه لا يتركنا وإذا صاحبناه ورافقناه فى كل ساعة وفى كل لحظة جعلنا أكثر استمتاعا بنعم الله وأكثر رغبة فى الإنجاز وترك صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو لنا - وقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عن الصديق أبى بكر رضى الله عنه ما معناه: من سره أن ينظر إلى ميت يمشى على الأرض فلينظر إلى أبى بكر وأكثر الحكام عدلا هم الذين لا ينسون لحظة أنهم مؤقتون وأنهم ميتون أو تاركون لمقاعدهم.. وأكثرهم ظلما وجورا واستبداداً هم الذين جعلوا الدنيا أكبر همهم ومبلغ علمهم.

أكثر الحكام ظلماً وعسفاً وحماقة وتجبرا هم أولئك الذين امتلأوا قناعة وحشاهم المنافقون وبطانة السوء اعتقادا بأنهم خالدون وأنهم لن يموتوا وأن ذكر الموت أمامهم جرأة وتهور وعيب.. وزمان قيل إن حاكما فى دولة اسلامية غضب غضبا شديدا وغضب له اعوانه لأن احدى الصحف قالت إنه أدى صلاة الجمعة الأخيرة فى مسجد كذا - ولم تقل الجمعة الاخيرة من رمضان.. واعتبر الخبر نحسا وفألا سيئا وأن القصد من الخبر هو تمنى الموت له.. والمهم فى الأمر أن هذا الحاكم مات ولم ينقذه من الموت أن أعوانه احاطوه بسور عازل يمنع كلمة الموت أو معناها من الوصول إلى أذنيه.

والكلام الكثير عن الموت هو كلام عن الحياة لأن الموت والحياة وجهان لعملة واحدة.. وأسعد الناس فى الدنيا هم الذين لديهم يقين بأن الدنيا ليست آخر المطاف.. وعندما يموت الظالمون والعتاة والجبارون ميتة سوية وتقام لهم الجنازات الفخمة ويدفنون فى قبور خمسة نجوم وتمتلىء الأرض والفضاء حديثا عن مآثرهم وإنجازاتهم وانحرافاتهم ايضا.. يقول أهل الدنيا: يا ليت لنا مثلما أوتى هؤلاء من حياة هنية وميتة سوية.. بينما يقول أهل الدنيا والآخرة إن الدنيا ليست نهاية المطاف وأن هؤلاء المنحرفين والمارقين والجبارين الذين ماتوا ميتة سوية وفخمة أولى بالشفقة والرثاء والحزن على ما أصابهم لأنهم أذهبوا طيباتهم فى الحياة الدنيا وأخذوا حقهم كاملا ولم يمسسهم سوء فى الحياة الدنيا يخفف عنهم عذاب الآخرة.. فالمسرحية لم تنته بعد وربما انتهى فقط مشهدها أو فصلها الأول.. وهناك فصل آخر لا نهاية له.

وليس المؤمن هو الذى يحب الموت أو يتمناه.. فالإنسان السوى ينبغى أن يكره الموت ويخافه.. ولكنه ينبغى أن يتعامل معه ويرافقه ويجعله بين عينيه على مدار الساعة ليس من أجل أن يعتزل الحياة ويزهد فيها ويصاب باليأس والاحباط ولكن ليستمتع بها ويستثمرها استثمارا جيدا ينفعه بعد الموت.. لابد أن يرافق الانسان الموت فى صحوه وفى نومه ليكون قويا فى الحق - شجاعا فى المواجهة - صريحا فى الحوار - كيسا فطنا فى التعامل مع خلق الله - مترفعا عن الدنايا والهوان - رافضا للذلة والمسكنة.. ولو كان مطلوبا منا أن نحب الموت ونتمناه ما عاقبنا الله تعالى على الانتحار.. فالمعروف علميا وكما تؤكد الأبحاث والإحصاءات أن المنتحرين هم الذين لم يخطر لهم الموت على بال ولم يرافقوه.. بل هم الأكثر إقبالا وانخراطا فى متع الدنيا والأكثر صراعا وخوضا للحروب من أجلها.

المعروف علميا أن الزاهد فى الدنيا لا يقبل على الانتحار أبداً.. وأن المنتحرين هم الذين كانوا على قناعة بأن الدنيا هى آخر المطاف وأن انتحارهم هو النهاية لكنهم سيدركون بعد ترك الدنيا أن انتحارهم كان البداية لرحلة عذاب بلا نهاية.. ولكى تقتنع بقولى عليك أن تراجع أسباب انتحار المنتحرين لتجد أن أحدهم فشل فى الزواج من الفتاة التى أحبها وأن أهلها رفضوه زوجا لها.. والآخر أصابه اليأس من الشفاء من مرض عضال والثالثة غرر بها عشيقها وتركها بعد أن قضى منها وطره والرابع فشل فى شراء خروف العيد أو تخطوه فى الترقية أو الدرجة أو صدر قرار بفصله أو نقله - وهكذا تجد كل الأسباب تؤكد صراع

هؤلاء المنتحرين على متع وملذات الدنيا وافتقادهم لليقين بأن ما كان لهم لن يخطئهم وما كان لغيرهم لن يأتيهم.. وقد ازدادت معدلات الانتحار لأن الدنيا أصبحت أكبر همنا ومبلغ علمنا ولأننا نسينا الموت كما دعانا إلى ذلك وزير أوقافنا.

وحضارة الفراعنة ازدهرت وعاشت حتى يومنا هذا وستعيش بعدنا لأنها حضارة موت.. وحضارة آخرة.. حضارة بنيت على ثقافة الموت لذلك أقامت حياة خالدة عاشت وستعيش طويلا وكل الحضارات التى قامت على متع الدنيا وعلى أساس أن الدنيا هى آخر المطاف.. خربت الدنيا وخسرت الآخرة لانها حضارات عرجاء سارت على قدم واحدة.. وحضارات عوراء رأت بعين واحدة.. والغرب يتهم الحضارة والثقافة الإسلامية بأنها حضارة موت واستشهاد وانتحار.. وهو شرف لا ندعيه.. لأن الحضارة الاسلامية تداعت أركانها وأفل نجمها منذ أصبحت حضارة دنيا فقط.. وتخلت تماما عن مرافقة الموت كما يدعونا إلى ذلك وزير أوقافنا.

وعندما عشنا تجربة العمل بالخارج كنت أقول لمن معى وأكتب دائماً أن الوطن هو آخرة الدنيا وأن العمل بالخارج هو دنيا فى الدنيا نعيشها ويطول عمرنا فيها أو يقصر لكن النهاية هى الآخرة أو هى الوطن.. وكان الذين يعملون فى الخارج كأنهم ضيوف أو عابرو سبيل أكثر التزاما وإجادة وترفعا وأعظم خلقا فى العمل والسلوك لأنهم على يقين دائما بأن آخرتهم هى الوطن وأنهم راحلون عاجلا أو آجلا سواء بالاستقالة أو بما نسميه "التفتيش" أى إنهاء التعاقد.. وكنت أسمى الاستقالة تندرا الانتحار واسمى "التفتيش" الموت بالسكتة لأنه يأتى فجأة وبلا مقدمات غالبا.. وكنت أسمى توصيل الزملاء إلى المطار تشييعا لجنازاتهم إلى مثواهم الأخير فى الوطن.. وكان الذين يتصرفون خلال العمل بالخارج على أنهم مخلدون وباقون لا يؤدون عملهم كما ينبغى ويعيشون بالطول والعرض حتى يأتيهم "التفتيش" بغتة.

إننا نعيش الحياة والموت والدنيا والآخرة معا فى كل لحظة لكننا لا نتأمل ولا نراجع أنفسنا فنحن نموت بالنوم ونبعث باليقظة.. ونعيش الدنيا خارج الوطن.. ونرحل إلى مثوانا الدنيوى الأخير فى الوطن ونعيش فى عملنا ونموت بالإحالة إلى المعاش ونموت بخروج أرواحنا لكننا نعيش فى ذرياتنا.. والذين يرافقون الموت ويتعايشون معه أكثر هدوءاً وسكينة ورقة وحساسية وحياء.. هم يتصرفون فى الدنيا كضيوف فلا يفسدون فى الأرض ولا يهلكون الحرث والنسل ويرضون بما قسم الله لهم.. ويسعون لإعمار الدار التى تستضيفهم فلا يتلفون أشجارها ولا يلوثون ماءها ولا يسرقون متاعها وإذا تولوا أمر الناس أو القضاء بينهم عدلوا وأنصفوا.. وفى أمثالنا الشعبية نقول عن أى عاقل كيس فطن يتسم بالرقة ودماثة الخلق والوقار والصدق.. إنه ابن موت.. فليتنا جميعا نكون أبناء موت.. ولو أدرك كل منا أنه قد يسقط ميتا وهو يزنى أو وهو يسرق أو يكذب أو ينصب أو ينافق أو يظلم أو يستبد ما أقدم أى منا على رذيلة.. وما استمع لدعوة وزير أوقافنا الذى يطالبنا بأن نشطب سيرة الموت وعذاب القبر وعذاب الآخرة من قاموس مواعظنا وأن ننام ونحلم أحلاما وردية ونأكل "رز مع الملايكة".. ونغنى يا دنيا يا غرامى.. يا جنة الحرامى.

سارق النيل يحاكم لص الغسيل!!

عندما وقعت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان بن عفان رضى الله عنه انتظر المسلمون طويلا حتى يحدد الصحابى الجليل عمار بن ياسر رضى الله عنه موقفه بالانضمام إلى فريق على بن أبى طالب كرم الله وجهه أو فريق معاوية رضى الله عنه.. وسبب هذا الانتظار هو ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله لعمار بن ياسر ما معناه: تقتلك الفئة الباغية.

وعندما انضم عمار إلى فريق على حدد كثير من المسلمين موقفهم وتبعوه فى الانضمام إلى فريق على لكن عمرو بن العاص وكان من فريق معاوية لجأ إلى حيلة التأويل والتفسير حين قال: إنما تقتله الفئة الباغية التى زجت به فى الحرب وأقحمته فيها.. أى أن الفئة الباغية هى فئة على بن أبى طالب ونجحت حيلة عمرو بن العاص وعادت البلبلة من جديد وتردد الكثيرون ولم يحسموا موقفهم وقعدوا فى بيوتهم على أساس أنها فتنة كقطع الليل المظلم القاعد فيها فى بيته خير من الساعى.

ويقال إن فلانا قتيل التأويل أو سجين التفسير وليس قتيل أو سجين التهمة أو الجريمة أو الذنب.. وإذا كان التأويل أو التفسير قد أربك المسلمين الأوائل وهم قريبو عهد بزمن النبوة فإنه فى زماننا بعد أن بعد بنا العهد وصرنا مجرد ورثة دين لا صناعه لم يربكنا التأويل بل قتلنا ودمرنا وأفسد علينا حياتنا كلها حتى صار أهل الباطل أقوى حجة.. وأفصح لسانا وأبلغ بيانا من أهل الحق.. وأصبح المرء بريئا وقويا بفلوسه وثرائه ونفوذه والآخر مذنبا ومنبوذا ومتهما بفقره وقلة حيلته وهوانه.. وصار أهل الحق حمقى ومندفعين وانفعاليين وأهل الباطل فى غاية الكياسة والهدوء والتروى والفطنة.

وفى زماننا هذا يقاس ذكاء الدبلوماسى أو السياسى بكذبه وبقوله كلاما "حمال أوجه" وعلى كل منا أن يفهم على هواه ومزاجه أو لا يفهم على الإطلاق.. وكلما استعصى كلام أى مسئول على الفهم والتفسير وحمل أكثر من معنى كان ذلك دليلا قاطعا على ذكائه وحنكته ومهارته.. ويؤخذ على المسئول فى أى موقع أن يكون صريحا وواضحا ومبينا فى لفظه ومعناه حتى أن كل الأزمات الدبلوماسية بين الدول تنتج عن صراحة ووضوح وإبانة مسئوليها وحكامها.. وعادة ما يعتذر المسئول عن صراحته ووضوحه بأنها زلة لسان غير مقصودة بمعنى أنه لا يقصد الصراحة والوضوح والصدق وأنه ينبغى أن يجيد اللف والدوران حتى يكون ناجحا وبارعا.. وقد كان الرئيس الأمريكى بوش صادقا غاية الصدق عندما تعهد بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر بأن يخوض حربا صليبية لكنه اعتذر عن صدقه هذا بأنها زلة لسان.. وقرر أن يكف عن صدق القول ويكتفى بصدق الفعل

يخوض حربا صليبية دون أن يصرح.. بل يخوضها وهو يقول إنه يحترم الإسلام والمسلمين.. واقتنعنا نحن العرب والمسلمين بأن بوش يذبحنا ويقتلنا وهو يحترمنا ويقدرنا ويترحم علينا ويذكر محاسننا بعد أن نموت.

وكان الرئيس الفلسطينى محمود عباس فى قمة الصدق أيضا عندما انفعل بعد عملية عدوانية إسرائيلية وقال إنه يدين الجريمة التى ارتكبها العدو الصهيونى.. ثم بادر بالاعتذار وقال إنها زلة لسان وهناك من العرب من يأخذ على الزعيم الليبى معمر القذافى صراحته فى القول والفعل.. فالرجل حتى لو اختلفنا معه فى بعض المواقف لم نجرب عليه لفا ولا دورانا ولا حديث تورية "حمال أوجه" وهذه تركيبة بدوية لم تلوثها المدنية ولم تدخل عليها تعديلات تفسدها.. فالقذافى يعادى بوضوح ويتنازل بوضوح ويقول ويفعل بوضوح يجعل أهل اللف والدوران يخرجونه من زمرة السياسيين المحنكين.. والسياسيون المحنكون والمهرة فى زماننا هم الكذابون الذين يوصفون لفرط كذبهم بالحكمة والرأى الثاقب ونفاذ البصيرة.

وقد أرهق أحد مسئولينا نفسه كثيرا فى تفسير وصفه لشعبنا يوما بأنه غير ناضج سياسيا وراح يقول إنه خطأ فى الترجمة أو أنه لم يقل ذلك.. لكنه لم يأخذها من "قصيرها" ويقول إنها زلة لسان لأن ألسنة مسئولينا لا تصاب أبدا بالزلل والتعثر.. فهى دائما ألسنة صدق وحق والعيب فى فهمنا نحن لما يقولون وليس العيب فى أقوالهم.. فنحن جميعا نفتقد فضيلة الاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه.. ونبالغ فى التأويل والتفسير والشرح ونعتمد على أن الشعب أدمن حبوب النسيان التى يتعاطاها كل لحظة حتى صارت ذاكرته مثل بطنه تهضم الزلط والدبش ولم يعد أحد من مسئولينا يرهق نفسه فى احترام عقل هذا الشعب ولم يعد معنيا بتقدير مشاعره.. وهذا أمر قديم فى مسئولينا وهو سلوك متوارث لديهم يتناقله الخلف عن السلف.. والأمر أبعد وأقدم من قول الخديو توفيق: أنا خديو البلد وأنتم عبيد إحسانى.. وقول عبدالناصر بعد حادث المنشية: "أنا اللى علمتكم العزة والكرامة".

ودائما هناك تزرية معان مثل تزرية القوانين تماما يفسرون أقوال المسئولين التى تبدو فجة وصادمة ووقحة فى بعض الأحيان بما يرضى هوى المسئول ويرفع عنه الحرج ويجعل المواطن العادى وغير العادى مثل الأطرش فى الزفة لا يدرى من المخطىء ومن المصيب ومن الذى له أو عليه الحق.. فالباطل هو الراكب والحق هو المركوب.. والزمام فى يد الباطل الذى يسوق الحق إلى حيث يشاء.. والهوى هو السلطان والحاكم بأمره.

وأسوأ ما يمكن أن يصل إليه المرء منا ألا يصدق أحدا حتى نفسه لا يصدقها وألا يعبأ بحكم براءة أو حكم إدانة لأنه يشك فى أن وراء الحكم هوى مطاعًا ونفسا أمارة بالسوء وضغوطا رهيبة من الباطل على أهل الحق.. ويظل يردد بينه وبين نفسه قول أحد الحكماء: شر القضاة من خافه البرىء واجترأ عليه الجانى.. وقول الشاعر: والخصم لا ترتجى النجاة له إن كان يوما خصمه القاضى وقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: ثلاثة من الفواقر.. جار إذا رأى حسنة سترها.. وإذا رأى سيئة أذاعها.. وامرأة إذا دخلت

عليها لسنتك وإذا غبت عنها لم تأمنها.. وسلطان إذا أحسنت لم يحمدك وإذا أسأت قتلك.

وأظن أن الأمة على وشك الهلاك لأنها ابتليت بالداء الذى أهلك أمما من قبلها.. حيث إذا سرق الشريف أعفوه وإذا سرق الضعيف قطعوه.. وقد مر أحدهم يوما فى الطريق فرأى زحاما.. فسأل فقيل له: إنه الوالى يقطع يد سارق.. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله.. سارق العلن يقطع يد سارق السر.. وهذا ما يجعلنى وغيرى نحمد الله على أن الحدود الشرعية كقطع يد السارق ورجم الزانى معطلة فى زماننا فويل لنا من الظالم والمستبد إذا حكم باسم الدين.. فهو أسوأ من الظالم الذى يحكم باسم الشيطان أو بالقوانين الوضعية.

وأسوأ ما تبتلى به أمة سلطان ظلوم جهول يدعمه شيطان مثقف.. والشيطان المثقف فى أمتنا اثنان.. رجل الإعلام ورجل القانون.. فرجل الإعلام هو ذلك الذى يزين للباغى والفاسد سوء عمله وينفخ فيه من روحه الشريرة حتى تتورم ذاته ويرى نفسه كثيرا وكبيرا على شعبه الذى ينبغى أن يسجد لله شكرا أن حكمه هذا.. ورجل القانون هو الذى يعطى شرعية للبغى والفساد والظلم ويخترع قوانين مطاطة توافق الهوى والمزاج.. تضيق إذا أريد لها الضيق وتتسع إذا أريد لها الاتساع.. تعفى الثرى الشريف وتلتمس له ألف عذر وتدرأ الحدود والعقوبات لصالحه وتخنق الفقير الوضيع وتنكل به وتتباهى بالعدل والحق على "قفاه".

وقد قالت العرب قديما أقوالا كثيرة تبدو فى ظاهرها حكمة وأقوالا مأثورة لكن باطنها سيىء إذا أحسن المرء تأمله وتفسيره: ومن ذلك قولهم: سلطان تخافه الرعية خير للرعية من سلطان يخافها.. وقولهم: إذا كان الإمام عادلا فله الأجر وعليك الشكر وإذا كان جائرا فعليه الوزر وعليك الصبر.. وهذه أقوال نرددها الآن فى أمتنا بألفاظ مختلفة ويلح عليها شيطان الإعلام وشيطان القانون المثقفان على أساس أن الظلم والجور والاستبداد قضاء وقدر ينبغى الصبر عليه والصبر هنا غير مأجور لأنه ذلة ومسكنة ومهانة.. ويتبارى ترزية القوانين وترزية الإعلام وترزية الدين أيضا وغيرهم من الشياطين المثقفين فى البحث عن حصانة تحميهم من المساءلة وتطلق لهم عنان إلباس الباطل ثوب الحق.. فالهجوم والنقد بحق لصحفى مارق معناه الهجوم على الصحافة كمهنة ورسالة.. ومؤاخذة قاض حاد عن الحق مساس بالقضاء.. وهكذا يريد أهل المهن بناء حصون وقلاع تحميهم من المساءلة والمؤاخذة وتجعلهم أعلى من باقى أفراد الشعب الذين أصبحوا وحدهم مستباحين لأنهم عامة وغوغاء ودهماء وليسوا أهل إعلام أو أهل قانون أو علماء دين.. وهكذا دخلنا نفقا مظلما من التفسيرات والتأويلات التى تجعل صاحب المهنة هو المهنة نفسها.. فعالم الدين هو الدين والصحفى هو الصحافة والقاضى هو القضاء والطبيب هو الطب والمحامى هو المحاماة.. وعلينا بعد هذا الخلط أن نخرس ونقطع ألسنتنا ولا نعلق على حكم قاض أو قرار مجلس نقابة مهنية ولم يعد المطلوب أن نواجه ديكتاتورية وزير أو مسئول كبير فقط بل علينا أن نواجه مئات الديكتاتوريات والإمبراطوريات التى يعد المساس بها خطرا داهما يكلفك حياتك أو حريتك.. فأنت محاط بديكتاتورية القاضى وديكتاتورية الصحفى

وديكتاتورية رجل الأعمال ومئات المستبدين والطغاة الذين تحولوا إلى عدة دول داخل الدولة الواحدة.

وعندما يشتد العراك والقتال حول طلب الحصانة والامتيازات فاعلم أن الفساد قد استشرى وأن هذا الإصرار على أن يكون أصحاب كل مهنة هم الجنس الآرى والذات المصونة التى لا تمس يعنى أنهم يريدون حماية فسادهم وانحرافهم وأنهم يستنكفون أن يكونوا مثل خلق الله العاديين ويريدون أن تكون لكل فئة محاكمها الخاصة التى تحاكمها فى السر بينما يحاكم أبناء الشعب من الدهماء والغوغاء فى ميدان عام وفى عز الظهر وتقطع رقابهم.. ليهتف المتفرجون فى الميدان العام: يحيا العدل.

ونحن لم نتفرق شيعا وأحزابا ومذاهب بسبب النص ولكن فرقنا التأويل والتفسير.. والتأويل دائما هو الابن الشرعى للهوى والمزاج بينما النص هو ابن القلب والعقل والتأويل الذى يسود وتكون له الغلبة هو تأويل الأقوياء والسادة والأثرياء.. فإذا قلنا إن الخصخصة ضد الدستور الذى يؤكد أننا بلد اشتراكى يهيمن عليه القطاع العام.. قال الترزية والشياطين والمثقفون إن الخصخصة تمت بقوانين مكملة للدستور.. فالدستور مقدس كنص وورق لكنه مستباح بالتطبيق والتأويل.. وإذا قلنا إنه لا يوجد أحد فوق الدستور والقانون قال الشياطين المثقفون إن هناك نصوصا فوق دستورية وإن الحصانة فوق القانون والبرلمان سيد قراره والصحافة سلطة رابعة ولا سلطان على الصحفى إلا ضميره.. وتفتش فى كل ركن عن هذا الضمير فلا تعثر له على أثر.. ودائما نتهم أمريكا بالكيل بمكيالين وازدواجية المعايير وهو اتهام صحيح ولكن علينا أولا أن نتهم أنفسنا بالكيل بمكيالين والانتقائية وازدواج المعايير فى أدائنا الداخلى فهناك دائما تأويلات عدة لنص واحد.. واختلاف التأويل هو السبب الرئيسى لسياسة المكيالين.

عندنا مكيال لذوى النفوذ والسادة ومكيال آخر للعامة والدهماء والسوقة والتفسير دائما جاهز لذلك تمر الصفقات المشبوهة وبيع الوطن بدم بارد ويزداد إحساسنا حتى يصل إلى حد اليقين بأن فى الحبس مظاليم فقط وأبرياء وأن الجناة والخونة طلقاء أحرار.. وعندما توقف تطبيق قرار مجلس الأمن الدولى رقم ٢٤٢ كان الخلاف على الألف واللام.. وهل المطلوب من إسرائيل الانسحاب من الأراضى أم من أراض احتلتها عام ١٩٦٧؟.. وهكذا لعب التأويل والتفسير لعبته لصالح إسرائيل فتعطل النص وبقيت الأرض تحت الاحتلال.. ويعتمد أهل التأويل على ما يقال إنه حديث شريف: وهو من تأول فأصاب فله أجران ومن تأول فأخطأ فله أجر.. ونسوا أن الخطأ فى التأويل يعنى الخطأ غير المقصود.. أما من تعمد التأويل الخاطئ لهوى فى نفسه ولخدمة السلطان وأهل الجاه فعليه وزران وليس له أى أجر.. وحتى هذا الحديث الشريف.. إن كان حديثا أولوه وفسروه على مزاجهم كما فسروا حديث الفئة الباغية.. ولم يعد يدهشنا أن يعاقب قاطع الطريق سارق الدجاجة أو يلاحق سارق النيل لص الغسيل.. والبركة فى الشياطين المثقفين.. أو نخبة الشياطين!!

أحياء فى القبور.. وأموات فى القصور!!

لا تصدق كل الأمطار المنهمرة عليك من إحصاءات واستطلاعات للرأي واستبيانات وأبحاث لأنها فى الغالب "شغل موظفين" وتسديد خانات واستيفاء أوراق "وسلق بيض" وكلها أحريت علي طريقة "مشي حالك".. وبنفس أسلوب المنجم الذي طلب منه الملك عد النجوم فنظر فى الفضاء ملياً ثم قال: إنها ألف نجم.. فقال الملك: إنك تكذب فرد المنجم: إذا لم تكن تصدقني فلتعدها يا مولاي.. وبنفس طريقة الباحث الذي قص جناح الذبابة.. وقال لها: طيري فطارت فكتب إن الذبابة تستطيع الطيران.. بجناح واحد.. ثم قص الجناح الآخر وقال لها طيري فلم تطر.. فكتب أن الذبابة عندما تفقد جناحيها الاثنين تصبح صماء.

ولا تصدق الأمطار المنهمرة عليك من التحليلات عبر الأرض والفضاء والصحف فالمحللون لايعرفون أكثر مما تعرف أنت والفرق بينك وبينهم أنهم امتلكوا مساحة علي الهواء أو علي الورق لم يمكنك أحد منها فصاروا متكلمين وأنت سامع وصاروا كتاباً وأنت قاريء.. وربما تعرف أنت أكثر لكنك مثل كل الناس فى أمتي يؤمنون بأن كل ما يقال عبر الفضاء أو الصحافة وحي يوحي لايأتيه الباطل من أي جهة.

إن الذين يحللون وينهالون عليك بالأرقام والاحصاءات والاستطلاعات والمعلومات مطمئنون إلي أنك لن تعد النجوم بعدهم ولن تراجع الأرقام التي ذكروها خاصة إذا قالوا إنها إحصاءات واستبيانات أجريت فى أمريكا أو أوروبا.. فأنت حينئذ لن تجرؤ علي تكذيب ما سمعت أو قرأت لأنك مثلي ومثل الجميع مريض بعقدة الخواجة حتي فى الأفكار والأبحاث التي يقال إنها علمية.

أما أنا فأحاول أن أعالج نفسي من العقدة بالشك والارتياب وإعادة النظر والتأمل وإقامة جدار عازل مثل جدار إسرائيل بين عقلي وما يلقي إلي من أفكار وآراء ومعلومات.. وعليك إذا أردت النجاة أن تحذو حذوي أو تصفني بأنني علي خطأ وستجدني إن شاء الله من المقتنعين ولا أعصي لك أمراً.

لدي شعور بأننا نحن المهمشين والفقراء وذوي الأيدي الممدودة لسؤال اللئيم مستهدفون حتي فى البحث الذي يقال إنه علمي وفى الاستطلاعات والإحصاءات والاستبيانات.. دائماً نحن مذنبون وملومون وعندنا كل الموبقات وفينا كل العبر..

واضرب لك الأمثال لعلك تتفكر وتتذكر.. فإذا سلقوا بحثاً عن العنف الأسري أو المجتمعي يقولون إن ضرب الأزواج للزوجات يتضاعف مائة مرة لدي الطبقات المتدنية اقتصادياً وسكان العشوائيات والمقابر.. وأن اثنين وعشرين فى المائة من الأسر تعولها امرأة وكلها فى العشوائيات والأحياء الشعبية والناس "البلدي".. وكلما هبطنا درجة فى السلم الموسيقي.. أقصد الاجتماعي والاقتصادي يزداد العنف وقلة الأدب ويزداد الانحراف الأخلاقي والفواحش وتتضاعف حالات الانتحار.

"وخذ عندك كمان" أن الزواج العرفى أو السري انتشر بين شبابنا كالنار فى الهشيم وأن معظم أو كل أطرافه منا نحن الفقراء والمهمشين وسكان المقابر والعشوائيات "أولاد الإيه".. يعني باختصار وبلا لف ولا دوران هناك منهج ومبدأ ثابت لدي أسيادنا الأثرياء وزبدة المجتمع وكريمة الوطن بتجريدنا من المال والجمال والأخلاق أيضاً ونتائج الأبحاث لا تكذب.. وإذا لم تكن تصدق فلتعد الغنم أو النجوم.. فنحن بالإضافة إلي فقرنا وتهميشنا وعذابنا الاقتصادي.. معدومو الضمير والأخلاق والإيمان.. نحن قتلة ومجرمون ولصوص وزناة.. نضرب زوجاتنا أو تضربنا زوجاتنا.. ونضرب أبناءنا أو يضربوننا هم.. لكن الأبحاث لم تذكر أداة الضرب ولم تقل إن أكثر الأدوات استخداماً فى الضرب هي "الجزمة" لأن الذين يجرون هذه الأبحاث يعلمون أن معظمنا حفاة.

لا أكاد أسمع أو أقرأ بحثاً عن ظواهر سلبية فى المجتمع إلا وأجد أنه يؤكد أن الظاهرة تتفاقم لدينا نحن الفقراء وسكان العشوائيات.. ولم أسمع أو أقرأ بحثاً حول الظواهر السلبية الخطيرة فى عالم الأسياد لا أقرأ أو أسمع بحثاً عن انتشار تبادل الزوجات وعن الخيانات الزوجية الفاجعة وعن أولاد الحرام الذين يصدرهم الأسياد إلي شوارعنا وعن إدمان البودرة والمخدرات الباهظة التكاليف وعن تقاليع الأفراح وحفلات الزفاف وأعياد ميلاد الكلاب والقطط وعن الشذوذ الجنسي الحريمي والرجالي وعن تعدد العشيقات للزوج وتعدد العشاق للزوجة بينما يلام الفقراء علي تعدد الزوجات وكثرة الإنجاب بالحلال.. لم تجرؤ الأبحاث علي القول إن حالات الطلاق قبل انقضاء السنة الأولي من الزواج تتضاعف عشرات المرات لدي الأسياد عنها بين الفقراء والمهمشين.. ولم تقل الأبحاث إن الخلع لدي الأسياد أضعافه لدينا نحن الفقراء وأنه صار وسيلة للمشي علي حل الشعر.

لم تقل الأبحاث إن زبائن العيادات النفسية من الأسياد أضعاف زبائنها منا نحن الفقراء.. بل إن الفقراء وأنا أولهم لا نعترف بما يسمي الطب النفسي ونري أنه نوع من الدجل الشرعي المعترف به رسمياً ونحن نؤمن بأن علاجنا النفسي فى المسجد أو الكنيسة وفى القرآن أو الإنجيل وفى الإيمان بقضائنا وقدرنا وفى الصبر علي ما نحن فيه من بلاء وفى الصمود والمقاومة.. نحن نؤمن بأن المريض النفسي هو

الذي أعرض عن ذكر الله وشغلته أمواله وأهله ونري أن القرآن شخص المرض النفسي فى آية جامعة مانعة أو هي عدة آيات فى سورة طه تقول: "فإما يأتينكم مني هدي فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقي ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمي" صدق الله العظيم.

وليس هناك مرض نفسي أشد وطأة من الضلال والشقاء وضنك المعيشة.. فهذا ما يسميه المدعو الطب النفسي الاكتئاب والإحباط والهلاوس والوساوس والسوداوية والقلق والتوتر.. وهذه كلها أمراض الأسياد وكريمة المجتمع.

الأسياد لا يكفيهم إفقارنا ووصفنا بمحدودي الدخل وغير القادرين.. بل يسخرون البحث العلمي المزعوم من أجل تجريدنا من قيمنا وأخلاقنا وتماسكنا الأسري.. وهز ثقتنا بأنفسنا.. فسكان العشوائيات والناس "البلدي" إرهابيون ومتطرفون ولصوص ومجرمون وأولاد حرام.. وإنني علي استعداد أن أقسم بأغلظ الأيمان أن الفقراء أكثر كرماً وأعظم أخلاقاً وقيماً.. ومن الغباء والحماقة أن ينظر أحدهم إلي سكني ومنطقتي التي أقيم فيها ثم يكتب فى بحثه بلا وعي إنني رجل بلا قيم ولا أخلاق وأن أسرتي مفككة وأن أبنائي إرهابيون.. وينسي ذلك الأحمق أن اتساع القلوب وسعة الأخلاق أفضل من اتساع المكان وأبهة أثاثه.. وأن سكان القبور يستقبلون فى قبورهم عشرات الضيوف من أبناء العم والخال.. وأن سكان القصور والفيلات يتخلصون من آبائهم وأمهاتهم ويلقون بهم فى دور المسنين بينما يخصصون غرفاً وحمامات فى قصورهم للكلاب والقطط.

إن القيم تتآكل والأخلاق تتراخي قبضتنا والضمائر تنام ويختلط الحابل بالنابل كلما ارتفعنا فى السلم الاقتصادي والاجتماعي.. وتتحول حالات الزواج والصداقة والحب والعلاقات الإنسانية إلي صفقات.. ولكنني مع كل هذا أفرمل نفسي حتي لا أسقط فى فخ التعميم والمطلق والقاعدة التي لا تقبل الاستثناء أو أبشر كل الفقراء بالجنة وكل الأغنياء بجهنم وبئس المصير فذلك من الحمق الذي أرفضه لغيري ولا ينبغي أن أقع فيه.. والتعميم فى هذه الحالة يوقعني فى تهمة الحقد الاجتماعي علي أساس انني فقير يحقد علي الأسياد.. إنني فقط أدعوك إلي الحذر حتي من سطوري هذه التي تقرأها.. أحذرك من إدمان الوجبات السريعة والجاهزة فى الأفكار والمعلومات والاستطلاعات.. فقد أفسدتنا هذه الوجبات وينبغي أن نعود إلي المطبخ.. نعود إلي عقولنا لنطهر أفكارنا بأيدينا.. ينبغي أن نشتري الأفكار والمعلومات والأرقام من السوق.. ونعيد نحن طبخها فى عقولنا وقلوبنا حتي تكون صحية ونستطعمها أكثر.. ولا تظن للحظة أن من يكتب أو يتحدث عبر الهواء يعلمك ما تجهل.. ولكن تعامل معه علي أنه يذكرك بما نسيت أو يحفزك علي رفض

ما يقول.. ولا تقبل شيئاً علي علاته من وزير أو مسئول أو مثقف أو فنان أو صحفي.

إن المحللين الذين يطلق لهم العنان علي الهواء الحديث عن قضايا الأمة لا يضيفون لمعلوماتك جديداً فهم يتكلمون بأجر.. وهناك من يتصل بهم علي الهواء ويتكلم أفضل وأصدق منهم مجاناً وبلا مقابل.. ورسائل الماجستير والدكتوراه المليئة بالبيانات والأرقام معظمها تم سلقه علي عجل والأسهل دائماً هو الحديث عن الفقراء وسلبياتهم وانهيارهم الاجتماعي لأن دم الفقراء والمهمشين وسكان العشوائيات مأمون الجانب.. بينما الحديث عن المصائب الاجتماعية والكوارث الأخلاقية لدي الأغنياء ورجال الأعمال الجدد محفوف بالمخاطر ومشي علي الأشواك.. ولأن الفقراء والمهمشين هم جل المجتمع وغالبيته فإن استهدافهم بهذه الصورة السيئة والظلمة هو استهداف للوطن كله بالباطل.. وليس صحيحاً علي الإطلاق أن الزواج العرفي شاع في المجتمع وأصبح "شوطة" بين شباب الجامعات والمدارس لأن الشباب والفتيات ليسوا في حاجة إلي زواج سري أو عرفي لإقامة علاقات فيما بينهم.. والشباب والفتيات علي قارعة الطريق.. و"ملطوعون" علي الكورنيش وفي الشوارع حتي منتصف الليل وأصبح الشاب متاحاً للفتاة والفتاة متاحة للشاب والأمر لايتكلف أكثر من "كوز درة" و"حاجة ساقعة".

والفقراء مطحونون برحي الحياة اليومية لذلك فإنهم أقل تسكعاً من الأغنياء والمستورين وأقل إقبالاً علي إقامة العلاقات فما بالنا بالزواج العرفي أو السري..؟

إن الربط بين المستوي الاقتصادي والوضع الاجتماعي أو الأخلاقي أو القيمي ربط تعسفي سخيف لا محل له من الإعراب.. وليس صحيحاً أبداً أن تدني المستوي الاقتصادي دليل علي الانهيار القيمي والأخلاقي وأن الغني والثراء دليل علي التحضر وارتفاع المستوي الثقافي والرقي القيمي والأخلاقي.. وأخشي أن أقول إن العكس هو الصحيح حتي لا أتهم بالتعميم الذي أرفضه.. لكني أحذرك من الانسياق وراء أبحاثهم وأرقامهم التي تتعمد سحق الفقراء والهتاف للأغنياء.. فقصورهم قد تكون أجمل وأحلي وأفخم من قبورنا لكن العبرة عندي بسكان قصورهم وسكان قبورنا.

فياما في القصور أموات.. وفي القبور أحياء!!

"حالنا المايل"
بين موناليزا وكوندوليزا!!

من أراد أن يكتب للناس ما لا يعرفون فليتوقف لأنهم يعرفون أكثر منه.. والحصيف من يكتب ليشارك الناس ما يعرفون ويشد على أيديهم ويواسيهم ويشاطرهم الأحزان والأفراح إن كانت هناك أفراح.. فالناس يحبون من يشاطرهم الأحزان أكثر ممن يشاركهم المسرات.. ونحن نحفظ عن ظهر قلب كلمات وعبارات المواساة والمشاطرة عندما نفقد عزيزا لدينا.. ومع ذلك نطلبها وننتظرها ونلوم من لا يقولها.. لا نريد كلمات مواساة جديدة لا يعرفها أحد.. ونفرح أو نسعد أو نرتاح لكلمات معادة ومكررة.. وهكذا الكتابة للناس.. مجرد دعوة للصبر والسلوان ودعوات بالرحمة والمغفرة.. الكتاب يقيمون سرادقات تعاز على الصفحات لمواساة الناس.. وهذا يكفى وسعيهم مشكور.

وأحياناً أشعر بأن الكتابة عن الوضع العربى والقمم والرمم هى موضوع من لا موضوع لديه وأنها دليل إفلاس وأن الكاتب يريد فقط ألا يخلف موعده مع القارىء ويشعر بأن الموعد أزف فيرتدى ملابسه بالمقلوب وينتعل شبشبا ويجرى إلى الموعد غير مهندم ولا جاهز.. وأن القارىء سيلقى بكلامه جانبا من أول سطر لأنه لن يقول جديداً.. لكنى أعود وأتساءل: وما الجديد الذى نكتبه فى كل سطورنا؟ نعم لا جديد ولا مردود.. فلنتفق إذن على أنها مجرد مشاطرات فى الأحزان ومواساة معادة ومكررة.. لكنها مطلوبة ومريحة للكاتب والقارىء اللذين فقدا عزيزا لديهما هو النظام العربى أو التضامن العربى أو أى اسم يعجبك لكتابته فى شهادة الوفاة.. النظام العربى "تعيش أنت".. لكن المشكلة أن الجثة لم يتم العثور عليها حتى الآن.. والزوجة تريد أن تتزوج والورثة يريدون توزيع التركة.. تماما مثل ضحايا العبَّارة.. غرق النظام العربى فى العراق واحترق فى فلسطين.. وضربه زلزال فى المشرق وبركان فى المغرب.. ومفقود الكارثة ينبغى أن تستخرج له شهادة وفاة بلا جثة وبسرعة.. حتى تتزوج الأرملة وترث الثكلى.. وهكذا اهتدت الانظمة العربية الى عقد قمم تكون بمثابة شهادة وفاة للنظام العربى الراحل.. أو هى سرادقات عزاء يستوى أن تقام فى عمر مكرم أو عمر أفندى أو الخرطوم أو مقر الجامعة العربية الملاصقة لعمر مكرم.

والإقرار أو الإنكار فى حادث وفاة النظام العربى لا يقدمان ولا يؤخران.. فالموت وقع وغياب الجثة لا ينفيه.. وكلمات التأبين فى القمم العربية.. وعبارات المكابرة والعناد.. حول التنسيق والتشاور ودعم العمل العربى المشترك والمساعى والجهود الجبارة لحل

زمات وعلاج الأورام الخبيثة فى الجسد العربى لا تقنع أحداً بأن النظام العربى حى
زق.. ربما يقتنع البعض فقط بأنه حى ولكنه لا يرزق.. أى أنه حى ميت وتلك حالة
سوأ من الموت.

القمم العربية الآن تعقد تحت الاحتلال.. وعندما قلت ذلك لصديقى استنكر قولى
أكد أننا دولة مستقلة ذات سيادة.. فقلت: إن اسلوب الاحتلال هو الذى تغير فقط..
فقال: كيف؟ فقلت: تغيير بسيط جدا لكنه جوهرى.. وهو أن المندوب السامى اصبح
عربيا.. لنبدو فى الظاهر مستقلين بنظام حكم عربى وعلم ونشيد وطنى.. "وشوية
كلام" من الذى يعجب الجماهير.. وفى الباطن نحن مسلوبو الإرادة والقرار ونكتب
ونقول ما يملى علينا.. وهذا يضمن ألا يطالب أحد بالاستقلال التام أو الموت الزؤام..
وذلك هو حال الميت الحى.. فلا هو ميت فنكرمه بالدفن ونتقبل فيه التعازى ولا هو حى
يراودنا أمل فى شفائه.. فهو ميت بلا جثة.. وحى بلا روح.

وسيان أن تضحك أو تبكى وأنت تسمع أو تقرأ بعد كل قمة عربية أنها نجحت.. إنه
قول يعيدك مرة أخرى إلى حالة الميت الحى.. فنجاح أى قمة أفضل منه الرسوب.. لأن
الراسب يعيد السنة ولكن الناجح "على الحركرك" معلق بين السماء والأرض.. فلا يوجد
معهد أو كلية له - ولا يمكنه أن يعيد السنة.. فهو أيضا ميت حى.

⁂

عندما كان الاحتلال صريحاً كانت للعرب قضية.. فالاستعمار صريح والمقاومة
صريحة والناس ملتفون حول قضية ومشروع قومى.. وفى ظل الاحتلال الصريح
والسافر.. أنشأ العرب الجامعة العربية.. وخاضوا حرب فلسطين عام ١٩٤٨. وأبرموا
معاهدة الدفاع العربى المشترك.. وبعد الاستقلال الكاذب تحولت الجامعة إلى نصب
تذكارى للعربى المجهول.. وأكلت "العتة" معاهدة الدفاع المشترك وقرر الاستعمار تغيير
أسلوبه بأن يحتل الإنسان ولا يحتل الأرض.. يحتل العقول ولا يقتحم الحدود.. وعندما
تخضع القلوب والعقول والرءوس يسهل الغزو العسكرى بلا مقاومة ويساهم العرب
أنفسهم فى تبريره على أنه تحرير ونشر للديمقراطية وحماية لحقوق الإنسان.. وكان
صدام حسين هو الثور الأبيض الذى أدى التهامه إلى خوف ورعب كل الثيران على كل
الألوان.

الآن.. كف العرب حتى عن الإدانة والشجب والاستنكار.. وصارت مهمتهم التعايش مع
واقع لم يصنعوه وأوضاع لم يخلقوها.. فهم يريدون استمرار العملية السياسية فى
العراق ويدينون إرهاب المقاومة العراقية ويطالبون ببقاء القوات الأجنبية حماية للشعب
العراقى - ويؤيدون ضمنا أو صراحة تدويل أزمة دارفور ويتمنون مجرد أمنيات طيبة
بالستر والصحة والعافية لسوريا ولبنان.. ويعدون بمساعدات لا اسم لها ولا رسم

للشعب الفلسطينى ويتمنون أن تنضم حكومة حماس إلى القطيع العربى اعترافا بالأمر
الواقع "على بوزه".

وبعد كل ذلك يقولون إن القمة فى الخرطوم أو فى أى مكان نجحت.. حيث اتفق
القادة على الحد الأدنى - ولا ندرى ما هو الحد الأدنى - لعلهم يقصدون الدونية
والتدنى - فالقمم العربية تعقد وتنفض ولا يشعر بها أحد.. وقد اعتبر العرب الاتفاق
على دورية القمة فتحا مبينا ونصرا عزيزا.. رغم أن عقد هذه القمم يؤدى إلى سقوط
ورقة التوت التى كانت تستر عورة النظام العربى ويكشف بجلاء عن هشاشة الأنظمة
العربية وفقرها الفكرى وفكرها "الفقرى".

⁂

وقد سألت صديقى يوما سؤالا يشبه الفزورة: ما هو وجه الشبه وما العلاقة بين
موناليزا وكوندوليزا؟ فقال: "غلب حمارى".. فقلت: لوحة موناليزا أو جيوكاندا
لليوناردو دافينشى».

يقال إنه إذا وقف أمامها مائة شخص يشعر كل منهم بأنها تنظر إليه وحده وتبتسم له
وحده دون الآخرين.. وهذا هو حال كوندوليزارايس وزيرة خارجية أمريكا.. كل مسئول
عربى يجلس معها يظن أنها تؤثره وحده وتقع فى غرامه وحده.. وتضحك له وحده..
وفى قصص الحب الفاشلة.. لا ألوم الخادع ولكنى ألوم المخدوع.. وفى حوادث النصب
لا ألوم النصاب ولكنى ألوم الطماع المنصوب عليه.. والذين يكيلون السباب والشتائم
لأمريكا وبوش ورايس وبريطانيا وبلير واسرائيل وشارون وأولمرت يتناسون أن اللوم على
المال السائب والحارس النائم أو الخائن والمندوب السامى الذى أصبح عربياً.

العرب من خلال أنظمتهم يتنافسون على حجر وأحضان أمريكا.. بل وإسرائيل
أيضا.. ويسعون إلى إقناع شعوبهم بأن الرضوخ قضاء وقدر.. وبلغ الأمر حد اقناعنا
بأن صورتنا سيئة لدى الغرب وأن عبء تحسينها فى عيون "حبايبنا" يقع علينا.. أقنعونا
بأن الغرب هو التقدم والتحضر وأن علينا أن نتطور لنلحق بركب الغرب.. فالمندوب
السامى العربى لا يدعونا إلى مقاومة الاحتلال بل يزينه فى عيوننا ويجمله لنا..
المندوب السامى العربى موظف علاقات عامة فى مؤسسة الاحتلال وليس موظفاً عندنا
نحن الشعوب - وشرعيته "وأكل عيشه" وبقاؤه فى وظيفته مرهون بأدائه وتفانيه فى
خدمة مؤسسة الاحتلال لا خدمة الشعوب التى تستحق تماما ما يحاك ضدها لأنها
حية ميتة مثل النظام العربى تماما.. فالمندوب السامى العربى أو "أبوالغربى" هائم بعشق
موناليزا وكوندوليزا.. لذلك فإن حالنا مائل مثل برج بيزا.. فالحال العربى المائل هو
العجيبة الثامنة المضافة إلى عجائب الدنيا السبع.

⁂

أكثر الناس بلاهة وغفلة يعرف أن العرب الآن بلا إرادة ولا قرار ولا استقلال.. ولسنا ندرى كيف تريد الأنظمة العربية خداعنا بقولها ليل نهار إن إرادتها حرة وقرارها وطنى وقومى خالص "مالص".. "طب بأمارة إيه"؟.. بأمارة الشعب الفلسطينى الذى يراد ذبحه وخنقه بأيد عربية؟ بأمارة العراق الذى يراد للسفراء العرب أن يذهبوا إليه أفواجاً ليعطوا شرعية عربية للاحتلال؟ بأمارة السودان الذى يراد بلقنته وصوملته بآليات عربية؟ بأمارة أن كل نظام عربى يخشى البوح للنظام العربى الآخر خوفا من أن يكون من يبوح له.. "عصفورة أمريكا"؟ بأمارة أن العربى يخاف الأجنبى مرة ويخاف العربى مائة مرة؟

بأمارة أن أى نظام عربى أسد على شعبه ونعامة فى مواجهة عيون موناليزا وكوندوليزا؟

قبل أيام قلت لكم: لا فرق بين أن تعقد قمة عربية أو لا تعقد ولا فرق بين أن تكون هناك حكومة أو تسير الأمور بلا حكومة.. واليوم وبعد قمة الخرطوم اسمحوا لى أن اسحب كلامى وأعترف بغلطتى.. وأقول إن عدم عقد القمة خير من عقدها.. وأن صمت أى نظام أو مسئول عربى خير من كلامه.. وأن تنكيس الرءوس خجلا وذلا خير من العزة بالإثم والزهو بالخنوع والتباهى بالاستسلام والافتخار بالهوان - وليتنا "نفضها سيرة" "وكل واحد يروح لحاله" ونغسل أيدينا وأفواهنا من حكايات التضامن والعمل المشترك والتشاور المستمر وبحث المستجدات على الساحة الإقليمية.. فلا توجد مستجدات نصنعها نحن.. وإنما يصنع الآخرون المستجدات ونكتفى نحن ببحثها وإدراجها على جدول الاعمال وجدول الضرب وجدول الحصص مجرد بند.. وكلما التهم الأسد الغربى ثورا عربيا بأى لون.. نجعله بندا فى سرادق عزاء القمة.. فنحن لم نعد قادرين حتى على أن نصنع مشاكلنا فكيف لنا أن نضع حلولها؟ وهكذا يهرول النظام العربى سبعة أشواط بين موناليزا وكوندوليزا وبرج بيزا ويرتمى فى أحضان الغرب بكل هيام ولا يستمع إلى لوم اللائم وصراخ الصارخ الذى يناديه: "اتحشم يا اهبل يا أبوريالة.. فى الزربية يا شايب؟"

لقد أصبح الوضع العربى نكتة "بايخة" لا تثير أى انفعالات - يسمعها المرء بنصف أذن فلا يضحك ولا يبكى.. ونحن نضع أيدينا على قلوبنا عندما تكف الشعوب عن الضحك وتفقد خفة الدم - ولكن قلوبنا تتوقف رعبا اذا فقدت الشعوب القدرة على البكاء.. ودمر الوباء جينات الحزن والشعور بالهم والغضب لديها.. وأمتنا العربية الآن لم تعد تبكى ولا تحزن ولا تغضب وتلك بداية النهاية ومرصد الكارثة.. وستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى وأمركم إلى الله.

الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف!!

لا أطلب منك أن توافقنى على ما أقول ولكنى أرجوك أن تتعلم كيف تختلف معى.. فلو تعلمنا كيف نختلف لبلغنا ذروة التحضر والتدين أيضا.. ولو اتفقت الأذواق لبارت الأسواق فالاتفاق التام موت زؤام.. والأموات فقط هم الذين لا يختلفون.. فلا معنى لأن تطلب من الناس أن يوافقوك وأن يسمعوا ويطيعوا.. ولكن الأوفق أن تعلمهم كيف يختلفون معك وأن تتعلم أنت كيف تختلف معهم.

وأزمتنا الكبرى أننا نختلف ولكننا لا نعرف كيف نختلف لذلك صرنا فى حلبة مصارعة الثيران.. ودائما يسكت بيننا الكلام لتتكلم البندقية أو المطواة أو يتولى البلطجية حسم القضية.. والزحام الشديد فى أقسام الشرطة وفى ساحات المحاكم يؤكد أننا جميعا لا نعرف كيف نختلف.. فأنا مشغول ومهموم بإثبات فساد رأيك وحماقتك وغبائك أكثر من انشغالى بإثبات صدق رأيى وصواب فكرتى، أنا معنى بأن أهزمك لا بأن أقنعك.. وأنت بالطبع ترد لى الصاع صاعين وتعاملنى بالمثل.. ولا أحد منا يسمع الآخر جيدا.. ونحن لا نعانى أزمة متكلمين وكتاب ولكننا نعانى أزمة سامعين وقراء.. وتسفيه رأيك وعقلك مقدم عندى على إثبات صحة رأيى وسلامة عقلى.

وتلك الآفة والنكبة أصابت النخبة أكثر مما أصابت العامة.. لأن فى النخبة عندنا أنصاف أو أشباه متعلمين ومثقفين.. ونصف المتعلم ونصف المثقف يكمل النصف الآخر بالغرور والتعالى والتشادق و"الغلوشة" والعزة بالإثم.. أما الجاهل الذى لم ينل من التعليم حظا فهو أكثر مرونة وليونة لأنه يسمعك أكثر ويعترف لك بأنك أكثر حظا فى التعليم والثقافة وسرعان ما يقتنع برأيك لأنه مؤمن بك أو مخدوع فيك.. ونادرا مانسمع عن بلطجة أو صراع فى نقابة الزبالين أو نقابة "السواقين" أو نقابة "الحمارين" بينما نرى الصراع والدماء والفجور فى الخصومة فى الأحزاب السياسية ونقابات المحامين والمهندسين والصحفيين وكل الجهات التى تضم بين جدرانها من نسميهم زورا وبهتانا النخبة أو الصفوة والقدوة.

والأدهى أن هؤلاء الذين نصفهم كذبا بالنخبة لا يشبعون مطالب.. وهم دائما لا يملون المطالبة بامتيازات وحقوق ولا يكفون عن الدعوة لإطلاق أيديهم وتمكينهم من السلطة.. بل إن الأحزاب التى تسمى نفسها معارضة تطالب ليل نهار بتداول

السلطة فى البلد كله.. بينما لا تسمح بتداول السلطة داخل جدرانها.. إنهم يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم.. إنهم لا يستحيون ولا يخجلون.. بل يريدون من عامة الناس أن يكونوا وقودا لمعركتهم مع السلطة.. فيقول أحدهم إن الشعب كله ينبغى أن يطالب ويثور وينتفض من أجل استقلال السلطة القضائية.. ويقول آخر إن الشعب كله ينبغى أن يناضل من أجل إلغاء الحبس فى جرائم النشر.. إن كل هؤلاء وغيرهم يريدون أن يكون كل منهم دولة داخل الدولة.. إنهم يريدون توزيع كعكة الديكتاتورية عليهم.. وبدلا من أن يستأثر الحكم والسلطة والدولة وحدها بكل كعكة الديكتاتورية.. ينبغى أن يتم توزيع الكعكة.. فتكون هناك ديكتاتورية الصحافة وديكتاتورية اتحاد الكتاب وديكتاتوريات المحامين والأطباء والمهندسين.. ولا عزاء لعامة الشعب فهؤلاء أيضا من ضمن التركة التى ينبغى توزيعها بالتساوى بين سلطة الدولة وسلطات النقابات والاتحادات والأندية.

***

وأهل النخبة والصفوة فى بلدنا صناع أزمات فقط ولكنهم ليسوا صناع حلول.. وكل نخبة ترى نفسها الأحق بالتدليل والرعاية والقيادة.. وأن على رأسها ريشة وتاجا.. وأنها إذا حصلت على المكاسب والغنائم فإن هذا سيكون فى صالح الشعب كله لأنها مبعوثة العناية الإلهية لإنقاذ هذا الشعب من الظلم والجور والعسف والخسف.

وأرى أن رسالتى فى الحياة والتى ينبغى أن يعرفها العامة قبل أن أموت هى أن أقول لهم إن سمكتنا فسدت من رأسها أى من نخبتنا وصفوتنا.. وأن عامة الناس وفقراءهم ودهماءهم مازالوا بخير لكن النخبة فسدت وشبعت فسادا وأن الظروف السوداء كتبت على بسطاء الناس والغوغاء والسوقة أن يحاربوا ويموتوا أو ينتصروا وأن يكتفى أهل النخبة بجمع الغنائم وإقامة احتفالات النصر وإلقاء الخطب العصماء.

وهكذا فإن عامة الناس دائما يخوضون حروب السادة من أهل النخبة والقمة.. ويحاربون لهم معاركهم فى الأحزاب والنقابات والاتحادات والأندية.. فلا عجب أن يكون معظم المصابين فى معركة حزب الوفد مثلا من عمال البوفيه وحراس بوابة المقر والسعاة فهؤلاء بلا دية وبلا قيمة ولا مانع من أن يكسب نعمان جمعة أو محمود أباظة الحرب على جثثهم.

والمضحك فى الموضوع أن الصحفيين والمحامين وكل من شئت من النخبة يتهمون عامة الشعب باللامبالاة والسلبية.. ولو سمحوا لى بأن أصحح لهم المعلومات لقلت إنه اليأس والقنوط وليست السلبية ولا اللامبالاة.. الناس أصابهم اليأس من نخبة

المجتمع.. وأنا أشجعهم على هذا اليأس وأشد على أيديهم.. وأصرخ فيهم: كفوا عن أن تحاربوا معارك النخبة الفاسدة التى انكشف أمرها لكم.. فأنتم لستم فى رءوسهم وأمركم لا يعنيهم فهم يريدون منكم أن تحاربوا وهم يجمعون الغنائم والمكاسب والامتيازات.. وفى أزمة ومعركة الوفد تحالفت النخبة من عدة جهات ضد عامة الناس.. فقد أعمى كرسى الرئاسة قيادات الحزب وهم من النخبة السياسية.. وساهم الصحفيون بانقسامهم إلى فريقين وبالسماح للمتصارعين باستخدام أقلامهم ضد الحقيقة.

***

النخبة المزيفة فى مجتمعنا مشغولة بالمكاسب والمغانم.. والصراخ الذى تسمعونه فى الأرض والفضاء عبر الصحف ليس منطلقا من قيم ومبادئ يناضل هؤلاء من أجلها ولكنه مجرد ترويج لبضاعة عسى أن تشتريها السلطة.. إنهم يصرخون بحثا عمن يشترى سكوتهم ويشترى ألسنتهم وأقلامهم.. كما أن هؤلاء يعلمون أن الزمن هو زمن الأعلى صوتا والأكثر عنفا والأطول لسانا والأسوأ خلقا وأدبا.. ولا أحد يلتفت إلى الأهدأ والأكثر موضوعية والذى يبغى فيما يقول ويفعل وجه الله.

فلا تبحث أيها المنتمى إلى عامة الناس مثلى عن اختلاف رأى فيما تسمع وترى وتقرأ بل فتش عن اختلاف المصالح والصراع على الأسلاب والغنائم.. كلهم يريدون سيوفا يضربون بها رقبتك فلا تأمن على نفسك وسط نخبة الغوغاء.. ولا تصدق أن نجومية هؤلاء ومواقعهم أشبعتهم.. فهم لا يشبعون ولا تصدق الشعارات الجوفاء عن الأقلام الشريفة والمحاماة السامية ورسالة الطب الإنسانية.فكل هؤلاء المنتمين إلى النخبة يبيعونك بأبخس الأثمان.. هؤلاء لا يريدون ديمقراطية ولا حرية ولا حقوقا للإنسان وإنما هى شعارات حق يرفعونها ويبغون من ورائها مصالح ومكاسب وغنائم ومواقع وأرصدة فى البنوك.. فهؤلاء ليسوا أبناء الحرة التى تجوع ولا تأكل بثدييها ولكنهم على استعداد لأن يأكلوا بالثدى والقلم والسماعة والمشرط.. وهم لا يأكلون بالحق وإنما يأكلون بالباطل إلا قليلا.. يعينهم على ذلك مناخ ردئ برع فيه الجميع فى خلط الأوراق.. مناخ ملبد بالغيوم عمدا وقصدا يتم فيه تشجيع الغوغائية والتزييف والتزوير والفساد.. وليتك مثلى قريب من المطبخ لترى كيف أن الذين يدعونك إلى الفضيلة يمارسون الرذائل ويرتكبون الخطايا بلا حياء.. ليتك تقترب أكثر من غرف العمليات المظلمة والقذرة لترى أقنعة النضال والفضيلة والاستقامة والوطنية وقد سقطت لتجد نفسك وجها لوجه مع الوجوه القبيحة والقلوب السوداء والعقول الفارغة من أى مضمون.. ساعتها ستصاب مثلى بما يريحك.. وهو اليأس وستصرخ كما صرخ النعمان بن المنذر فى الجاهلية يوما عندما رأى عربيا سمع كثيرا عن عظمته وبأسه وشهامته.. حيث قال عندما شاهده وجها لوجه: تسمع بالمعيدى خيراً من أن تراه.

وسأظل أقول لك بلا ملل إن من أفسد المجتمع كله هم بعض رجال الإعلام و بعض أهل القانون فهؤلاء هم الذين تحالفوا ضدك وهم الذين لوثوا السياسة عندما ركبوا سفينتها وتحولوا إلى رجال أحزاب أو نواب برلمان.. وزينوا للسلطة ومسئوليها سوء عملهم وفصلوا القوانين على مقاس الديكتاتورية والفساد وطبلوا وزمروا للسيئات والخطايا وقلبوا الحقائق رأسا على عقب.. وعندما لم يحصلوا على الثمن انقلب بعضهم على السلطة وصوروا أنفسهم معارضين يريدون الديمقراطية وحقوق الإنسان.. فهؤلاء يجيدون ركوب أى موجة و"نفسهم حلوة" لأنهم يأكلون بشهية على أى مائدة.

إن من أهم شروط الإصلاح والصلاح أن يفيق المخدوعون وأن يستيقظ العامة من السبات وأن يلقوا بهذه النخبة المزيفة فى القمامة وأن يكون عامة الشعب هم النخبة والصفوة لأن تاريخنا كله تقريبا فى هذه الأمة يعيد نفسه بذات السيناريو وهو أن العامة يثورون ويهبون وينتفضون فتسارع النخبة بركوب موجتهم وتجنى الثمار حدث هذا فى هبات وثورات المصريين ضد الحملة الفرنسية التى فجرها عامة الناس الذين سماهم الجبرتى السوقة والزعران والجرذان.. وفوجئنا بعلماء الأزهر ونقباء الأشراف وغير الأشراف يركبون الموجة وبعد ذلك يفاوضون نيابة عن الشعب ويحصلون من السارى عسكر نابليون على المكافآت والخلع التى تشترى ألسنتهم وتذهب دماء العامة والزعران والسوقة هدرا.. والسيناريو يتكرر الآن فى كل بلد عربى حيث التحالف الشيطانى بين ديكتاتورية السلطة وفساد النخبة وغياب الوعى وحالة الإغماء الطويلة لدى عامة الناس والزعران والجرذان.. وعندما يفيق العامة من الإغماءة "والتعسيلة" ستدرك أول ما تدرك أن نخبتها فسدت ولم تعد صالحة للاستهلاك ولا للقيادة.. وأن النخبة الحقيقية ينبغى أن تكون من العامة وأن الرهان على الأحزاب أو الصحافة أو الإعلام كله أو رجال القانون أجمعين رهان خاسر لأن هؤلاء جميعا مشغولون تماما بجمع الأسلاب والغنائم ولا يتحرك أحد لدفن جثث الضحايا.. وقد سمعت أن هناك حديثا شريفا يقول معناه.. أفرأيتم إذا أصبح المنكر معروفا والمعروف منكرا.. قالوا وإن هذا لكائن؟ قال والذى نفسى بيده وأشد من هذا سيكون.. أفرأيتم إذا شاع الأمر بالمنكر والنهى عن المعروف.. قالوا: وإن هذا لكائن؟ قال: والذى نفسى بيده وأشد من هذا سيكون.. وهذه هى نخبتنا تأمر بالمنكر وتنهى عن المعروف.. فأين المفر من الصراع على المقر؟

السماء غائمة والشمس مكسوفة!!

إذا قرأت يوما سطورا وحروفا لى ترقص على السلالم فاعلم هدانى وهداك الله أن ترقيصها تم بفعل فاعل ليس أنا.. فقد آليت على نفسى أن أكتب أو لا أكتب ولا شىء بين- بين.. أكتب ما أرى أنه حق.. فإذا تبين بعد حين أنه ليس حقا فإننى امتلك شجاعة الاعتذار العلنى والتصويب.. وإذا ظل ما أكتب حقا فإننى امتلك أيضا فضيلة دفع الثمن.. ولا وزن لرضا المخلوق إذا غضب الخالق.. ولا قيمة لغضب المخلوق إذا رضى الخالق.. وقد عاهدتك على أننى لست معنياً ولا أنت بمدح أو ذم أشخاص وإنما نحن جميعا معنيون برصد ظواهر.. نشكو إذا كانت سلبية ونشكر إذا كانت إيجابية.. ولن أقحمك أو أقحم نفسى فى قصائد هجاء أو مدح.. وخصومى الشخصيون أصارعهم فى الشارع لاعلى صفحات تملكها أنت وسلمتنى أمانتها.. وأحبائى الشخصيون أو من أسدوا إلىّ معروفا أدعوهم إلى العشاء فى بيتى أو على فنجان شاى فى المقهى ولا أقيم لهم حفلا فى مساحة يمتلكها أنت وسمحت لى مشكورا بأن اشغلها.. وأشغل معها بعض وقتك ووعيك.. وإنها لكلمة قلتها كثيرا وأقولها الآن.. تأسيا بالصوفى الكبير ذى النون المصرى الذى كان يقول دائما: إنها كلمتى أقولها وأمشى أو أقولها وأمضى.. فالله وحده يعلم إلى أين أمضى بعد أن أقولها.. فربما هى وزر وربما هى أجر.. فهى كلمة لى أو علىّ تكبنى على وجهى فى النار أو تأخذ بيدى إلى الجنة.

وإننى لأقف أمام الظواهر مثل موقفك بالضبط.. لا امتلك قرارا ولا جزما ولا حسما ولا قطعا وإنما اتساءل مثلك تماما واجتهد فى الاستنتاج والتخمين "وفتح المندل" بحثا عن الأسباب والدوافع والنتائج وفى ذهنى أننى قد أضل الطريق وأن مقدماتى ونتائجى قد تخيب ولا تصيب.. بل إننى أتوصل أحيانا إلى نتائج رهيبة وكارثية أدعو الله أن أكون مخطئا فيها وأن أكون مخطئا فى مذهبى خير من أن تكون الظواهر كارثية حقا وصدقا.

ومن تساؤلاتى البريئة جدا والحائرة للغاية: لماذا كل صراع وعراك وبهدلة فى مجتمعنا طرفاه أو على الأقل أحد طرفيه رجال القانون؟ "والمية تكدب الغطاس".. فتعالوا معى نلف البلد "كعب داير" ونرصد ونشاهد وبعد ذلك نضع الكلمة التى تعجبنا من ثلاث كلمات.. كل أو بعض أو معظم.. وربما نتفق فى نهاية "الكعب

الداير" على كلمة "كل".. وتوقفوا قليلا فى نادى الزمالك واذهبوا إلى مقر حزب الوفد.. واستعرضوا الأحزاب التى بها عراك على الرئاسة.. وخذوا لفة فى نقابة المحامين وما جاورها وأرصدوا سيول الأحكام القضائية المنهمرة.. حتى فى الحكومة وحزبها.. نجوم الخلاف والجدل وأبطال المشهد رجال قانون.

هل قرر التاريخ أن يعيد نفسه وتسترد كلية الحقوق نجوميتها القديمة عندما كانت تسمى كلية الوزراء والأكابر والنجوم؟ ربما.. ولكن نجومية اليوم على ما يبدو لها قواعد مختلفة ومعايير جديدة.. فقد كان نجوم الأمس يهزون الجدران والأركان بالحجة والبرهان والأحكام الخالدة والحيثيات التى كانت قطعا أدبية وفقهية رائعة.. أما اليوم فإن النجومية هى نجومية الذراع والباع والعصا والبندقية.. نجومية "دوخينى يا ليمونة".. البلطجة أصبحت لغتنا العامية الدارجة ومن ينبغى أن يتولوا ردعها ووقفها عند حدها صاروا طرفا فيها ويتحدثونها بطلاقة.

وقد سألت شاهدا من أهلها عن هذه الآفة وذلك الوباء فقال قولا بليغا أسوقه إليك ربما يضىء لى ولك المنطقة المظلمة من حديثنا فقد قال: إن من يعرف القانون والجريمة والعقاب لا يقدم طائعا مختارا على ارتكاب الفعل المجرم وإنما يقدم عليه مغصوبا أو مدفوعا أو مضطرا.. فيكون مثل الذى ينتحر.. يعلم أن الوسيلة التى ينتحر بها ستقتله.. لكنه يقدم عليها.. والناس جميعا سواء فى ذلك.. فهم يعرفون الجريمة وعقوبتها.. أما نحن رجال القانون فإننا نختلف عن عامة الناس أمثالكم.. فبالإضافة إلى أننا نعرف القانون والجريمة والعقوبة نعرف أيضا ثغرات القانون وهذه لا تعرفونها أنتم ومن يعرف ثغرات القانون ومسامه وشقوقه ومغاراته.. يقدم على جريمته باختيار حر.. وبجرأة أكبر فهو ليس مثل المنتحر ولكنه مثل من يلقى نفسه فى البحر ومعه قارب النجاة.. إنه يرتكب الفعل المجرم وهو يمتلك وسائل الحصول على البراءة أو الظرف المخفف.. كما يضمن خوف الآخرين منه فمن تعرض له بلسان أو قلم فإن مصيره البهدلة فى المحاكم والجرجرة فى أقسام الشرطة وأغلب أحكام البراءة التى يحصل عليها المتهمون ليست لأنهم لم يرتكبوا جرائمهم ولكن لأن دفاعهم برع فى المرور بهم سالمين من ثغرات ومسام وسراديب القانون.. والفرق بين رجل قانون عادى ورجل قانون بارع هو تفوق الأخير فى معرفة ثغرات القانون لا فى معرفة القانون نفسه ولو كان الأمر مقصوراً على معرفة القانون والجريمة والعقاب لأمكن لأى عابر سبيل فى الطريق أن يدافع عن المتهم.. لكن رجلى القانون الجالس والواقف يتباريان فى الثغرات أحدهما يفتحها والآخر يسدها أحدهما يحفرها والآخر يردمها إلى أن تنتهى المباراة.

وإذا كان رجلا القانون هما طرفى الصراع أو الخصومة فإنها "ليلة سوداء" مثل ليالينا التى نعيشها حاليا فى الرياضة والسياسية والاقتصاد والأحزاب والبرلمان والنقابات والأندية والأودية.. إنها فتنة قانونية أشد من أى فتنة بأى اسم آخر.. فقد تاه منا الحق وتهنا منه ولا يريد لنا المتصارعون أن نتفق على كلمة سواء فصار المناخ ملوثا وصارت كل الأجواء ملبدة بغيوم سوداء فى يوم شمسه مكسوفة.

وقد قال لى الشاهد من أهلها قولا عجبت له ونادرا ما أعجب أو اندهش فقد فاجأنى بقوله: أعلم منى مالم تحط به خبراً.. قلت: ماذا؟ قال: إن طبيعة عملى كرجل قانون تفرض على رغما عنى أن أكون ديكتاتورا.. فأنا أحب أن أتحدث ولا أطيق أن استمع.. وأحب أن أفرض حجتى وأن اتبع كل الوسائل والطرق المستقيمة وغير المستقيمة لإثباتها لأن فى صدق حجتى نجاة رقبة من حبل المشنقة أحيانا.. وفيها انقاذ روح أو حرية.. وفى سقوطها موت إنسان أو سجنه.. كما أن القانون علمنى الحسم والقول الفصل وتنحية المشاعر جانبا.. وكل هذا يجعل طبيعتى ضد الحوار والأخذ والرد والتسليم السهل والسريع بما يقول الطرف الآخر.. كما أننى تعملت الشك فى النوايا.. وتصيد الأخطاء.. والقدرة على تكبير الصغائر وتصغير الكبائر.. وهذا حال أى رجل قانون فى كل الدنيا.

وقال لى: انظر إلى البرامج الإعلامية التى تدير حوارا مع فقيه قانونى.. لن تخرج منها بشىء.. ستسمع كلاما كثيرا ومضامين قليلة جدا.. ستستمع كثيرا وتفهم قليلا.. لأنك ستجد تبريرا قانونيا لكل خطأ أو خطيئة ولا تملك إلا السمع والطاعة والتسليم.. لذلك أصبح هناك زواج كاثوليكى بين السياسة والقانون.. ويمكن للساسة أن يستغنوا عن كل الدنيا إلا رجال القانون.. لذلك فإن الساسة يستهينون بغضب أى فئة ولكنهم "لا يقدرون على زعل" رجال القانون.. والسلطة الحاكمة فى أى دولة لا تكف عن منافقة ومجاملة رجال القانون.. حتى أنها تردد قولا مملا هو: لا أحد فوق القانون رغم أننا نرى الآن الفلوس والنفوذ فوق القانون.. ونرى القانون مثل السطوح.. ونسمع "دبدبة وكركبة" فوق رءوسنا تكاد تسقط السقف علينا.. ومع ذلك يؤكد لنا من حولنا أنه لا يوجد أحد فوق السطوح.. ونصدقهم ونكذب عيوننا وآذاننا.

قلت للشاهد من أهلها: انهض يا صديقى من فوق كرسى الاعتراف ودعنى أجلس عليه قليلا لأقول لك: إن رجال القانون عكازة واحدة من عكازتين تتوكأ عليهما الديكتاتورية والاستبداد.. وأما العكازة الأخرى فهى أهل الإعلام فإذا كان رجل القانون لديه القدرة على تكبير الصغائر وتصغير الكبائر معا فإن رجل الإعلام لديه قدرة واحدة هى تكبير الصغائر فقط ومن ذلك التكبير يعيش ويقتات.. وإذا كان رجل القانون هو ترزى الديكتاتورية فإن رجل الإعلام هو

ـرراتى.. وأسوأ أنواع الديكتاتورية فى العالم هى الديكتاتورية بالقانون.. أو
ديكتاتورية المعتمدة على إعلام صارخ زاعق.. يبدو للدنيا حراً لكنه فى واقع الأمر
خدم الديكتاتورية بفوضويته.. وتهجمه غير المؤثر وغير الموضوعى.. والديكتاتورية
ى عصرنا لم تعد ديكتاتورية مباشرة معتمدة على الأحكام العرفية والتنكيل
لقمع والقتل وتكميم الأفواه وتكسير الأقلام ولكنها تنكل باسم القانون وتمارس
قمع تحت ستار إعلام نابح ناعق يصوب دائما إلى هدف وهمى ويعتمد على
صفية الحسابات انطلاقا من أن الشتام فى عرف الرأى العام هو البطل المغوار
النجم الأوحد.. وأن القلم الحر هو القلم الذى يسب ويلعن.. وأن أعذب القول
قذعه.. وأكثره هجاء وقدحا.. والسب الإعلامى المتواصل مثل الحقن المسكنة
الحبوب المنومة للشعوب.. والديكتاتورية العصرية تشجع السب والقذف الإعلامى
لا تعتد بالمداحين لأنها تحب أن تحكم شعوبا مخدرة ونائمة بحقن وحبوب السب
لإعلامى.. فالشتامون يؤدون خدمات للاستبداد والديكتاتورية أضعاف ما يؤديها
لمداحون وديكور السب والقذف الذى يزين منزل الديكتاتورية هو آخر صيحة فى
دنيا الديكور لأن ديكور المدح والتطبيل والتزمير صار موضة قديمة.

★★★

والمباراة تجرى بلا قواعد لذلك فهى بلا نهاية والكل فيها مغلوب.. لأن حكامها
هم رجال الإعلام ورجال القانون.. الذين سكروا بنشوة النجومية وبرعوا فى اللعب
بالثغرات والخروق والرقع فى ثوب القانون.. وقد قال لى ناقد رياضى أحترم قلمه:
ان أسوأ الحكام فى مباريات كرة القدم هم الذين يسرقون الكاميرا من اللاعبين
وتتردد اسماؤهم فى المباراة أضعاف أسماء اللاعبين بقراراتهم وكروتهم الملونة فهم
عشاق نجومية ولو فسدت المباراة كلها.. وأعظم الحكام هم الذين تبدأ المباراة
وتنتهى ولا تشعر بوجودهم ولا تسمع أسماءهم وهكذا فإننا نحن اللاعبين على كل
الساحات نلهث ونجرى.. ولا يشعر بنا أحد لأن النجومية لحكام مباراتنا من رجال
القانون والإعلام.. وليس من حقنا أن نعترض لأن الحكم سيد قراره ولأنه لا يمكن
أن يرجع فى كلامه.. فهو ديكتاتور ومستبد وعلينا أن نسمع ونطيع.. ولذلك تظل
الرؤية ضبابية والسماء غائمة والشمس مكسوفة.. والظلام سيد المشهد كله..
والساسة فى عالمنا العربى بالتحديد يخوفون شعوبهم بعصا اسمها رجال القانون
ومقرعة اسمها رجال الإعلام.. والمهم أن يبقى الديكور مبهرا وجميلا حتى إذا كان
البيت من الداخل "خرابة".. فلا أحد يرى فى الظلام والسماء الغائمة والشمس
المكسوفة!!

لا يلاقينى ولا يغربنى!!

خراب الانسان من الداخل هو الخراب المستعجل.. واذا عميت القلوب التى فى الصدور فلا علاج ولادواء.. وعندما قال القرآن الكريم: "فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور".. فان ذلك لايعنى العمى المجازى أو الافتراضى ولكنه العمى الحقيقى "الحيسى".. وتحدث القرآن عن الذين لهم عيون ولكن لايبُصرون بها ولهم آذان ولكن لايسمعون بها ولهم قلوب ولكن لايفقهون بها.. وورد العمى فى معظم آيات كتاب الله بمعنى عمى القلوب.. "افمن يعلم انما انزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى".. وقال: "هل يستوى الاعمى والبصير".. واعمى العين يقابله المبصر.. أما اعمى القلب فيقابله البصير.

ليست تلك خطبة منبرية ولادرس وعظ فلست اهلا لذلك واعرف قدر نفسى واسأل الله الرحمة ولكنى اردت أن اقول ان كل قوانين ومنظمات ووزارات وحكومات الدنيا لن تستطيع حماية البيئة من التلوث.. اذا تلوثت البيئة الداخلية للانسان.. اذا تحول قلبه الى سلة قمامة مليئة بنفايات الاحقاد والضغائن.. واذا صار عقله مستنقعا راكدا فيه كل حشرات العالم.. فالانسان هو الاناء الذى ينضح بما فيه على البيئة.. ينضح زهورا ورياحين وخيرا وبرا.. أو ينضح حقدا وغلا وانتقاما من المجتمع.. فنحن ننفث سمومنا فى البيئة من حولنا لان اعماقنا مسمومة.. نحن نلقى الاذى على قارعة الطريق لان اعماقنا مؤذية.. نحن لم نعد نضحك مع بعضنا وصرنا نضحك على بعضنا.. سعادتنا تبلغ حد النشوة اذا نصبنا فخا لامرئ ووقع فيه.. نحن نصدق وشايات الاشرار بسرعة البرق ونتريث ونتمهل طويلا جدا قبل ان نصدق نصائح الاخيار.

وكل الظواهر السيئة والسلبية التى تحيط بنا من الجهات الاربع مردها الى خراب اعماق الانسان.. وظلام القلوب وصدأ العقول واذا غضب الله على قوم ولى عليهم شرارهم وجعل اموالهم عند بخلائهم وجعل علاجهم عند شياطينهم وجعل سفهاءهم علماءهم.. ومن علامات خراب الانسان فى وجدانه واعماقه كثرة القوانين والقرارات.. فتلك الكثرة لاتدل على الانضباط والتحضر وانما تدل على الانفلات والتخلف.. والاسهال القانونى يدل على مرض فى بطن المشرع والعامة.. وكثرة القوانين والقرارات واللوائح تفقدها احترامها حيث لايكترث الناس بها.. وكلما احتاجت حركة الانسان فى الحياة الى مزيد من القوانين والقرارات دل ذلك على ان آلته الوجدانية والعقلية والقلبية قد تعطلت وخربت.. وانه لم يعد قادرا على معرفة الحق من الباطل والخير من الشر.. فالقوانين

القرارات تشبه الاعضاء الصناعية التى يتم زرعها وتركيبها للانسان كى تضبط حركته فى الحياة.. لكن هذه الحركة لاتنضبط بل ان المرء يستهين بالقوانين كلما كثرت ويعلم انها مجرد حبر على ورق ومنذ سنوات طويلة.. كانت هناك لافتة فى كل المواصلات العامة تقول: "الرجاء عدم التدخين تطبيقا للمادة ٢٧ من القانون ٢٧٣" ومع الوقت استخدم ركاب المواصلات العامة ظرفهم ومزقوا كلمة "عدم" من اللافتة فاصبحت : الرجاء.... التدخين والقانون لايعاقبك.. اذا وقفت على كورنيش النيل تتفرج على شخص يغالب الغرق حتى يغلبه الموت.. واذا كنت ممن خربت اعماقهم فان المشهد يضحكك وتجد فيه تسلية.. واذا كانت اعماقك مضيئة فقد تموت غما وكمدا وحزنا - وربما تلقى بنفسك فى النيل وانت لاتعرف العوم وقد تباينت الاعماق وانكشفت الخبايا من خلال التعليقات التى سمعتها حول الستة الذين غرقوا فى المجارى وهم يحاولون انقاذ أحدهم.. فهناك من قال انهم "صعايدة بلهاء" وراح يضحك كحمار ناهق وغراب ناعق.. وهناك من رأى فيهم ابطالا شهداء.. وانهم اخر ستة محترمين فى المجتمع كله.. ورأيت فى الحادث الاليم تأكيدا لمذهبى بأن النخبة والصفوة والعظماء فى مجتمعنا هم الفقراء والمعدمون والسوقة لا السادة المثقفين او السادة الاغنياء.

واذا اردت علامة اخرى على خراب الانسان من الداخل غير كثرة القوانين والقرارات فإنى أحيلك الى المرض والطب.. وقاك الله ووقانى شر المرض فى هذا الزمان فإنه ذل وهوان وانه انصع الادلة على خراب الانسان.. فالانسان الذى مازال قلبه حيا يهتز بعنف ويزلزله بشدة ان يرى مريضا يتلوى ويتألم لكنك اذا دخلت مستشفى ولو كان خمسة نجوم تشعر بأن على قلوب اقفالها وأن الاطباء وهيئة التمريض يتعاملون مع المريض كفريسة سقطت فى براثن وحش كاسر.. فما بالك بالمستشفيات العامة حيث الداخل مفقود والخارج مولود؟

وقد ساقتنى صدفة يوما الى القومسيون الطبى حيث يذهب الناس للحصول على قرارات علاج على نفقة الدولة فرأيت جيوش المرضى.. فمنهم من يمشى على اربع ومنهم من يمشى على بطنه لانه لابد ان يأتى بنفسه للكشف عليه وفى النهاية يحصل على القرار او لايحصل عليه.. منتهى الذل والهوان والمعاملة السيئة.. والمريض واهله ينافقون ويجاملون ويكادون يلعقون الاحذية ومركز الدائرة طبيب احمق تحجرت عيناه وتيبس قلبه ولديه مايشبه اليقين بأن أرواح كل الناس بين اطراف اصابعه او فى سن قلمه او نعل حذائه.

والاطباء يسمون المرضى الزبائن وكأنهم حلاقون أو بقالون.. ومن أكبر الادلة على خراب الاعماق ان الطب اصبح بالواسطة فانت محتاج الى وسيط صديق للطبيب ليحدد لك موعدا قريبا او يوصيه بأن يهتم بك.. ومن اساليب الدعاية الرخيصة وغير الانسانية لدى الطبيب ان يغالى فى أسعار الكشف وان يضرب لك موعدا بعد شهرين أو ثلاثة ليبدو على

غير الحقيقة انه مزدحم وتبتلع انت الطعم وتخرج من عنده لتفاخر وتباهى بأنك كشفت عند طبيب يتقاضى مائتى جنيه غير التحاليل وحدد لك موعدا بعد ستة شهور.

ومن اساليب الدعاية التى يستخدمها الطبيب ليثبت انه كبير وشهير الا تجد على وجهه اى تعبير وان يبدو كلوح ثلج فى مواجهة المريض وان يسخر ويستهين بأسئلة المريض وأهله وان يتثاوب عليك مساعدوه حتى تصل اليه هو فى اخر مرحلة لينظر فى أوراق دون ان يكلمك ويكتب دواء بلا كلمة أيضا.. ويكفيك شرفا ان رأيته فى نهاية المطاف.. وشاهدت طلعته البهية.. وهو اسلوب قديم اخذه الاطباء عن الدجالين والمشعوذين الذين يتثاوب مساعدوهم على الضحية حتى تسقط متهالكة بين مخالب الدجال الكبير.. فالطبيب الكبير مثل الدجال يريد ان تصل اليه "دائخا" مستسلما مبهورا.. وتتلقى اوامره وتعليماته بلا مقاومة ولامناقشة حتى ولو كان فيها موتك وخراب دارك.. فالمرضى لايموتون فقط فى الزمان الاغبر وانما هو موت وخراب ديار.. والطبيب ليس لديه وقت للمشاعر الانسانية النبيلة التى يكون المريض فى أمس الحاجة اليها.. وفى هذا الزمان.. انت لاتجد لدى الطبيب الرعاية ولا العلاج.. ونقول دائما فى امثالنا: لاقينى ولاتغدينى.. وأنا كمريض احتاج الى رعاية الطبيب اكثر من دوائه.. ولكنى لا اجد ايا منهما.. فهو لايلاقينى ولايغدينى.

***

واكبر شهادة فشل للطب عندنا تزايد السفر للعلاج فى الخارج.. وليته علاج فى الخارج على نفقة المريض الميسور ولكنه علاج خارجى على نفقة الدولة.. والمدهش ان الميسورين فقط هم الذين تعالجهم الدولة على نفقتها فى الخارج.. وهو امر غير دستورى بالتأكيد ولو اقام الفقراء دعاوى بعدم دستورية العلاج فى الخارج لفئات معينة من الناس لكسبوها.. لان خرق مبدأ المساواة بين ولاشبهة فيه.. كما ان تزايد حالات العلاج فى الخارج على نفقة الدولة ينبغى ان يستفز الاطباء عندنا لانه اهانة لهم ودليل على ان الدولة نفسها لاتثق بهم.. ويبدو ان شيوع هذه الظاهرة يعد اعترافا رسميا بتدنى مستوى الطب والتمريض والرعاية عندنا.

والطب عندنا يتراجع لانه فقد البعد الانسانى وهو أعظم مافيه.. واذا ضاعت الناحية الانسانية فلا جدوى من احدث الأجهزة واعظم الابحاث والنظريات.. وقد صار كثير من الاطباء تجار أرواح وسماسرة مرض.. وصارت الفلوس همهم الاول ولو باع المريض الفقير ابناءه او اعضاءه او لحمه ودمه.. والطبيب لاتزعجه ولاتؤرقه الحالة المرضية التى جاءت الى عيادته.. وكل مايعنيه هو جيب المريض لاقلبه ولا ادميته.. وكنا نسمع عن اطباء زمان لايرتاحون ولاينامون حتى يجدوا حلا لمشكلة مرضية.. ولم يعد الطبيب يقول ان هذا المرض او ذاك ليس تخصصه ويحيله الى طبيب مختص فالطبيب المتخصص فى العظام

ج الاعصاب وطبيب النساء يقبل حالات انف واذن والمهم ان يسقط المريض بين
لبه.

لمسألة لاتخص الطب وحده لكنها "شوطة" عامة.. وكل المهن صارت منزوعة الانسانية
ارت اكل عيش لذلك اختفى الابداع لاختفاء الهوية والنزعة الانسانية وموت القلوب
مى البصائر.. واصبح اصحاب المهن مثل الطب والمحاماة والصحافة وغيرها يعملون
حب ولاوعى ولا انسانية وصار "نفسهم وحش" كما نقول فى امثالنا عن النساء اللائى
ستطعم اكلهن "هذه المرأة نفسها فى الطبيخ وحش".. والنفس يعنى المزاج والرغبة..
رأة لديها كل الامكانات التى تجعلها تصنع اصنافا متعددة من الطعام الشهى ولكن اكلها
طلع زى السم" لانها تطهو بقرف وتصنع الطعام بنكد وغضب وغل وتكره زوجها
ضيوفها.. وينضح قلبها الاسود وطبعها السيىء على الطعام فيخرج كأنه علقم.. وفى
قابل هناك امرأة فقيرة بلا امكانات لكنها فى غاية الود والكرم.. وهذه تصنع من الفسيخ
شربات بطبعها الرقيق وحبها واحساسها المرهف.. وهذا مانسميه "البركة".. فالقليل
صبح كثيرا بالبركة.. والطعام يصبح شهيا بالبركة.. والبركة ليست كلمة بلامعنى.. وانما
ى نضح القلوب الجميلة وافراز الوجدان المضىء وقلة البركة تنجم عن عمى القلوب
ظلام الوجدان.. لذلك ترى اغنياء لديهم الملايين لكنهم فى هم وغم ونكد وترى اصحاب
مهن بلغوا القمة فى المال والشهرة والذيوع .. ولكنهم غير راضين ولايكفون عن الشكوى
التبرم والسخط.

***

لاتظنوا ان هذا كلام نظرى لاأساس له فى الواقع كما قال يوما وزير اوقاف سابق حين
سمع الآية التى تقول: "ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات.." الى آخر
الآية.. فقد بدا الوزير ممتعضا وهو يقول هذا كلام نظرى.. فالقلب عندما يضئ ويتألق
يمكنه الافتاء.. "استفت قلبك" وساعتها سيكون اصدق مئات المرات من جيش المفتين
والدعاة الجدد الذين احتلوا الارض والفضاء عدوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

ونحن الفقراء لانتبرم بفقرنا ولانضيق به ولكننا نحزن ونتألم لاننا لانلقى معاملة كريمة
ولانجد قلوبا وعقولا مضيئة وكأننا نتلقى العقاب على فقرنا وعوزنا ونحن لانريد المساواة
فى المال ولكننا نريد المساواة فى الانسانية.. نريد احترام حياتنا وموتنا ومرضنا
وقضايانا.. اننا نحزن لان القلوب والبصائر العمياء تزن الناس بما معهم من مال ونفوذ
وموقع ومقعد.. ولاتزنهم بما لديهم من كفاءة وعطاء وعقول وقلوب.. ان الفقراء لايريدون
من الاغنياء والنخبة المزيفة والسلطة ان يغدوهم.. ولكن يريدون منهم ان يلاقوهم باحترام
لا باحتقار وازدراء ومشكلتنا نحن العامة والفقراء اننا لانجد من يلاقينا ولا من يغدينا ..
فنحن جوعى بطون وجوعى حنان وحب واحترام.. وويل لامرىء يعيش بين جوعين!!

اعصرى مخك يا زينب!!

يا أصدقائى فى كل الدنيا لا تحايدوا فالحياد نفاق.. والشيطان محايد ومنافق.. والمحايدون مذبذبون.. لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء.. تعرفهم فى لحن القول وميوعته ورمادية الفعل وسيولته.. وأن يقولوا تسمع لقوهم كأنهم خشب مسندة.. هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله فأنى يؤفكون.. ولو حايد القراء لجف مداد أقلام الكتاب وأصابهم اليأس والإحساس بأنهم يؤذنون فى مالطا.. وإنى لأنحنى إكباراً لصديق تجشم معاناة الكتابة والنزول من بيته ليلقى بخطاب فى صندوق البريد بعث به إلى كاتب ليشكره ويشيد به أو ليلعنه وينتقده.. فى الحالتين هو ليس محايداً.. فى الحالتين هو صاحب موقف أبيض أو أسود.. فى الحالتين غادر المنطقة الرمادية أو منطقة شبه الظل إلى منطقة صريحة الضوء أو صريحة الظلام.. هؤلاء الأصدقاء خير ممن يكتبون رسائل مطبوعة أو يرسلون عبر الإنترنت.. لأنى أشعر دوما بأن الحروف المطبوعة ميتة ومجرد جثة بلا حياة وأعشق الرسائل المليئة بالشطب والمحو والمكتوبة بتلقائية.. وأحس فيها أنفاس كاتبها.

وددت والله أن تكون لى صفحة كاملة لأكتب فيها أسماء الأصدقاء واحدا واحدا لأنى أحبهم وأدعو الله أن يجعلهم شهودى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة بأنى أكتب وأقول الحق وبأنى لست محايدا.. وأنا أيضا احبيك وأحبك يا صديقى السيد كمال الدين زوين يا مدير مدرسة قلين الثانوية واتعلم منك يا أخى محمد خليل جاد.. من دمياط وأدعوك إلى كتابة تجربتك مع الصحافة من خلال كتاب يا صديقى محمد عبدالفتاح الكاشف.. وأشكرك يا صديقى زكريا رمزى زكى يا صوت أساتذتنا المدرسين.

وأنا مع الرئيس الأمريكى بوش وأؤيده تماما فى قوله: من ليس معنا فهو ضدنا.. فالأمر لا يحتمل الحياد.. والمنكر لا يتغير بالحياد.. والحق لا يعرف الحياد.. ولا تصدق أن هناك حيادا ايجابيا وحيادا سلبيا.. فتلك أسماء ما أنزل الله بها من سلطان.. والحقيقة غابت وغربت من سماء حياتنا لكثرة المحايدين الذين يسعون إلى حل يرضى جميع الأطراف.. ولا وجود فى الدنيا لحل يرضى جميع الأطراف والبحث عن هذا النوع من الحلول هو بحث عن قطة سوداء لا وجود لها فى غرفة مظلمة والباحث عنها أعمى.. فهى ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها.. والسياسة أفسدها الحياد فصارت مرادفاً للنفاق.. وصرت أقول: لا حقيقة فى السياسة ولا سياسة فى الحقيقة.. والحياد حصن الضعفاء وملاذ الجبناء.. وهو ضد القطع والحسم.. والكافر خير لى من المنافق.. لأنه

صريح وواضح ييسر لى التعامل معه على أساس كفره.. أما المنافق فهو كارثة وآفة.. فالكافر يطعن فى الصدر والمنافق يطعن فى الظهر.. والكافر يواجه فى النور والنهار والمنافق يتآمر بليل.

وليس معنى التخلى عن الحياد أن أتحلى عن الكياسة والأدب والفطنة.. فهناك فرق شاسع بين الوضوح والحماقة وبين الشجاعة والتهور.. وبين الإقدام والاندفاع.. وأمتنا صارت أمة الفرص الضائعة لأنها رقصت على السلم وفضلت الحياد والرمادية وأن تكون بلا لون.. وحتى الآن لا أحد يعرف طريق ومنهج هذه الأمة.. هل هى اشتراكية..؟ هل هى رأسمالية؟ هل هى عربية أم شرق أوسطية أم إسلامية؟ هل هى فى نهاية المطاف أمة مريضة بازدواج الشخصية والفصام وجنون العظمة؟ هى أمة الجبناء أم أمة الشجعان؟.. هى لا شىء من هذا كله لأنها أمة محايدة - على الهامش -والمحايد لا وزن له ولا قيمة لرأيه.. بل لا رأى ولا قرار له.

***

وانظر إلى تصريحات أى مسئول عربى.. وعش رجبا تر عجبا.. تسمع جعجعة ولا ترى طحناً ولا تخرج بشىء.. سوى كلام باهت محايد.. ويسمون هذا دبلوماسية وسياسة وكياسة بينما هو دليل وكسة.. ودليل افتقاد القدرة على الفعل والقرار.

والحلال بَيِّن والحرام بين.. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.. وقد تبين الرشد من الغى فلا عذر للمحايدين والذين يفتشون عن تفسير يرضى جميع الأطراف.. لا عذر للواقفين فى منطقة وسطى ما بين الجنة والنار لأنهم واقفون فى منطقة لا وجود لها.. لا جدوى من محاولات تحسين صورتنا لدى الغرب من خلال الرقص على السلم وتطويع ديننا ليساير العصر الغربى.. فتلك محاولة المنافقين والغرب لا يرضى ولا يهادن.. لأن الغرب واضح فى عدائه.. ولأن عداءه لنا فعل أصيل ومبدأ راسخ وليس رد فعل عرضيا لمواقفنا.. فلو دخلنا خلفهم جحر الضب.. ولو خلعنا ملابسنا قطعة قطعة حتى ورقة التوت ما رضوا عنا وما أحبونا.. وسنجنى قبض الريح ونخسر الدنيا والآخرة.. وقديما قالوا: سر إلى حتفك خير من ألا تسير.. فإنك ميت إذا سرت وميت إذا توقفت وتسمرت.. فمت ماشيا إلى الأمام أو الخلف خير من أن تموت متوقفا متسمرا ومن ظن أن الحياد يطيل عمره ويحقن دمه ويربى عياله ويضمن لقمة عيشه.. فقد اختار أن يموت ذليلا.. ومن لم يواجه عدوا خوفا من القتل.. فسوف يموت فى بالوعة المجارى أو تدهسه عربة كارو يجرها حمار أو يقتله مرض طويل يجعل أسرته تتمنى موته.. والناس يهربون من الخدمة العسكرية ويزورون شهادات المعافاة ليموتوا بجرعة مخدر زائدة أو فى سهرة بانجو حمراء وسوداء وزرقاء.. فالمحايد والرمادى فى الواقع لا يختار طريقة حياته وإنما يختار وسيلة موته.. فلا نامت أعين الجبناء.

ونحن نقول فى أمثالنا: من خاف سلم ولكننا نفسر المثل على هوانا وليرضى رغبتنا فى الجبن والذل.. بينما هو قول بليغ لمن أراد الحق.. فمن خاف الله سلم من عقابه وعذابه.. والخوف فضيلة وليس رذيلة.. الخوف يعنى الحذر والتحوط والاستعداد للأمر الجلل.. الخوف يعنى اتقاء الشبهات.. والسلامة لا تعنى الخلود فى الدنيا.. فإننا ميتون أبناء ميتين ولكنها تعنى السلامة فى الآخرة.. وتعنى فى الدنيا سلامة العرض والشرف والكرامة.. حتى ولو كان الجسد عليلا.. تعنى سلامة القلب يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

ولقد خفنا قول الحق.. وخفنا السلطان.. وخفنا الأعداء المتداعين علينا تداعى الأكلة على قصتعها وخفنا الرئيس فى العمل والمدير وخفنا زوجاتنا وأزواجنا وخفنا غضب المخلوق.. وخفنا ضياع لقمة عيشنا وعيش عيالنا.. وأخذتنا فى الحق لومة اللائم.. وخفنا الصراحة والوضوح.. وحايدنا وتصالحنا مع الباطل.. وبعدنا عن الشر وغنينا له.. وقلنا يا باسط وقلنا: وأنا مالى.. وقلنا معلهش واغلقنا الباب الذى تأتى منه الريح لنستريح وقلنا آمين خلف كل ناعق.. وخفنا حجب مكافأة أو علاوة أو ضياع ترقية ومنصب.. فاصدقونى القول بالله عليكم: هل بعد كل هذا الخوف سلمنا ونمنا آمنين؟ اللهم لا.. اللهم لا.

***

لقد خفنا حتى صار كل منا دولة داخل الدولة - يقول: نفسى نفسى - ويقول: مالى مالى.. ويقول: أنا ومن بعدى الطوفان.. ويقول: "إذا جالك الطوفان حط وطنك وعيالك وكل الدنيا تحت رجليك" ومع ذلك لم يبت أحدنا آمنا فى سربه معافى فى بدنه عنده قوت يومه.. بل ازددنا قلقا وأرقا وقرفا ومللا وفقرا ومهانة وذلا ورعبا من قادم لا نعرف ما هو ومن شبح لا نعرف هويته وملامحه.. ظننا أو خدعونا بأن الرخاء آت مع ما سموه السلام - لكن "لا طلنا بلح الشام ولا عنب اليمن أو عنب الشام وبلح اليمن" لا طلنا السلام ولا الرخاء.. لكن ما حدث أن العقد قد انفرطت حباته - وانقطع الخيط الذى تنتظم فيه الحبات.. وأصبحت كل حبة فى واد وتريد أن تكون عقدا بمفردها - وفتحنا حقائبنا "على الآخر" واسترخينا كأنه لا سفر ولا ترحال بعد الآن.. وامتلأنا شعوراً بالأمان وقال لنا الفنانون إن الضحك رسالة - وأن هدف الفن أن ينسى الناس النكد والهم.. تماما كما يشرب المرء الخمر لينسى كما يقول لنا الفن أيضا.. وأصبح المضحكون والمهرجون أصحاب رسالة فى زمن امتلأ بالرسل وخلا من الرسالات.. وصار الشواذ من الرجال والنساء أنبياء عصر الحياد والميوعة وتحسين الصورة فى أعين الغرب.. وفهمنا السلام على أنه الاستسلام والرضوخ الذى يقال فى تعريفه الجديد أنه أمر واقع ينبغى أن نقره ونعترف به.. وأما أنا ومن أراد نهجى ودربى فإننى لا أعترف به.. وإننا جميعا لا نقره.. وإذا قطعت أيدينا وألسنتنا فإننا نرفض المنكر بقلوبنا.. لن نحايد.. ولن نخاف لنسلم على طريقتهم ولكننا نخاف الله لنسلم.. نحن الغرباء الذين نكتوى بالنار ولكننا مصممون على

أن نقبض على الجمر - وأن يحرق الجمر أيدينا فى الدنيا خير من تنضج جلودنا لبدلنا الله جلودا غـيـرها لنذوق العـذاب.. ومع ذلك كله فـإننا لا نـأمن مكر الله.. ولن نمتلىء إحساسا ويقينا بأننا على الحق.. بل هو ما نظن أنه الحق والله يهدى من يشاء.

إن كل مشاكلنا وكوارثنا وآفاتنا هى إفراز طبيعى لانفراط العقد والاسترخاء والأمان المزيف.. وغيـاب مشروع "يلمنا" وفكرة تجمعنا.. فقد اسقطوا كل مشروعاتنا القومية واستفردوا بنا واحدا واحدا "وأكلونا الأونطة وخلصوا علينا" لذلك أشعر فى كثير من الأحيان بأن الحل هو "مشكلة" - الحل كارثة أو صدمة عنيفة تعصف بنصف هذه الأمة وأنا منهم ليفيق النصف الآخر ويرعوى ويستيقظ فلا خير ولا جدوى من "الطبطبة" والهدهدة والعتاب والصراخ.. وإذا وجدنا من ينادى: يا سارية الجبل الجبل فإننا لن نجد من يسمع وإذا وجدنا من يسمع فلن نجد من يفهم وإذا وجدنا من يفهم فإننا لن نجد من يصدق ويستجيب ويحذر الجبل.

والحياد هو اللاموقف مثل الامتناع عن التصويت فى أى اجتماع أو لقاء.. فالممتنع محايد مذبذب لا مع ولا ضد.. يعنى هو ميت.. والحياد يعنى الميل هنا وهناك.. ويخطىء نقاد الرياضة عندما يسمون الحكم الذى تعجبهم قراراته فى المباراة محايداً.. والاسم الصحيح هو الحكم العدل أو العادل.. لأن العدل ليس حيادا.. بل هو موقف مع أو ضد.. ويظن الناس أن الوسط هو البين - بين وعلى هذا الأساس يقولون: خير الأمور الوسط.. تماماً مثلما فسروا المثل الشعبى: من خاف سلم.. وإذا كان الوسط هو البين - بين فإن شر الأمور الوسط.. لأن الوسط المعنى هو الاعتدال والعدل.. والاعتدال موقف وليس بين - بين.. والمحايد شريك أصيل فى أى جريمة عامة أو خاصة.. فهو لديه قصد جنائى حتى لو حاد عن الهدف.. والحيدة أو الحيد عن الهدف لا تعدم القصد الجنائى كما يقول القانون.. فالحياد أو الحيدة انحراف أو ميل وما لم يقتل الهدف فسوف يقتل هدفاً آخر بريئاً.. فالمحايد قاتل أبيض لا يريق قطرة دم ولكنه مجرم بحياده وصمته وإيثاره السلامة المزعومة وخوفه من التصنيف.. وأمتنا لم تعد لها قيمة فى العالم ولم يعد أحد يحترمها لأنها أمة رمادية محايدة.. لا وزن لقولها أو شهادتها مثل زينب فى مسرحية "أنا وهو وهى" التى ظل من حولها يستنطقها ويحثها على البيان والإفصاح بلا جدوى: "اعصرى مخك يا زينب.. اعصرى مخك يا بت".. فخرج كل وصفها محايدا رماديا وجاء عصير مخها بلا لون ولا طعم ولا رائحة.. "زى ما تقول كده.. بين البينين".. والمحايد باحث بلا جدوى عن رضا الناس.. أو خائف من غضب رئيس فى العمل أو وزير أو مسئول أو طامع فى أن يتقاضى ثمن حياده وصمته ورماديته.. ولا يعنيه رضا أو غضب الله.. والمحصلة أن الناس لا يرضون لأن ما يرضيهم اليوم يغضبهم غداً.. أما رضا الله فهو لا يتغير.. وما يرضيه الآن هو الذى يرضيه إلى أن تقوم الساعة.. لذلك يخسر المحايدون لأنهم يراهنون على متغير لا يدوم على حال ويسقطهم الناس من حسابهم لأنهم غير مؤثرين.. ولأن عصير أمخاخهم مثل عصير مخ زينب.. زى ما تقول كده بين البينين.

هكذا نربط الفرس وندق الجرس!!

فاجأنى أحد اصدقائى بقوله: ياأخى "وجعت دماغنا" ببحثك عن الحقيقة الغائبة فى كل مايقال ومايكتب وبدفاعك المتواصل عن تلك الحقيقة التى تراها ضحية ومجنيا عليها.. ولم اترك صديقى يكمل هجومه الودود والرقيق على ما اقول واكتب ووجدتنى افاجئه انا ايضا بقولى: شكرا لك فقد فتحت لى بابا كان غائبا عنى.. صدقت ياصاحبى فالحقيقة ليست غائبة.. وليست مختفية بارادتها.. بل هى مغيبة ومخطوفة بفعل فاعل.. الحقيقة مخطوفة ومغيبة لأنها "لاتبيع".. ولاتوزع صحفا ولاتشد العيون الى القنوات التليفزيونية ولاتجذب الاسماع الى المذياع.. الحقيقة تؤدى الى الكساد والبوار واغلاق الدكاكين.

الناس ياصحبى ينصرفون تماما عن بائعى الحقائق حتى لو وزعوها مجانا.. ويقبلون على الاكاذيب والشائعات ويشترونها بكل ما فى جيوبهم ومافى عقولهم من وعى.. وقد ذكرتنى ياصاحبى بأبيات لشاعر العامية الراحل بيرم التونسى قال فى مطلعها: اعيش شريد وامشى حافى.. فى مصر ولا اكونش صحافى

.. على الادب قول ياعوافى .. لاعمل انا فران استر.

ومضى بيرم التونسى فى سرد متاعبه ومعاناته مع الصحافة ومع الحقيقة حتى قال: ان كنت اكتب فى حكاية.. لاطعن فيها ولاغاية.. يقولوا تحريض وغواية.. عالفسق.. قوم امضى المحضر.. وان كنت اكتب فى الحكمة.. وفى البخارى والختمة.. وخللى جورنالى حشمة.. بالشكل ده الجورنال يخسر.

والبيت الاخير هو مربط الفرس .. فقول الحقيقة والكتابة بالحكمة والمنطق تؤدى حتما الى الخسارة.. والذين يراهنون على قول وكتابة الحق يخسرون.. ولن يلتفت اليهم او يقرأهم احد.. فالناس مصابون بالملل والرتابة وافتقاد الدور والقضية وتائهون فى الزحام.. وخيالهم الذى كان منطلقا فى عصر الكلمة المكتوبة ثم عصر الراديو اصبح محاصرا فى عصر الصورة.. اصبح مغلولا محدودا لايعمل.. الناس فقدوا عذريتهم الذهنية والوجدانية فى عصر الصورة.. وبعد ان كانت تبكيهم او تضحكهم كلمة مكتوبة او مسموعة.. لم يعد يثيرهم شئ ولم يعد يدهشم الكلام العادى الحقيقى.. وصاروا يبحثون عن جنازة ليشبعوا فيها لطما وعن "زغزغتهم" بالسكاكين حتى يضحكوا.. او على الاكثر حتى يبتسموا.

الناس يشعرون بالحزن وخيبة الامل تجاه من يصارحهم بالحقيقة ومن يروى لهم ماحدث بالضبط وبلا زيادة ولانقصان.. يشعرون بالأسى لان الحقيقة اصابة خيالهم فى مقتل.. وهم يشعرون بان خيالهم لم يعد يعمل لذلك يرفضون تصديق الصدق ويقاومون الحقيقة حتى يتاح لخيالهم العاطل ان يعمل ولو قليلا وان يتحرر من قيوده ولو للحظات.. وقد قيل يوما ان عصرنا لم يعد فيه مجال لاطلاق الشائعات بعد ان صارت المعلومات والحقائق متاحة بلا عناء.. وهذا قول خاطىء جملة وتفصيلا لان عصرنا هو عصر الشائعات والاكاذيب.. فلم يتبق للناس من سلاح لفك الحصار عن خيالهم سوى الشائعات والاكاذيب.. ونحن لانقوى على الحياة بلا خيال ولم تعد هناك وسيلة التنشيط خيالنا الخامل سوى ترديد الشائعات وتصديقها.. والناس يكرهون بالاجماع البيانات الرسمية حول اى احداث تقع ويتفقون على وصفها بالكذب.. والتعتيم واخفاء الحقائق.. لا لانها كاذبة فعلا ولكن لاننا نريدها ان تكون كاذبة.. ولاننا نكرهها.. فهى تحاصر خيالنا وتحرمه من العمل وتحرمنا من الاثارة والشعور اللذيذ بالصدمة والدهشة فى عصر الرتابة والملل والتثاؤب.

× ونحن نقاوم بشدة البيانات الرسمية والنفى الرسمى.. وكلمة الرسمى المضافة الى البيان او النفى او التعليق صارت كلمة سيئة السمعة فى رأينا.. صارت كلمة بغيضة مرتبطة بالكذب ولو صدقت لانها تحرمنا من تأليف السيناريوهات والسباحة فى عالم غير محدود من الابداع الخيالى وقد اصيب الناس وانا منهم بخيبة امل كبيرة عندما تبين او قالت البيانات الرسمية والتحقيقات ان مخبولا او مريضا نفسيا هو الذى ارتكب مذبحة بنى مزار الشهيرة.. كلنا "زعلنا" اى والله "زعلنا" لان المقدمة كانت رهيبة والنتيجة جاءت باهتة.. كلنا اردنا ان تكون النتيجة بحجم السيناريو الذى وضعناه لها.. وحتى الآن مازلنا "زعلانين".. لان خيالنا تلقى ضربة جديدة موجعة.. فقد كنا نتمنى ان تكون وراء المذبحة عصابات مافيا لتجارة الاعضاء البشرية.. او عصابة من الجن الاحمر.. او قرابين بشرية لفتح كنز اثرى.. او عصابة من كوكب المشترى ارادت توجيه رسالة دموية لسكان الارض "هو ده الشغل.. مش تقوللى واحد مجنون".. كنا نتمنى ان يظل الفاعل مجهولا حتى يواصل خيالنا المحاصر انطلاقه والتحرر من اغلاله.

حدث هذا ايضا فى وقائع الاسكندرية الاخيرة.. فقد حرموا خيالنا من الانطلاق وحرموا اصحاب القضايا الوهمية من خدمة قضاياهم وافكارهم التى يناضلون من اجلها.. فهؤلاء كلما خبت وخابت نارهم يريدون ان يزيدوها سعيرا.. واحداث مثل هذه فرصة جيدة لانطلاق الخيال والبقاء فى دائرة الضوء ولو كان مصدر الضوء نارا احاط بنا جميعا سرادقها.

وانا ايضا تصدمنى النتائج الباهتة مثل كل الناس واحاول ان اشخص مرضى كما اشخص امراض الناس.. ومرضنا الحقيقى.. كلنا بلا استثناء هو الملل "والزهق" والرتابة واللى نبات فيه نصبح فيه.. مرضنا هو تهميشنا جميعا وابعادنا عن غرف القرار وصالونات الحوار مرضنا اننا يراد لنا الا نعرف.. او ان تعرف بعض مايجرى ونكمل الباقى بخيالنا.. مرضنا هو انهيار الثقة بيننا وبين الحكومة وكل ماهو رسمى.. فالحكومة فى رأينا كاذبة قبل ان تنطق بأى كلمة.. وحجتنا الحقيقية الدامغة هى ان الواقع المعاش يناقض ماتقوله الحكومة والتصريحات الرسمية.. والحكومة تدفع ثمن هذا التناقض.. فنحن ننصرف تماما عن كل ماتقول ونضرب به عرض الحائط ونطلق لخيالنا العنان.. فالحكومة تتحدث عن ضبط الاسعار والاسواق.. بينما الاسواق والاسعار تزداد انفلاتا.. والحكومة تتحدث عن الملايين من فرص العمل.. بينما يزداد طابور العاطلين طولا.

والاحداث المتلاحقة من بنى مزار إلى الاسكندرية تثير خوفى من شئ واحد فقط هو زيادة عدد المخبولين والمرضى النفسيين فى مجتمعنا.. فقد صار المجانين محركين ومحرضين للجماهير.. كما قال الشاعر: اعمى يقود بصيرالا ابا لكمو.. قد ضل من كانت العميان تهديه.

واخشى ان الشعور بالملل والرتابة وانعدام الدور والاحساس المتنامى بالتيه والضياع هو الذى يجعلنا نهوى النفخ فى اى نار لتتأجج ونتسلى نحن بالفرجة عليها لقتل الملل و"الزهق".. اخشى ان يجعلنا الفراغ القاتل واتساع الفجوة بين الرسمى والشعبى ندمن تأليف السيناريوهات حتى نصدقها ونتصرف على اساسها اى نكذب ونصدق انفسنا مثل جحا الذى اطلق شائعة الوليمة الكبيرة فى اخر البلد ليصرف الاطفال عن مضايقته وعندما رأى كل الناس يهرولون الى اخر البلد عاد ادراجه وراح يسابقهم فى الهرولة قائلا: يبدوا اننى صدقت وان هناك وليمة فعلا.

***

شىء فظيع جدا ان يتم اعدام خيالنا وابداعنا لان موت الخيال يعنى موت الأمل.. فالأمل جزء اصيل من الخيال يحرضنا على السعى والجرى والعناء والكد.. ولو مات الخيال والأمل لمتنا ونحن على قيد الحياة.. لذلك فإن تضخيم الأمور وتهويل الاحداث وتداول الشائعات والاكاذيب وتزايد اللجوء الى السحر والشعوذة.. كل هذه اسلحة نقاوم بها محاولات قتل خيالنا.. وكلما تقدم العلم وازداد هجوم التكنولوجيا على عيوننا واذاننا وعقولنا ازددنا تشبثا بالخرافة والاساطير وعالم غير منظور واجواء البخور والتهاويم غير المفهومة لنقاوم محاولات ذبح خيالنا واغتيال امالنا.. والدعوات المستمرة الى الواقعية والتعقل والبعد عن الاوهام

والخيال لاتجدى.. بل تزيدنا تمسكا بالمساحة الضيقة التى يتحرك فيها خيالنا وعندما تقع واقعة ما تتسابق وسائل الاعلام الى اسناد تفاصيلها الى "شهود عيان" وتتجاهل تماما البيانات الرسمية الخالية من الابداع والخيال وحكاية "شهود العيان" هذه مجرد حيلة للتهويل والنفخ فى اى حدث او شرارة لتصبح حريقا.. واسناد الاحداث الى شهود عيان يضمن للوسيلة الاعلامية نسبة عالية من المشاهدة.. وشهود العيان الذين يتحدثون عبر الارض والفضاء والصحف يحرص كل منهم على ان يكون مختلفا ومثيرا اكثر من الاخرين.. فتسمع ارقاما اكبر للضحايا ونسمع وصفا مذهلا للنار والدماء والاشلاء.. ونصف ماقاله الشاهد الذى لم يعاين من شبح خياله.. كما اننى لا اتصور ان اى امرئ وقع الحدث المروع خلال وجوده فى الموقع يمكن ان يكون واعيا ومتماسكا ويدلى بهذا الوصف التفصيلى المسهب.. انه وجد فرصة سانحة لاطلاق خياله المعتقل والسجين والمحاصر.. وهناك من يرى ولعله على حق ان العرب اصابهم التخلف لان حكوماتهم اعدمت واقعهم وخطفت خيالهم... فصار الواقع مرا والخيال مخطوفا وميتا أيضاً.. وصرنا جميعا بلا واقع وبلا امل.. والناس اموات اذا مات واقعهم واغتيل املهم او اختطف رهينة.. او تم حبس الامل فى الحكومة وحدها.. هى التى تعطى وهى التى تمنع وهى التى تعز وهى التى تذل.. وخطف الامل والخيال يؤدى الى لجوء الناس الى الشائعات والى النكات والرمز والغمز واللمز كمنفذ يطل منه الخيال السجين.

والحكومات العربية تحاسب الناس "حساب الملكين" على خيالهم وابداعهم ونواياهم وعلى امالهم ايضا.. وتسعى دائما الى النفى واصدار البيانات الرسمية كوسيلة لحصار الخيال.. لكن الناس لايصدقون النفى ولا البيانات الرسمية ودائما لديهم قناعة راسخة بأن الحكومات لاتقول الحقيقة "وان ماخفى اعظم واخطر".. وعندهم حق.. فهناك ميراث كبير وتاريخ طويل من الكذب الحكومى والخداع الرسمى.. هدم كل الجسور ووسع كل الفجوات مع الشعوب.. وكل حدث فى أمتنا له دائما تفسير رسمى وتفسير شعبى.. والتفسير الشعبى هو الذى يكسب ولو كذب وبالغ .. لان كل ماهو رسمى صار مكروها وسيئ السمعة.

***

والحكومات تطالب الناس بعدم التهويل بينما تمارس هى التهوين من حدث جلل يكاد يعصف بالامة وتمارس التهويل فى انجازات من ورق لاتستحق الحبر الذى تكتب به.. الحكومات تغتال خيال الناس ولاتسمح بالحياة والانطلاق الى خيالها هى وحدها.. لذلك تستحق الحكومات الا يكترث الناس بما تقول والا يعيرها احد اى اهتمام.. وان يعتمد الناس على انفسهم وعلى تصوراتهم فى قراءة الاحداث وان

يقبلوا على كل من يشتم الحكومة بالحق او بالباطل ويعتبروه بطلا شعبيا حتى اذا كان بطلا من قش.. الحكومات فشلت فى كسب ود واحترام وثقة الناس.. بدليل ان اى انسان يظل محبوبا حتى يصبح وزيرا او عضوا فى الحكومة اذ ينقلب الناس ضده مائة وثمانين درجة دون ان يرتكب مايستحق هذا الانقلاب.. لكنها ثقافة عربية راسخة نتيجة تاريخ طويل من المعاناة مع اى سلطة.. تلك الثقافة جعلتنا نكره الحكومات كراهية التحريم.. ومع ذلك يتمنى كل منا ان يكون وزيرا او مسئولا ولو كرهه العالم كله.

وبعد ان فقدنا اى مشروع قومى يلهينا وجردتنا حكوماتنا من الحلم العربى المشترك وراحت تسخر من خيالنا واملنا فى الوحدة.

ورايتنا التى فى حضن النسمة.. مرفرفة بستاشر نجمة.. قررنا ان تكون لكل فرد او لكل فئة قضية خاصة بها تناضل من اجلها ولو كانت قضية وهمية.. فهذه قضية الاقباط .. وتلك قضية السنة أو الشيعة او الاكراد أو البربر أو قضية المرأة والأطفال أو الشباب ولكل فئة ناشطون أو قادة أو مناضلون يدافعون عن قضاياها.. وهكذا صار الجميع ضد الجميع فى امتنا.. ولم يعد لنا هم عام رغم ان "همنا مايتلم" لكننا فى غيبوبة طويلة بعد ان جرت عمليات منظمة ومنهجية وارهابية لاغتيال واقعنا وخطف املنا ولا اجد سوى العودة مرة اخرى الى بيرم التونسى واردد معه قوله الملئ بالالم والمعاناة.. ياللعجب على خلقتنا.. والدود بيهرى فى جتتنا .. وان كنت تلقى فى صحافتنا .. دوا الدمامل تتسنكر!! فهل رأيتم مربط الفرس وسمعتم دقات الجرس؟

طبق اليوم.. "فتة طائفية"!!

الذهن اليوم مزدحم.. مخى فيه طابور عيش طويل لا يتحرك أمام فرن مغلق.. يلح على رأسى التكرار على أساس أنه يعلم الحمار أو يعلم الشطار.. والحمار أفضل من الشطار وأطيب.. فالشاطر لغوياً مفرد شطار وهو من أعيا أهله خبثاً ولؤما.. والشطارة: الانفصال والابتعاد.. والشاطر هو الذى يعصى أباه وولى أمره ويعيش فى الخلاعة.. والشاطر: الخائن "يبقى الحمار أحسن من الشطار".. يبدو أن العود أحمد إلى ما سبق أن قلناه معاً من قبل.. فلا طوائف إلا اثنتان.. طائفة الفقراء وطائفة الأغنياء.. فلعن الله من طوفنا أو طأفنا أى جعلنا طوائف بعيداً عن الفقر والغنى "وويل للمطوفين أو المطأفين" الذين أشعلوا نار الطائفية منذ نصف قرن أو يزيد حين قسمونا إلى عمال وفلاحين ورأسمالية وطنية ورأسمالية وثية ونساء ورجال وشباب وشيوخ وأطفال.. "وطايفة المعمار" "وطايفة المثقفين".. والنخبة والنكبة والنكسة والحرية كل الحرية للشعب ولا حرية لأعداء الشعب.. والمسلم والمسيحى.. بينما المسلم ليس مسلماً كما يجب والمسيحى ليس مسيحياً كما ينبغى.. والاثنان كاذبان ومنافقان.. والاثنان مثال رائع للوحدة الوطنية فى التشكيلات العصابية التى تضم مسلمين ومسيحيين.. والاثنان متحدان ومتضامنان على مائدة القمار وأمام زجاجة الخمر وفى شقة حمراء.. وحدة وطنية عظيمة فى الانحراف والخلاعة والمجون.. ووحدة وطنية عظيمة فى الفقر والتهميش والهوان والذل.. لكنها الأغراض والأهواء والمآرب التى تحرك الراكد وتوقظ النائم لحاجة فى نفس يعقوب ينجح دائماً فى قضائها على جثثنا وبدمائنا.. وأنا أعرف الفعل وأعرف المفعول به ولكنى لا أعرف الفاعل وليتكم تعرفونه لى.. والفعل هو إطفاء الأنوار فى منطقة وقضية ما لإظلامها تماماً وتعتيمها "والغلوشة عليها" وإيقاد الأنوار فى منطقة وقضية أخرى يراد تحريكها فى وقت ما لغرض ما.. والمفعول به فى كل الأحوال نحن الفقراء والمطحونين.. نحن الوقود.. نحن العصا ونحن المضروبين بها.. واسألوا أهل الذكر إن كانوا ينطقون.. لماذا القاتل والمقتول والسارق والمسروق والضارب والمضروب فقراء؟ إنها أطباق أعدها مجهولون أو معلومون لا نجد عليهم دليلاً.. أطباق يقدمونها لنا.. وكل طبق له مناسبة وله أهداف.. فمرة يقدمون لنا طبق الإصلاح بالمكسرات.. ومرة طبق المرأة وحقوقها وختانها وبكارتها.. ومرة طبق الشباب والأجيال القادمة التى لن تأتى أبداً.. وطبق اليوم هو "الفتة الطائفية" التى سموها "فتنة".. ونجح الفاعل المعلوم أو المجهول فى أن يجعل طبق "الفتة الطائفية" شهياً.. فأقبلنا عليه بنهم.. منا من يأكل بلسانه ومنا من يأكل بقلمه.. ومنا من يأكل نفسه من الغيظ

مثلى.. لأننا دائماً مخدوعون ومضحوك علينا ونبتلع الطعم تلو الطعم ونقع فى الفخ ونصدق الكذبة ونلدغ من نفس الجحر ربما لأننا بلا رءوس.. أو لم يعد مسموحاً بأن يكون لنا رءوس.. ففى زمن الخصخصة لا يعترف السادة برءوس البشر وإذا لمحوها يقطعونها.. وليس مسموحاً إلا برءوس الأموال فقط.. أما البشر فمسموح لهم فقط بالذيول أو النصف الأسفل من الجسد أما النصف الأعلى فهو محظور طبقاً لقوانين الحرب على الإرهاب.. فالنصف الأعلى إرهابى والنصف الأسفل معتدل ومتوازن وواقعى ويؤمن بحوار الحضارات.. لقد أشعلوا فتنة طائفية بين المرء ونفسه.. فنصفه الأعلى ضد الأسفل.. وهو يكره نفسه ويود أن "يطلع من هدومه".. لا لأنه مسلم أو مسيحى أو امرأة أو رجل أو شاب أو شيخ ولكن لأنه فقير ومعصور ومطحون بين شقى رحى لا ترحم.

***

هناك من يتسلى بهياج الفقراء الذين يستغلون أى مناسبة للتنفيس والهتاف والصراخ.. أى مناسبة والسلام.. ضرب كنيسة أو حرق مسجد أو "خناقة على بنت حلوة".. المهم أن يصرخوا من آلام تراكمت وطفحت وبلغت الحلقوم.. وإذا كانت معركة بين مسلم ومسيحى هى الفتنة الطائفية أو طبق الفتة الطائفية.. فماذا نسمى قتل أب لزوجته وأبنائه وانتحاره..؟ وماذا نسمى قتل أم لأبنائها وزوجها لتهرب مع عشيقها؟ وماذا نسمى تغيير فتاة لدينها كما تغير جوربها لتتزوج عابر سبيل أغواها؟ وماذا نسمى برامج الفضاء التى تغتصب بناتنا فى البيوت؟ وماذا نسمى بيع لحمنا بثمن بخس دون أن نسأل عن دين من نبيع له هذا اللحم؟.. وها هو أحمد يبيع كليته لبطرس بخمسة عشر ألف جنيه ولا يعنيه من بطرس دينه ولا ملته وإنما يعنيه الثمن الذى يتقاضاه مقابل كليته.. لا يهم الفقير أن المشترى شيطان أو ملاك "اللى يدفع يشيل".. والحكاية دائماً "تخلص" على مائدة الوحدة الوطنية التى يكون الطبق الرئيسى فيها "الفتة الطائفية".. وكأنهم حلوا مشاكل وأزمات الفقراء من أى دين.. هؤلاء الفقراء الذين يتابعون صنوف الطعام على موائد الوحدة الوطنية بحسرة ويقولون لبعضهم "نحن نموت وهم يأكلون".. الفقراء ليس لهم شيخ ولا بابا ولا ماما.. الفقراء لا يمثلهم أحد فى برلمان ولا حزب ولا جماعة ولا حركة.. الفقراء "منهم لله" مباشرة يشتكون له الظلم والجور والعسف والخسف.. الفقراء يشتكون إلى الله من يأكلونهم نهاراً "ويحلون" بموائد الرحمن والوحدة الوطنية ليلاً.

كل العنف الذى نراه ونقرأ عنه ويحلو للبعض أن يصنفه على هواه إلى فتنة طائفية ليس فعلاً أصيلاً وإنما هو رد فعل وإفراز طبيعى للفقر والهلاك والتهميش وعدم الاكتراث بهموم الناس.. نحن لا نكره بعضنا فقط بصرف النظر عن الدين ولكن المرء يكره نفسه.. ويتعصب ويتطرف ضد نفسه ويمارس عدوانه على نفسه.. نحن نار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله وليس معقولاً أن جانبى الأيمن مسيحى وجانبى الأيسر مسلم لأجد تفسيراً منطقياً لكراهيتى لنفسى.. التفسير الوحيد أننى مقموع ومطحون "ومتبهدل".. اقتنعوا أو

لا تقتنعوا.. أنتم أحرار.. آسف فى اللفظ.. أنتم وأنا لسنا أحراراً.. نحن معتقلون فى مشاكلنا.. ورهائن لعذابنا.. والسادة الكبار ليسوا فى عجلة من أمرهم.. إنهم يفضلون التأنى والتريث والدراسة وتشكيل اللجان الفرعية والرئيسية والمنبثقة "والمنبصقة".. الكبار والسادة يعيشون على موتنا ويقتاتون عذابنا ويشربون دمنا ودموعنا هنيئاً مريئاً.. ويشكلون حركات وجبهات باسم المواطن المصرى "قال إيه عشان يحاصروا الفتنة".. "فتنة إيه" ياهواة النجومية والشهرة والتمويل من الداخل والخارج؟ الفتنة الحقيقية خرجت عن السيطرة وهى ليست طائفية ولكنها "فقرية" فتنة بطون خاوية وجيوب محروقة ومحرومة.. فتنة أناس يبيعون لحمهم ودمهم ليأكلوا.. ومازالوا ينتظرون قرار اللجنة التى تدرس والمسئول الذى يفكر ويفكر.. فتنة أناس لا يجدون مساكن ويقال إنهم يناضلون من أجل بناء مساجد وكنائس وأديرة وجمعيات إسلامية خيرية.. بينما خيرية لا تجد مأوى ولا علاجاً ولا طعاماً.

***

أيها الفقير المسلم أو المسيحى أو اليهودى هل تسمعنى؟ لا تمزح ولا ترد على قائلاً: "سمعت الرعد".. الحكاية جد.. أنت مضحوك عليك.. الحكاية ليست فتنة طائفية ولكنهم صنعوا منك "فتة وكفتة" وجعلوك رهن الإشارة.. تسكت إذا أرادوا.. وتصرخ إذا رغبوا.. وتؤيد إذا طلبوا.. وترفض وتدين إذا أحبوا.. حتى الأقلام الصحفية صدقت الكذبة وشربت "المقلب" وراحت تتحدث عن التلاحم المشتق من "اللحمة" والنسيج الواحد لأناس عرايا حفاة لا غزل عندهم ولا نسيج.. وراح كل قلم يروى قصص الحب بين المسيحيين والمسلمين.. ثم يسأل بعد ذلك: ما رأيك فى مقالى؟.. فيقال له: هائل.. رائع.. أصبت كبد الحقيقة المصابة بالتليف.. وينام الكاتب سعيداً بالثناء والإطراء وقد أبرأ ذمته "وعمل اللى عليه" بعد أن حكى جورج عن علاقته الحميمة بصديقه مصطفى.. وتحدث محمد عن عشرته مع حبيب قلبه بولس.. كلام خائب وموضوعات إنشاء سخيفة وكلام فى لا قضية.. بينما القضية الحقيقية لم يمسسها بشر.. وهى أننا جميعاً خارج الخدمة بفعل فاعل.. وخارج الحسابات بالأمر المباشر.. نحن مجاميع كومبارس نحلم بدور بطولة لا يأتى أبداً.. يكذب من يقول إن المسيحيين لهم مطالب مشروعة.. ويصدق من يقول إن الفقراء هم الذين لهم مطالب مشروعة لن تتحقق أبداً.. لقد قالوا إن العمال والفلاحين لهم خمسون فى المائة من مقاعد المجالس النيابية.. والحق أن العمال والفلاحين لا وجود لهم فى أى مجلس ولا فى أى رأس مسئول.. وكل الذين يحتلون المقاعد ينبغى أن يحاكموا بتهمة انتحال صفات العامل والفلاح.. ينبغى أن نحاكم الذئب الذى ارتدى ثوب الحمل.. وإذا جعلنا مائة فى المائة من مقاعد البرلمان للأقباط.. فإنهم أيضاً لن يمثلوا الفقراء وإذا جعلنا مائة فى المائة من مقاعد البرلمان "للنسوان" فإنهن أيضاً لن يمثلن الفقراء والفقيرات.. فالأغنياء فقط هم الذين يملكون "أجرة" الوصول إلى القبة والمقعد.. وفى كل الأحوال سيبقى الفقراء خارج اللعبة وخارج الحسابات.. هم فقط وقود المعارك الوهمية

الفتن المصنوعة فى "فابريكة" السياسة.. ولابد أن تبقى مشاكلهم وهمومهم حتى يزايد عليها السادة ويصلوا بها وعن طريقها إلى الحصانة أو الحضانة.. والفقراء يتم ستخدامهم لمسح بلاط أصحاب الجلالة برضاهم.. فهم بلطجية وهم حرامية صغار وهم مزيفو الإرادة.. وهم شياطين خرساء.. وهم شهود زور "وهتيفة" برضاهم وبثمن بخس دراهم معدودة.. وهم منافقون يهاجمون الفن الهابط والثقافة المتدنية والأغانى الساقطة ويقبلون على كل تلك "بشبق".. و"ويبحلق" الواحد منهم فى أرداف وسيقان المغنيات العاريات وهو يردد: أستغفر الله العظيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم "إيه قلة الأدب دى؟" ثم يقيم الصلاة وربما يصلى إماماً!! أو يذهب إلى الكنيسة ليصلى أيضاً!!

***

إذا صدقنا حكم الغرب علينا بالتخلف فإننى أرد هذا التخلف إلى ازدواج الشخصية والعيش بمئات الأقنعة.. فلا توجد مواقف واضحة.. سوداء أو بيضاء.. والعلاج لمشاكلنا لا يأتى أبداً لأن التشخيص دائما خاطئ.. وخطأ التشخيص عمدى فى أغلب الأحيان.. فالقائلون بأن فى مصر فتنة طائفية شخصوا المرض بشكل خاطئ لأهداف نعلمها فنحن نتحدث عن عفريت وهمى ونظل نتخيله حتى نصدق خيالنا ووهمنا.. ونتجاهل العفريت الحقيقى الذى يجثم على صدورنا.. وهو عفريت الفقر والعوز والتهميش وعدم الاكتراث بنا.. حتى أصبح الإنسان عندنا وسيلة وأداة وعصا وجزرة. يستخدمها السادة لأغراضهم وأهوائهم.. والمشكلة ليست فى أن هناك من يستخدمنا كعصى وأدوات ومكانس.. ولكن المشكلة فى قبولنا نحن لهذا الوضع وتسليمنا به.. المشكلة أننا لم نعد نتألم.. لم نعد نستنكر ونستقبح ما يجرى.. لم نعد نسخط على أوضاع متردية.. المشكلة أننا رضينا بأن نكون مع القطيع.. يسوقنا من يسوقنا إلى حيث يريد ولا نريد.. يسوقنا إلى مصارعنا ومهالكنا ليحيا هو ويزايد علينا.

إننا نعلم أن المدينة الفاضلة الخالية من الأخطاء والخطايا لا وجود لها فى الدنيا ولكننا ينبغى ألا نكف عن البحث عنها.. يكفينا شرف البحث والتنقيب.. يكفينا أننا نعانى بسبب غياب الفضيلة وشيوع الرذيلة.. يكفينا أننا نبكى ونتألم ولا نشارك فى التهام الأطباق المسمومة التى يتم تقديمها لنا فى كل مناسبة.. ولن يكون طبق الفتة الطائفية الذى يتزاحم عليه الجميع اليوم هو آخر الأطباق.. فهناك أطباق أخرى فى الطريق.. وهناك عرائس أخرى ستظهر على المسرح وتتحرك ونظنها نحن تتحرك وحدها وبإرادتها.. بينما هناك يد سوداء خلف الستار تحرك العرائس.. العرائس تتغير وحركاتها تتنوع والأطباق تتشكل لكن اليد السوداء واحدة.. والأصابع المغروسة فى عيوننا واحدة.. وإذا لم يعجبكم كلامى.. فاستمروا.. وكلوا فتة وناموا فى العسل!! فأنا لا أكتب لكى أعجبكم.. ولكنى أكتب لأبرئ نفسى أمام الله.. ولأخرج على منطق القطيع.. وأغادر منطقة الشيطان الأخرس.

أبو فسادة يغنى..
"قطيعة تقطع" القطيع!!

الوطن مثل الزواج قسمة ونصيب.. لا نختاره ولكننا نصبر عليه ونحبه.. والحب أعمى نحب الوطن بكل مافيه من مساوىء وقبح.. والوطن ليس حكومة ولاسلطة ولاسياسة.. رغم محاولات ربطه بكل هذا.. الوطن نعمة لاندركها الا عندما تزول.. وأسألوا من ضاعت أوطانهم أو أضاعوها لتعلموا صدق قولى.. ولاتوجد اجابة لسؤال: لماذا نحب الوطن؟ ربما يستطيع الاغنياء شراء أوطان بفلوسهم أو ربما تكون فلوسهم هى وطنهم يقيمون حيث أقامت ويهاجرون الى حيث هاجرت.. والأغنياء يمتلكون ترف تعدد الزوجات والعشيقات والأوطان ولكن الفقراء لايمتلكون إلا وطنا واحدا ولايقدرون الا على زوجة واحدة.. وهتاف الاغنياء للوطن وغناؤهم له مجرد زفة هم كذابوها.. أما هتاف الفقراء فهو صامت وصادق.. والغنى يمتلك الوطن كما يمتلك سيارة يغيرها وقتما يشاء.. فالاوطان بالنسبة للأغنياء موديلات.. وكل منهم يريد وطنا اخر موديل وآخر صيحة بفلوسه.. أما الفقراء فإن الوطن يمتلكهم.. وهو قصرهم وقبرهم.. وهم الذين يرددون ليل نهار: "من خرج من داره اتقل مقداره" والوطن قد لايحبنا نحن الفقراء.. وقد يقسو علينا وقد يظلمنا ويحرمنا ولكننا نحبه من طرف واحد لأن الحب أعمى.. وربما يبدو وطننا فى نظر الآخرين غاية فى القبح والدمامة ولكننا نراه دائما ملك جمال الكون.. لأننا لم نر فى الكون غيره.

ولابد ان نعترف بأن مشاعر جديدة بدأت تغزو قلوبنا ووجداننا شيئا فشيئا.. هى مزيج من السخط والضيق والغربة فى دارنا واهلنا وهى اقسى انواع الغربة.. بدأنا نشعر بأن الوطن يقسو علينا أكثر من اللازم وانه لاجدوى من استمرار الحب من طرف واحد ولا امل فى أن يعطف الحبيب ويرق وانه عقد قرانه على الاغنياء والسادة وأقيم حفل الزفاف وصارت "العروسة للعريس والجرى لنا نحن المتاعيس".

بدأنا نشعر بأننا نطهو ليأكل السادة ونزرع ليحصدوا وان المواعظ والنصائح موجهة الينا نحن وحدنا بأن نصبر ونتحمل ونخلص فى العمل ونضاعف الانتاج ونعرق ونكدح ونجد ونجاهد من اجل الوطن.. وإذا لم ندرك أجرنا فى الدنيا فإن لنا الجنة ونعيمها.. وبدأنا نردد عبارة خطيرة جدا تحمل فى طياتها الكثير من المعانى: "ياعم دى بلدهم مش بلدنا".

هناك طائر مهاجر جديد قرر ان يستقر عندنا ويبنى عشه فى ربوعنا ويتوالد
تكاثر على أرضنا اسمه "أبوفسادة".. طائر محصن ضد انفلونزا الطيور وضد
قوانين.. وهو طائر مزواج يتميز بالخصوبة الشديدة ويتوالد ويتكاثر بسرعة
ضوء ونحن نقول انه مازال فى معدل الامان ولم يتحول الى ظاهرة خطيرة..
هكذا نحن دائما نعيش بمنطق "كله تمام يافندم" والامور والظواهر والبلاوى تحت
سيطرة الكاملة حتى توحشت وتغولت أمور وظواهر كثيرة خرجت على السيطرة
النص فصارت كوارث.

***

ولأننى أحب هذا الوطن ولو من طرف واحد لن يستدرجنى أحد لأكون من
الكورس الذى يردد خلف المطرب مايقول.. لن أكون خروفا فى القطيع "قطيعة
قطع القطيع".. لن يخدعنى ولن يثنينى خوف ولاطمع.. ولن اتحدث عن اجزاء
معزولة من ظاهرة متمددة بطول الوطن وعرضه.. فالمسألة أعمق وأوسع من دهب
او الجورة أو شرم الشيخ أو أى عملية هنا أو هناك.. المسألة هى طائر مخيف
عملاق اسمه ابوفساده.. رأسه وذروة سنامه الفساد وذيله مانسميه الارهاب.

المسألة هى الزواج الكاثوليكى بين الفساد والارهاب.. بل ان الفساد والارهاب
اسمان لواحد مثل السيف والحسام.. والفساد نفسه إرهاب.. والعاهة المستديمة
التى اصابت الادمغة والعقول هى محاولة تسييس مايسمى الارهاب وحصره فى
عمليات تفجير هنا او هناك بهدف ضرب السياحة وهز الاستقرار.. رغم ان
التعريف الاوفق والاعم والادق للارهاب هو انه كل فعل باليد أو القلم أو اللسان
يروع الناس ويسفك الدماء ويهدر القيم والثوابت ويزدرى العقائد ويسفه الاحلام
ويهتك الاعراض ويستبيح الحرمات ويبيع الوطن بالمتر أو بالكيلو ويهمش الناس
ويقمع الفكر ويقطع الارزاق ويفسد فى الأرض.

وهكذا وبهذا التعريف تجد نفسك فى حضن الارهاب أربعا وعشرين ساعة فى
اليوم.. فالبلطجة و"البودى جاردز" ارهاب.. وسلوكيات الناس فى الشارع ارهاب..
والفن الجنسى السافر ارهاب وبرامج التليفزيون المنفلتة ارهاب.. واغتيال براءة
اطفالنا وخدش حيائنا فى عقر دارنا ارهاب.. وهروب ذوى النفوذ والسطوة
ومهربى الفياجرا واموال البنوك من يد العدالة ارهاب.. والطرق الجديدة فى
جرائم القتل والتمثيل بالجثث وممارسة العشق والجنس على قارعة الطريق
ارهاب.. وسكوتنا المشين على كل مانرى ومانسمع ليس سوى خوف من الارهاب.

كل فعل يتعارض ويتناقض مع قيم المجتمع هو فعل ارهابى مهما اطلقوا عليه من
اوصاف واسماء مثل حرية الرأى والابداع وطرح القضايا المسكوت عنها.. فالاغانى

العارية فى أمريكا ليست فعلا ارهابيا لانها منسجمة مع قيم المجتمع.. لكن ظهور
رجل فى احد شوارع واشنطن وهو يصرخ: أيها الامريكيون اتقوا الله وتحشموا
يعتبر فعلا ارهابيا لانه يتناقض مع قيم المجتمع.. فأهل الغرب يعتبرون ممارسة
الجنس فى ميدان عام حرية شخصية ينبغى احترامها.. لكن ارتداء فتاة للحجاب
أو النقاب عمل ارهابى لانه ضد تركيبة المجتمع.. انها قيمهم التى ينبغى ان نعترف
بها حتى لو رفضناها وقس على ذلك مايجرى عندنا لتكتشف ان كل افعالنا بهذا
المعيار ارهابية لانها تناقض تركيبة مجتمعنا.

***

والحكومة عندنا مثل رجل مشغول بعد فلوسه.. ومنهمك فى كتابة وتدوين
مصروفاته وايراداته وديونه وتوزيع راتبه على الجزار والبقال والفواتير ومصاريف
المدارس.. بينما لايرى النار التى تحيط به من كل جانب.. الحكومة تفرغت تماما
للاقتصاد والفلوس والوعود بفرص العمل وجذب الاستثمارات والخصخصة
والخطة والموازنة.. انها حكومة بعين واحدة ورجل واحدة ويد واحدة لاتصفق ابدا..
حكومة تعد الفقراء برخاء لايأتى وفرص عمل لاتتحقق وحلاقة مجانية غدا..
والغد لايأتى.. حكومة "تهشك" الاغنياء وتدللهم لعلهم يبيضون ذهبا.. لكنهم
يبيضون ذهبا خارج الوطن.. فهم "شجرة مرة تطرح برة".. وانشغال الحكومة فى
حسبة برمة الاقتصادية جعلها ترى وتقتنع بأن الحديث عن الاصلاح الاخلاقى
والثقافى والاجتماعى والكف عن سياسة الكيل بمكيالين أحدهما للاغنياء والاخر
للفقراء.. كل ذلك فى رأيها كلام فارغ ولاوقت له وهو ترف لاينبغى الحديث عنه
الا بعد الاصلاح الاقتصادى.. رغم ان الاصلاح الاقتصادى سوف يتحقق تلقائيا
ودون ان تتعب الحكومة نفسها اذا انصلح حال الانسان اجتماعيا واخلاقيا وامتلأ
شعورا بأنه عزيز كريم فى وطنه بصرف النظر عما فى جيبه.. أما اذا اهتزت قيم
المجتمع وشعر الناس بأنهم ريشة فى مهب الريح لاجذور لهم ولاثوابت فإن كل
خطوات الاصلاح الاقتصادى ستؤدى الى مزيد من الفساد وسيزداد الاغنياء غنى
والفقراء فقرا وسخطا وكفرا بالوطن نفسه.. وستجد الحكومة نفسها بحسن أو
بسوء نية مشغولة فى تسمين طائر "ابوفسادة" ومساعدته على التوالد والتكاثر..
وسينتظر الفقراء عام الرخاء بلا جدوى ليجدوا انفسهم ينتقلون من عام رمادة الى
آخر.. وسينتشر بين الناس نفس المنطق الذى ساد فى عام الرمادة على عهد
الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.. وهو منطق تعطل العمل بالحدود
الشرعية والقوانين.. ومنطق اباحة السطو على من يكتنز المال ويبخل به على
الفقراء فى محنتهم.. انه عام الرمادة الذى يجعل المحظور مباحا والحرام حلالا
وغير المشروع مشروعا.. وهكذا يكتسب الفساد منطقيته ويجد الارهاب الف

تبرير.. والفساد هو الارهاب.. والارهاب هو الفساد.. ومن عجب اننا نقول ان الارهاب مازال قويا وينبغى ان تكون هناك قوانين صارمة لمكافحته.. بينما نقول ان الفساد فى معدل الامان وليس ظاهرة.. والمنطق السليم يؤكد ان الارهاب لايكون قويا ومخيفا الا اذا كان الفساد ظاهرة خرجت على السيطرة.. وكان ابوفسادة سمينا وقادرا على التكاثر والتوالد.. لان هذا الطائر هو الوحيد الذى يلد ويبيض معا.

والارهاب مجرد تعبير بالقول أو الفعل عن الفساد.. وابوفسادة يفكر برأسه ويضرب بذيله وظهور الفساد فى البر والبحر نتيجة منطقية لما كسبت ايدى الناس.. وقد قال لى صديق سكندرى عبر الهاتف: اننا فاسدون بقولنا وعملنا وفاسدون أيضا بصمتنا واستسلامنا.. واعتبارنا الفساد أمرا طبيعيا لامفر منه وقضاء وقدرا.. وقد اعدت مئات المرات قراءة الآية الكريمة.. "واذا اردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا".. وهناك ثلاثة اقوال فى "أمرنا".. أولها الامر المعروف العادى.. وثانيها قراءة الكلمة بتشديد الميم "أمّرنا" أى جعلنا المترفين أمراء وسادة لهذه القرية.. والقول الثالث الذى أميل اليه هو "كثّرنا" باعتبار أن أمر تعنى كثر.. والتأمير هو التكثير.. وكثرة المترفين والفسقة الذين لايواجههم احد تؤدى الى الارهاب.. وهو نفسه التدمير "دمرناها تدميرا".. والمترفون والفسقة وأبناء أبى فسادة يكثرون بالسكوت والانصياع والخوف.. وفى النهاية "يتهد المعبد" على الجميع لان الفتنة لاتصيب الذين ظلموا خاصة.. بل تصيب ايضا من سكتوا ورضوا بالظلم والفساد الذى هو الارهاب والتدمير.. والنتيجة ان الظالم ضحية مرة واحدة لظلمه وفساده بينما المظلوم ضحية مرتين.. مرة للظالم ومرة لسكوته وخوفه وذله وانشغاله بتربية عياله ولقمة عيشه المغموسة بالهوان.

المسألة لاتحتمل السير مع القطيع "قطيعة تقطع القطيع".. لاتحتمل الخطباء والهتيفة "وكدابى الزفة" والاعلانات التى تقول: لا للارهاب.. لاتحتمل الاغانى والاناشيد لان ذلك كله يشبه شعر المناسبات الذى لاروح فيه ولاطعم له.. المسألة تحتاج إلى مبيد فعال لقطع رأس أبى فسادة وسيسقط ذيله تلقائيا عندما نقطع الرأس.. والمسألة تحتاج الى تشخيص سليم حتى يكون العلاج سليما.. ولاينبغى ان يغرينا ذيل السمكة لنأكلها.. بل يجب ان ننظر جيدا الى رأسها.. وعلينا ان نقطع رأس أبى فسادة قبل ان يسحقنا عام الرمادة.. ولو لم نفعل ذلك واكتفينا بالسير مع القطيع فإن أبا فسادة سيظل يغنى معى: قطيعة تقطع القطيع!!

رضينا بالهم فلم يعد عندنا دم!!

لا تنخدع بكثرة الضاحكين فإنها دليل على كثرة اليائسين والأغبياء والحمقى والثقلاء.. واليائسون والأغبياء هم أكثر الناس راحة لذلك يضحكون.. وهناك أقوال مأثورة وآيات وأحاديث فى ذم الضحك بوصفه دليلاً على البلاهة والغفلة.. وعلينا أن نعترف بأننا أصبحنا أثقل دماً لذلك صرنا أكثر ضحكاً حتى بلغت بنا البلاهة والحماقة حد الضحك على خيبتنا.. "أفمن هذا الحديث تعجبون.. وتضحكون ولا تبكون".

والقاعدة لم تشذ عندى مرة واحدة.. فأثقل الذين أعرفهم دماً هم أكثرهم ضحكاً وأعلاهم قهقهة وأكثرهم استخداماً لأيديهم فى المزاح وأقدرهم على تحويل دفة الحديث الجاد والأمور الخطيرة إلى قول هزل وأكثرهم كلاماً وأقلهم انصاتاً واصغاء.

ونحن نذم بعضنا الآن بقول عجيب ونقول: "فلان واخدها جد زيادة عن اللزوم".. أى أن أخذ الأمور بجدية أصبح ذماً وسبة ونقيصة ويفترض أن نأخذ الأمور باسترخاء وبساطة وسذاجة لأننا محتاجون إلى الفرفشة "وموش ناقصين نكد".. وينصحك الناس قائلين: "خللى عندك أمل" وهذا يعنى عندهم ألا تكف عن الضحك.. وألا تشغلك هموم عامة تأخذ بخناقنا وتجثم على صدورنا وتكتم أنفاسنا..

وهناك دعوة اسلامية إلى أن ألقى أخى بوجه طلق.. وطلاقة الوجه صدقة.. وهى لا تعنى أبداً أن ألقاه مقهقهاً وضاحكاً ولكن طلاقة الوجه تعنى اشراقه.. وهذا الاشراق لا تصنعه المساحيق ولا القسمات الوسيمة وانما الوجه الطلق مرآة لقلب مشرق وطلق نعبر عنه بأن فلاناً "اللى فى قلبه على لسانه" أو كما قال الشاعر أحمد رامى: الصب تفضحه عيونه.. وكما قالت أم كلثوم "اللى يحب يبان فى عنيه".. وكما قال الشاعر أحمد فؤاد نجم: وأنت عارفة عنيه صافية وطيبين.. زى كل عيون بلدنا.. شباكين عالقلب دوغرى موصلين.

وكثرة الضحك تميت القلب كما ورد فى معنى الحديث الشريف.. وموت

لب هو أن يصبح ردئ التوصيل لحرارة الأحداث ومرارة القضايا
لهموم.. وموت القلب هو فقد رقة الإحساس.. وقد تذكرت فى هذا المقام
ريم الكعبى وهى قارئة من الإمارات صارت الآن كاتبة صحفية ذات باع
ويل فقد تبنت الأستاذة مريم يوماً فكرة إقامة جمعية عربية أطلقت عليها:
معية الأمل.. وتحمست لها وأيدها قراء ومثقفون كثيرون.. لكنى مع نبل
كرتها وسمو غايتها قلت لها إن فكرة الأمل ضبابية لدى الناس.. وكثيرون
فهمون الأمل على أنه "الطناش أو التطنيش" وأن نسترخى ونهدأ ونضحك
نقول "ياباسط نلاقيها هاصت".. ونكون ممن ذمهم القرآن الكريم بأن
غرتهم الأمانى وخدعهم وغرهم الأمل.. وقلت لها إن الخيار الأفضل هو أن
نقيم جمعية الألم.

إن فى أمتنا العربية ملايين الآملين الذين غرتهم الأمانى وراحوا يضحكون
ملء اشداقهم حتى ماتت قلوبهم فاستمرأ الآخرون ضربهم على خدهم
الأيمن وخدهم الأيسر وعلى قفاهم.. لكن هذه الأمة فقدت معناها
ومضمونها ودورها وطعمها عندما اختفى البكاءون والمتألمون.. الذين
يستنكرون المنكر ويستقبحون القبيح.. ويأخذون على يد الظالم.. ويضربون
المفسدين.. وأعجب ما فى هذه الأمة أن تكثر فيها المبكيات ويقل فيها
البكاءون بل ويتضاعف عدد الضاحكين مما يدل على خلل فى المشاعر
ويؤكد شيوع الحماقة.. فالأحمق هو الذى يضحك فى موضع البكاء ويهزل
فى موضع الجد.

***

وقد نضب معين هذه الأمة من المبدعين فى السياسة والأدب والفن وفى
كل مجال بسبب كثرة الضاحكين وموت الذين يعانون ويبكون ويتقلبون على
الجمر كمداً وحزناً على حالنا.. فالإبداع فى كل مجال ابن صلبى وشرعى
للمعاناة والمكابدة والإحساس بالهم العام أو الخاص.. فالإبداع يصاحبه
دائماً ألم خلاق مثل آلام الوضع تماماً.. أى أن الإبداع يولد من رحم الألم لا
من الأشداق المفتوحة على مصاريعها ضحكاً وبلاهة.

وقد شغلنا الضحك كثيراً عن عيوبنا ونقائصنا.. حتى أننا جعلنا نقائصنا
مزايا نفخر بها مثل أننا شعب ضحوك.. يستطيع أن يحول همومه وأحزانه
إلى تهريج وضحك ونكات.. وقلنا عن الاستكانة والرضا بالذل طيبة وصبراً
وقوة تحمل وجلداً.. وبلغ أمر الاستكانة والذل أننا قلنا فى أمثالنا "رضينا
بالهم والهم موش راضى بينا".. حتى الهم "زهق" من استسلامنا له وتمرد

علينا ولا يرضى بنا.. ولا أحد منا يجيب بصراحة عن السؤال الكبير: لماذا
نرضى بالهم؟ لماذا نصادق المشاكل والكوارث والفساد؟ ولماذا يقول كل منا
للآخر "الإيد اللى ماتعرفش تعضها بوسها"؟

لماذا يصل الذل إلى الحد الذى جعل موظفاً يقول لرئيسه يوماً إنه حزين
جداً.. فسأله الرئيس: ولماذا أنت حزين؟ فقال الموظف: "لأن سيادتك لم
تشتمنى اليوم كالعادة.. يبدو أن مزاج سيادتك متعكر".. فضحك المدير أو
الرئيس وقال بصلف: طب اخرج من هنا يا ابن ال ....!!

وفى الوقت الذى كثر فيه الضاحكون والمهرجون وحققت فيه أفلام الهلس
والتهريج أعلى الإيرادات فى تاريخ السينما تبشرنا التقارير الدولية التى لا
أعول عليها كثيراً بأننا فى ذيل القائمة بالنسبة للتنمية البشرية.. وبأن
جامعاتنا خارج قائمة أفضل خمسمائة جامعة على مستوى العالم.. ويتدهور
مستوى التعليم إلى الحضيض ويتراجع الطب والأدب ويفقد اعلامنا
وصحافتنا وفننا ما كنا نسميه الريادة ونصبح تائهين فى الأرض والفضاء
بلا هوية ولا طعم ولا تأثير.

كل هذا وأكثر منه واسوأ حدث لأننا أصبحنا كالوارث الذى جلس تحت
شجرة وهو يرتدى خرقة بالية وملابس لا تستر عورته بعد أن بدد ثروته..
وراح يشير إلى المارة قائلاً: هذا كان خادماً عند جدى الباشا.. وهذا كان
يرعى غنم جدتى.. وهذا كان ابوه أجيراً عندنا فى العزبة التى اشتراها من
أبى الباشا.. وحين تسأله: وماذا حدث الآن؟ يقول وهو يهرش جسده: المهم
الأصل والحسب والنسب والتاريخ.

وأكثر الناس حديثاً عن التاريخ والماضى ليس لهم موقع جغرافى على الخريطة
فى الحاضر لأنهم سجنوا داخل ذواتهم وغرتهم الأمانى وصار مجدهم كله صوراً
تذكارية معلقة على جدران منزل قديم.. هؤلاء الناس اكتفوا بالضحك والحماقة
وأراحهم اليأس والغباء.. ولو أنهم يعانون ويتألمون لواجهوا أنفسهم وتمردوا على
أوضاعهم واعترفوا بأن الزمن تجاوزهم وبأن الخدم صاروا سادتهم وبأن "العيال
كبرت" وبأنهم لم يعودوا وحدهم فى الأرض والفضاء.

الألم من الواقع هو أول خطوة على طريق الإصلاح.. والألم هو الذى
يجعلنى اتحرك وأهرول واطلب العلاج.. الألم هو الذى يجبرنى على
الاعتراف بأننى مريض.. الألم هو الذى يحفزنى على اصلاح الخلل.. انه
نعمة من نعم الله علينا.. ولولاه ماتقدم الطب وماعرفنا العلاج.

***

رحم الله امرءاً اهدى إلى عيوبى.. وينبغى أن اثق كثيراً بمن يواجهنى
ائصى وأثق قليلاً بمن يكيل لى المديح.. فالأول يؤلمنى والآخر: يخدرنى..
أول صادق يحتمل أن يكون كذاباً والآخر كاذب يحتمل أن يكون صادقاً..
نا كشخص أو كدولة لا ينبغى أن أظل طوال الوقت أتغنى بانجازاتى
حقيقية أو الوهمية.. بل ينبغى أن أعدد عيوبى وعوراتى.. والكيس الفطن
س ذلك الذى ينشغل طوال الوقت فى جمع الغنائم وحصد المكاسب
اكتساب المزايا.. وانما الذى يقضى عمره كله فى محاولة اصلاح عيوبه
التخلص من نقائصه.. ولو أفلح فقد فاز.. ولو أخفق فإن شرف المحاولة
يكفيه.. ومحاولة تلافى النقائص واصلاح العيوب ميزة.. وأن يقلع الإنسان
عن السيئات خير من أن يكتسب الحسنات.. لأن الإقلاع عن سيئة حسنة..
وحين انظر نظرة فى النجوم أقول انى سقيم.. انظر حولى فأعود حزيناً..
ويرتد إلى بصرى خاسئاً وهو حسير.. لأن سؤالاً يدق رأسى كالمطرقة: هل
نحن تراجعنا أم تقدم الآخرون؟ ولو كانت الإجابة أننا بقينا فى مكاننا لم
نتراجع ولم نتقدم بينما تقدم الآخرون.. فإنها أيضاً اجابة مؤلمة.

لم يعد يجدى أن اظل اقول ليل نهار اننى الأعظم والأقوى والأكبر والأهم واننى مركز الدائرة وأن كل الأمور تجرى باشارة من اصبعى.. فالأحداث والوقائع ومجريات الأمور تكذبنى وتسخر منى.. واستعظام الذات وتورم النفس يعمينى عن الحقيقة الدامغة التى تقول اننى اتحرك داخل حذائى وأظن أننى أتقدم وأكسب أرضاً بينما هرول الآخرون وسبقونى.. لم يعد يجدى أن انزوى فى ركن مظلم وأشير إلى الذين كبروا وصاروا نجوماً ساطعة وأقول: أنا استاذهم.. كلهم تلاميذى.. أنا علمتهم وأدبتهم وربيتهم وانفقت عليهم من مالى.. "طب وبعدين؟" هذا دائماً كلام من انتهى دوره ومهمته وتمدد على فراشه فى انتظار الموت.. هذا الكلام يعنى اعترافاً واضحاً منى بأن رصيدى كله مجرد ماض غابر وذكريات لا تسمن ولا تغنى من جوع.

لقد كنا يوماً ما صناع خبر وحدث وكان العالم كله يتلقف أخبارنا وأحداثنا التى نصنعها أو نشارك فى صنعها.. بصرف النظر عن رأينا إن كانت احداثاً كارثية ومصائب ونكبات أو أحداثاً وأخباراً عن انتصارات وانجازات حققناها.. أما اليوم فإننا نستهلك أخبار وأحداث الآخرين كما نستهلك بضائعهم.. لم نعد نصنع شيئاً.. لم نعد ننتج سلعاً ولا أخباراً ولا علماً ولا أدباً ولا فناً ولا فتاوى ولا دعوة إلى الله.. بل لم نعد ننتج حتى النكات اللماحة الظريفة التى كانت تثير الإعجاب والدهشة قبل أن تثير الضحك.

ولا فرق بين الأمس واليوم سوى أن "اللى اختشوا ماتوا".. وسباقنا اليوم ليس على الانجاز والإبداع ولكن على البجاحة والوقاحة والاستظراف والاستخفاف والنفاق.. نحن نتسابق على السيولة والميوعة باسم الحرية.. والمضحك المبكى أن الحرية المسموح بها فى أمتنا والتى ليس لها سقف هى حرية الخطيئة والمجون وخلع الملابس قطعة قطعة..

***

الحرية المسموح بها هى الانفلات بلا قواعد.. أما الحرية المسئولة.. أو حرية المتألمين والموجوعين والبكائين الذين يريدون تغيير المنكر واستعادة الهيبة والجدية فهى حرية محظورة. وعلى احرارها ألف رقيب.. ولايتصورن أحدكم أن الجدية تعنى العبوس والنكد والنواح "فى الفاضى والمليان".. لكنها تعنى الوقار والرقة فى المزاح وفى الجد.. والجادون لو تعلمون فى منتهى خفة الدم.. لأن تعليقاتهم تلقائية وفى موضعها تماماً.. وليسوا ممن يقال عنهم الآن أصحاب "الإفيهات".. ولا أريد أن اضرب امثالاً بأفلام السينما ونجومها أو ببرامج "الشو" ونجومها لأن هؤلاء يحبون من يهاجمهم ويذكر اسماءهم فى موضع السب والقذف لأنهم يطبقون المبدأ الراسخ "إذا لم تستح فاصنع ماشئت أو فافعل ماشئت".. لكنى دائماً ألوم الجمهور الذى فقد الذوق والحس المرهف والقدرة على الفرز والانتقاء.. وما نجوم الإفيهات والشو إلا إفراز طبيعى لجمهور أبله أحمق مضحوك عليه وضاحك على خيبته.. ولو أراد أعداء هذه الأمة أن يطمئنوا "ويحطوا فى بطونهم بطيخة صيفى".. فليرسلوا مندوبيهم ورسلهم لاستطلاع الأمر فى دور السينما وأمام شاشات التليفزيون لأنهم سيرون جيوشاً من البشر تتقاتل على أفلام الهلس وتحدق فى برامج الشو.. بينما يرون باعة الجدية والألم والبكاء على حال الأمة.. بلا زبائن.

الجدية ليست العبوس والنكد وهو ماعبر عنه سيدنا يحيى بن زكريا عليه السلام عندما لقيه رجل وقال له: مالى أراك باسماً كأنك ركنت إلى الدنيا وبعت الآخرة!! فرد يحيى عليه السلام: ومالى أراك عابساً كأنك قانط من رحمة الله!.. وحاش لله أن يكون يحيى هازلاً أو مهرجاً وأن يكون الرجل الآخر جاداً فقد كان يحيى نبياً وكان جاداً وكان بكاء من خشية الله.. وابتسامته اشراقة وجه نابعة من طلاقة القلب ورقته.

إن أوضاعنا المقلوبة والمتردية فى كل مجال تصرخ فى كل فرد بهذه الأمة العابثة أن يعيد النظر وأن يتأمل ويتألم وأن يبكى ليفيق وإذا لم يستطع أن

يبكى فعليه أن يتباكى حتى يتدرب على البكاء.. كما يتضاحك الآن ويصطنع القهقهة ليتدرب على الضحك.. ولقد اختبرنا اعداؤنا كثيراً بالإذلال والعسف والتعذيب وانتهاك الأعراض والمقدسات وساموا سوء العذاب.. يذبحون أبناءنا ويستحيون نساءنا.. وتمادوا عندما لم يطرف لنا جفن ولم تدمع لنا عين.. ورأونا نمضى فى ضحكنا وهزلنا فاطمأنوا وناموا مرتاحين ومضوا فى طغيانهم يعمهون.. كما استمرأ الطغاة والمستبدون والمفسدون فى الأرض ظلمهم وفسادهم عندما اطمأنوا إلى أننا فقدنا مشاعرنا وتمادينا فى عبثنا ولم نعد نستنكر أو نستقبح أو نغضب أو نتمرد على أوضاعنا السيئة.. لقد رضينا بالهم وزهق الهم من رضانا به وذلنا وهواننا.. ومن يرض بالهم فليس عنده دم ونحن رضينا به ففقدنا خفة الدم.. بل لم يعد عندنا دم..!!

زبون الخالة حيزبون!!

لا تفزعوا فجذوركم ضارية فى الأرض لا تقتلعها العاصفة.. واذكروا حكاية الطفولة التى كنا نسمعها دائماً ولا نفهم مراميها.. وعرفنا المعنى عندما كبرنا.. إنها «حدوتة» السباق بين الشمس والريح من منهما أقوى من الأخرى.. وقررنا اختبار قوتيهما من خلال رجل يرتدى معطفا.. من منهما تجبره على خلعه.. وزمجرت الريح واستجمعت كل قصفها وعصفها فازداد الرجل تشبثا بمعطفه وفشلت الريح.. وضحكت الشمس وحملقت فى الرجل بأشعتها فما لبث أن تخلص من معطفه.

ونحن فى عصر الريح التى تود أن تعصف بنا وتهب علينا من الأرض والفضاء لكننا نزداد تشبثا وتمسكا بمعاطفنا وأرديتنا ويكثر فينا القابضون على ثيابهم.. لذلك فإن قصف الريح يسعدنى ولا يفزعنى.. حتى لا تتراخى قبضتنا على معاطفنا.. فلماذا تفزعون من أمير الفضاء وجاريته الخالة حيزبون وصديقاتها الحيزبونات اللاتى يلتقين على موائد الفضاء الحمراء بأمر أمير الأمراء؟ على رسلكم وأعلموا أن ما ترونه شراً لكم هو خير لكم.. ولا حاجة بنا إلى من يسقط فى الطريق وتجبره رياح أمير الفضاء وجاريته الحيزبون على خلع ثيابه.. فهى معركة فاصلة نحن مقبلون عليها ولن يصل إلى ميدانها وساحتها الأخيرة إلا من تشبثوا بمعاطفهم.. أما من شرب من النهر الذى ابتلينا به فليس منا ولن يحارب المعركة الفاصلة معنا.. وإذا كنا الآن فئة قليلة فإننا غالبون بما أفرغ الله علينا من صبر وجلد وتثبيت وتمسك بثيابنا.

وما تشاهدونه ليس مفزعا ولا مخيفا.. بل هى البشرى باقتراب خطانا من الساحة النهائية للمواجهة.. وانهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.. فلا جدوى ولا نفع من الهجوم أو العتاب أو ارسال خطاب إلى أمير الفضاء وجاريته الحيزبون.. أو مجموعة الحيزبونات الفضائيات.. إنهن يعشقن الهجوم عليهن ويزددن إصرارا واستكبارا.. واننا كلما دعوناهم جميعا جعلوا أصابعهم فى آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا.. وان الدعوة ينبغى أن نواجهها إلى زبون الحيزبون الذى يستمر أمامها كالأبله.. وفى الماضى عندما وقعت أحداث يناير عام سبعة وسبعين تصديت بمنطقى لمن انهالوا على الملاهى الليلية تحطيما وتخريبا وقلت لهم: إنها ستعود أبهى واكثر بريقا مما كانت مادام هناك زبائن.. فاصرفوا عنها الزبائن إن استطعتم وسترونها بعد ذلك خرابا يبابا دون أن تتجشموا مشقة العنف والتحطيم والتخريب.

لا حاجة لقتل الأشرار والمفسدين.. فقتلهم أو حتى إظهار الفزع والرعب منه انتصار

ساحق لهم.. لكن الحاجة ماسة إلى إسكات من يهتفون لهم ومن يباركون شرهم وفسادهم ومن يحملقون فى فضائحهم.

الحاجة ماسة إلى أن نخاطب الزبون لا إلى أن نخاطب أمير الفضاء والخالة حيزبون.. الفلوس أيها الأعزاء بلا دين واللاهث خلفها بلا ملة.. فهو يطلبها كافرا وينفقها مؤمنا يغسل أمواله.. ويدارى بها عورته عن خلق الله ولكنه لا يداريها عمن يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.. وهؤلاء يغسلون أموالهم بنا.. وبتلويثنا.. ويركبون إلى الفلوس قيمنا وأخلاقنا ويطأون فى الطريق إليها ثوابتنا وأعرافنا.

***

وإذا أردت أن تعرف الحيزبون فإنى دالك عليها.. فليس بزيها وشكلها وملامحها تعرف الحيزبون الآن.. فى عصر الشد والنفخ والمساحيق والفلاتر وخداع الكاميرا والملامح والقسمات الصناعية وإنما هى خصال لا تستطيع الحيزبون أن تخيفها مهما شدت ونفخت ومارست (التتطيط).. والحيزبون إذا تابت أو أقلعت رغما عنها ويحكم السن عن الرذيلة فعلا.. فإنها (تهجص) أو ما شئت من قول آخر.. وتمارس الفجور قولا.. والحيزبون أيها الزبائن المخدوعون هى تلك التى يجف ضرعها وزرعها ويضيق ذرعها.. وينفتح فيها ما كان مغلقا وهو فمها وينغلق ما كان مفتوحا.. ويتسع ما كان ضيقا ويضيق ما كان متسعا.. ويصبح حدثها حدثين.. حدث من فيها وحدث من فرجها.. كما قال عبدالله بن عباس رضى الله عنه.

ويقال ان خير نصفى الرجل آخرهما.. حيث يذهب بالكبر جهله ويثوب حلمه ويجتمع رأيه.. وان شر نصفى المرأة آخرهما إذ يسوء بالكبر خلقها ويحد لسانها وتعقم رحمها ويقول الشاعر عن امرأة حيزبون: وإن أتوك وقالوا إنها نصف.. فإن أطيب نصفيها الذى ذهب.

وتقول العرب فى أمثالها: أفجر من ظلمة وأقود من ظلمة.. وظلمة هذه فاجرة.. مارست الزنى وهى شابة فلما أسنت وصارت حيزبونا قادت.. فلما قعدت وأصابها العجز اشترت تيسا وكانت تنزيه على عنزها.. وتنزيه على العنز أى تجعله يثب عليها لتستمتع بالمشهد- فلم يعد لها من أدوات الفجور سوى لسانها وعينيها.

والحيزبونات اكثر الناس جرأة وفجاجة فى حديث الجنس.. فهن يستخدمن من اللسان كتعويض عن جفاف الزرع و الضرع وانقطاع الماء والكهرباء عنهن.. وقد كانت امرأة تكثر من اللجاجة والخصام وتسلق زوجها بلسان حاد.. وكان الزوجان قد كبرا وبلغا مرحلة (الحزينة) أى صار كل منهما حيزبونا.. وفشلت كل جهود الإصلاح بينهما.. وكان الزوج يستمع إلى فحش زوجته ووقاحتها فلا يلقى لذلك بالا، فقال له صاحبه: أليس هناك ما يصلح بينكما؟ فأجاب الزوج بهدوء: لقد مات عندى وعندها ما كان يصلح بيننا!!

وأكثرت امرأة حيزبون مرة من حديث الجنس فى جمع من الناس داخل وسيلة مواصلات وراحت تتحدث عن تفاصيل المعاشرة وتضحك ميوعة محاولة عبثا استدعاء ما ذهب من الشباب الغابر.. فنهرها أحد الشباب قائلا: تحشمى يا خالة.. فقال له رجل فى

منتصف العمر.. لقد تهشمت فتحشمت وما أبقى لها الزمان إلا لسانها.. فاتركه لها فإنه لا يجدى.

ويقال إن الرجل إذا شاخ على الفجور يزنى بعينيه وان المرأة إذا شاخت وصارت حيزبونا تزنى بلسانها لأنها صارت فرسا عجفاء ليس لها ولا عندها إلا الصهيل.. ولا جدوى من ركوبها إلى بغيتك لأنها عجفت وعقمت وهزلت ولن تصل بها إلى هدفك.. فلم يعد لها أيطلا ظبى ولا ساقا نعامة ولا إرخاء (سرحان) ولا تقريب تتفل.

***

وتوبة الحيزبون لا تجدى لأن المعاصى تركتها والرذيلة هجرتها.. فالحيزبون متروكة وليست تاركة أما الصبية المليحة والشابة الصبيحة فتوبتها صادقة لأنها تاركة المعاصى والرذائل وليست متروكة.. وأكثر الناس حزنا على ذهاب الشباب هم الذين أمضوا شبابهم فى الرذائل والانحراف.. فهؤلاء تركتهم المعاصى ولم يتركوها.. إنهم لايحزنون لضياع الشباب فى ذاته ولكنهم يحزنون لأن الرذيلة هجرتهم.. وهؤلاء المكلومون والمتألمون لضياع الشباب وهجر المعاصى لهم.. يرفضون التعايش مع مرحلة «الحزينة» والشيخوخة.. ويحاولون الامساك بتلابيب شباب مزيف يصنعونه صنعا بالشد والنفخ والمساحيق وتقصير ما كان طويلا وتطويل ما كان قصيرا وهو اللسان.. لكن الزمن لايغلبه أحد.. وفى أى اختبار عملى للقدرة على المعصية والشرب من نهر الرذيلة.. تسقط الحيزبون وتبدو أمامها الحقيقة المرة.. فتقرر استخدام لسانها بدلا من كل أعضائها التى جفت وعجفت.

وأصدق التوبة هى توبة القادر على المعصية وارتكاب الذنب.. واكذب التائبين هم العاجزون عن الذنوب والمعاصى والرذائل.. فهؤلاء تابت عنهم ومنهم الذنوب ولم يتوبوا منها.. وبعد ان كان الشيطان يسكن نصفهم الأسفل ويعمل بوابا فى بدروم أجسادهم فإنه «يلم عزاله» بعد ان طفحت المجارى فى البدروم وصارت الرائحة لا تطاق ويقرر السكن فى سطوح اجسامهم حيث الرأس واللسان.

وأجمل الناس نفسا وجسدا هم الذين يعيشون سنهم بالضبط بلا ردة لشباب ضائع وبلا قفز إلى شيخوخة لم تأت بعد.. لكن إذا كان لابد من الاختيار بين اثنين فاننى أفضل الشاب المتشايخ على الشيخ المتصابى.. أفضل فتاة بوقار العجوز على عجوز حيزبون فى رداء وبلسان الشباب.. فتلك الحيزبون لا تملك من الصبا إلا رداء وجسما صناعيا ولسانا وقحا.. وكلمات الفحش والرذيلة لا تخرج من فم صبية حتى إذا كانت منحرفة فإنها تحاول ان تكتفى بالحياء والخجل على لسانها.. فهى لديها بضاعة رائجة لا تحتاج إلى لسان فاحش لزيادة الاقبال عليها.. أما الحيزبون فإن بضاعتها كسدت ودكانها اغلق.. فصارت بائعة جائلة تعرض بضاعة مضروبة تنادى عليها بلسانها بينما لا يعيرها الزبائن اهتماما.

وعليك ان تضحك ولا تفزع ولا تخف.. اضحك ملء فيك عندما تتابع الحيزبونات العاملات لدى أمير الفضاء.. أضحك وأن تسمع دروسا فى الثقافة الجنسية وطرق المعاشرة وكيفية الاستلقاء على السرير.. تسمعها ممن جف زرعهن وضرعهن وانقطع

ؤهن وتيارهن وفشلن فى الاحتفاظ بأزواج هربوا بجلدهم بعد ان شربوا المقلب وتوهمن
تحت القبة شيخا فإذا به شيخ لم يترك له الزمان إلا اللسان وبعض ما حاول العطار
ىلاحه.. فطار الزوج واسلم ساقيه للريح وهو يقول: لا يصلح العطار ما أفسد الدهر.

***

اضحك وانت تتابع ولا تخف ولا تفزع.. فأنت وهى تحصلان على ثقافتكما الجنسية من
طلقات وشاذات نفسيا.. رقصن على السلم فلا أصبحن رجالا ولا صرن نساء.. أنت
هى إذا انخدعتما وصرتما من زبائن الحيزبون فإن مصيركما مثلها.. طلاق وفشل
رقص على سلم النوع البشرى وسينطبق عليكما قول الشاعر:

أعمى يقود بصيرا لا أبا لكمو .. قد ضل من كانت العميان تهديه

اترك الريح تعصف والرعد يقصف ولا تبال فالزبد يذهب جفاء.. ولا تصدق قولهم انها
الجرأة التى تجعلهم يطرحون القضايا المسكوت عنها بهدف توعيتك وارشادك ولكنهم يا
صديقى يعلمون وانت ينبغى ان تعلم انهم يبيعونك بضاعة ليكسبوا فلوسا ونجومية لا
ليزداد وعيك وتكتسب علما.. فالقضايا المسكوت عنها غريزة يعرف تفاصيلها الحيوان
والحشرة وطوب الأرض.. ونحن لا نسكت عنها جهلا ولا نقص وعى، ولكننا نسكت عنها
حياءً أصيلا زرعه فينا ديننا الإسلامى أو المسيحى أو اليهودى.. زرعه الله فينا.. نسكت
عنها لأن الاستتار والاخفاء والخفر والحياء يعطى المسكوت عنه عذوبة وجمالا ووقارا
وهيبة.. والسافرة ليست تلك التى ارتدت ما يشف وما يكشف فقط.. ولكنها تلك التى
خلعت رداء الحياء والخفر والدلال والتمنع.. حتى لو ارتدت نقابا أو خمارا أو حجابا..
فأجمل ما فى المرأة أنها ممنوعة ومتعالية وثمرة مستعصية على القطاف والجنى إلا
بحقها وحلالها.. وأسوأ ما فيها حتى لو كانت ملكة جمال الكون انها متاحة ورخيصة..
ويقولون: أسوأ ما فى الرجل هو نفسه أجمل ما فى المرأة.. وأسوأ ما فى الرجل الكبر
والتعالى والتمنع.. وهذه الأشياء والصفات هى نفسها أجمل ما فى المرأة.. الرجل ينبغى أن
يقول قولا لينا رقيقا.. بينما المرأة مأمورة بألا تخضع فى القول ولا تلين بالصوت فيطمع
الذى فى قلبه مرض.. فما بالك إذا كانت تلك المرأة حيزبونا فانية بلغت من العمر أرذله أو
كادت ثم تراها تمارس الدلال والدلع والتنطيط وتزنى بلسانها..؟ انها ستكون منفرة ومقززة
وفى غاية السماجة والرذالة وثقل الدم بالنسبة لذوى النفوس السوية والعقول السليمة..
أما أصحاب الفطرة المعوجة والقلوب المريضة والذين لم يعد لديهم فى بنك الجنس إلا
لسان وما أكثرهم فإن الحيزبون تثيرهم وتجد منهم عيونا محملقة وآذانا مصغية.. وما
أكثر هؤلاء فى زماننا.. زمان النوم فى العسل.

وعندما يتابع هؤلاء النائمون فى العسل لقاءات الحيزبونات التى يرعاها أمير الفضاء
يظنون أن النائم سوف يستيقظ والمنطفىء سوف يشتعل والرماد سيعود نارا.. لكن هيهات
ان تبعث الحيزبونات من مات فيهن وفى زبائنهن.. وإلى هؤلاء الآملين فى سراب أقول:
عليكم بحبة زرقاء تكسبكم ثقافة تفتقدونها.. فلا جدوى من شحن بطارياتكم عند
الحيزبون واعلموا ان فاقد الشىء لا يعطيه.

"بالهنا والشفا" أيها الثيران

هذا الأمر ضد مصلحتى.. وهذا الموقف فيه مصلحتى.. والسياسة العاقلة تراعى المصالح العليا أو السفلى للوطن والأمة.. والحياة مصالح.. ونحن نفعل مافيه صالحكم وصالحنا.. وكل ما يتعارض مع مصالحنا نرفضه.. وماكان يصلح بالأمس لايصلح اليوم..
كم مرة فى اليوم تسمعون وتقرءون هذه الجمل؟ وبالتأكيد أنتم جميعا مقتنعون بها.. لأن العرب فى كل زمان ومكان وأنا منهم لديهم نقيصة وآفة هى أنهم قوم يألفون ويعتادون ويتعايشون مع الحلوة ومع المرة.. وهذه الآفة قتلت عندنا فضيلة إعادة النظر والتمرد على فعل أو قول أو موقف.. قتلت عندنا الشك والارتياب والمراجعة ومحاسبة النفس والآخرين وجرد المخازن فى عقولنا.. لذلك كسب الجميع الرهان علينا وحاربونا بالتسويف واللعب بعنصر الوقت وهم على يقين بأننا سوف نتململ قليلا ونغضب بعض الشىء ونصرخ يوما أو شهراً ثم ما نلبث أن نعتاد ونألف ونتعايش وتتحول الكارثة أو المأساة إلى طقس يومى معتاد فى حياتنا.. ويتدحرج ما كان فى بؤرة الشعور إلى الهامش.. يتكرر المشهد المأساوى أمامنا فى اليوم مائة مرة فلا تطرف لنا عين ولاتتسارع دقات قلوبنا ولا تسقط دمعة واحدة من المآقى.. فما كان فى بدايته صدمة أصبح عادة وما كان فى أوله كارثة صار مألوفا ومعتادا لايلفت النظر ولا يسترعى الانتباه ومنذ عشرات السنين نسمع ونقرأ أن السلام قادم لامحالة وأن هناك جهودا واتصالات ومشاورات وقمما ولجانا بهدف تحقيق السلام الدائم والعادل والشامل فى الشرق الأوسط.. ويقول المراهنون علينا وعلى قدرتنا على الاعتياد والألفة.. إن السلام سيتحقق بأسرع وقت ممكن وإن الانسحاب الأجنبى من العراق سيتحقق أيضا فى أسرع وقت ممكن.. وإن الاصلاح فى كل الدول العربية سيتم فى أسرع وقت ممكن.. وإن الوصول الى الحقيقة فى الجرائم والكوارث سيكون فى أسرع وقت ممكن وكل شئ خاص بالعرب يسبقه "سوف" وينتهى بكلمة أو عبارة "فى أسرع وقت ممكن".. وكلمة "ممكن" هذه صارت تعنى "مستحيل".. وأصبحت على يقين بأن هذه العبارة "فى أسرع وقت ممكن" تعنى أن شيئا لن يحدث وأن المسألة كلها ليست سوى رهان على اعتيادنا وتآلفنا وعلى ذاكرتنا التى سرعان ما نفقدها بعد كل مصيبة.

وقد وعت الحكومات العربية الدرس جيدا وعرفت "آخرنا" وأننا سنهتف قليلا ونصرخ ونتظاهر ونسخط وربما نسب ونشتم بعض الوقت ونبكى يوما أو بعض يوم وينتهى الأمر إلى عودة ريمة لعادتها الجديدة القديمة وهى الألفة والتآلف والاعتياد.. وتعود كل المياه إلى مجاريها ويمضى النهر فى جريانه من منبعه الى مصبه دون أن يحدث ما يعكر الصفو.

ولا أريد أن أعدد المصائب والكوارث والحوادث والأحداث والدماء التى تسفك

والأعراض التى تنتهك والجرائم التى ترتكب فى حق الشعوب فهى أكثر من أن تحصى وليس منكم من يجهلها.. لكن المدهش حقا أن أقل هذه الكوارث لو وقعت لدى شعوب حية لقلبت الدنيا رأسا على عقب ولكنها عندنا لاتحرك شعرة فى رأس مسئول ولا تجعل عربيا واحدا يتوقف مع نفسه ليتساءل: ما هذا الذى يحدث لنا ويحل بنا؟.. فنحن على ما يبدو أمة أليفة مستأنسة لايعنيها شئ وكلما وقعت واقعة نردد مثلنا الشعبى الأثير بمنتهى اللامبالاة: "ياسيدى ياما دقت عالراس طبول".

"فيكم من يكتم السر؟" أنا أكره أحيانا أننى عربى لأننى مصاب بما أصاب كل عربى وهو داء الألفة والتآلف والاعتياد واللامبالاة بالطبول التى تدق على الرأس - ولأننى مخدوع مثل أى عربى بأن الخير والسلام والرخاء "وكل الحاجات الحلوة" سوف تتحقق بأسرع وقت ممكن - ولأننى كدت اقتنع بأنه ينبغى على المرء أن يفعل ما فيه مصلحته وأن السياسة مصالح - وأن ما كان يصلح بالأمس لا يصلح اليوم - "وهى الحياة إيه غير شوية مصالح؟" - كدت اقتنع لولا أن لدى بقية لا ترى بالعين المجردة من فضيلة التأمل وإعادة النظر والجرد.. تلك الفضيلة التى جعلتنى أفيق على خطورة القول بالمصالح ورأيت أنها دعوة خبيثة أو بلهاء لتمييعنا وضرب ثوابتنا وقيمنا.. بحيث نميل مع الريح ونتراقص مع النسمات ونغير قبلتنا حتى فى الصلاة وفقا للمصالح - ونسقط من قاموسنا فريضة الجهاد - جهاد النفس وجهاد العدو.. وجهاد الإبداع والخلق.. ونسقط فضيلة التفكير والتأمل والتدبر - ونسقط الدين أيضا- لأن الدين قديم ومتخلف وكان يصلح للأمس لكنه اليوم لا يصلح لأن الظروف تغيرت والمصالح اختلفت - ومصلحتى هى التى يجب أن تكون دينى وملتى ومبدئى ولأن المصالح متغيرة فإن علينا أن نكون مع الأقوى والأغنى وألا نعاند من إذا قال فعل وأن نسبح مع التيار وأن ننافق الراكب حتى إذا نزل وترجل نافقنا راكبا غيره لأن فى يده مصلحتنا.

وعندما تكون مصلحتى هى دينى وملتى فلا تسألنى عن قيم وثوابت وأصول ولا تسألنى عن وطن ولا عن تضحية ولا عن انتماء.. فمصلحتى مع إسرائيل أو مع الشيطان أو مع أمريكا - أنا مع مصلحتى فى أى اتجاه وفى أى مكان تكون فيه "شوف مصلحتك ياسيد".. وأنا فى حالة انتمائى وولائى لمصلحتى.. يحق لى أن استخدم كل وسيلة لبلوغها.. يحق لى أن أفسد فى الأرض وأن اهتف للاستبداد والفساد وأن اداهن وأنافق واتلقى الرشوة أو أقدمها.. وأن أسلك كل الطرق الملتوية والمظلمة.. فلا تلمنى وأنا مع مصلحتى.

وعندما تكون المصلحة هى الدين فلا بد أن يحدث ما نحن فيه من تضارب مصالح وانتشار واسع للفساد والخراب فى طول الأمة وعرضها والتنافس والهرولة إلى مزاد التنازلات وخلع الملابس قطعة قطعة والارتماء فى احضان العدو.. بل والاستقواء به ضد بعضنا البعض. ومصلحة الحاكم فى الأمة أن يظل حاكما ومصلحة المحكوم أن يسكت على الظلم والاستبداد والعسف والطغيان والذل ليحفظ حياته "ولقمة عيشه".. لذلك تستمر الأوضاع السيئة فى أمتنا العربية.. فريق يستفيد من استمرارها وفريق يخاف على

مصلحته وحياته ولايقوى على الجهر برفضه لهذه الأوضاع السيئة.. وهذا الفريق الأخير يبرر عجزه وخوره وذله وهوانه بأن الأوضاع السيئة والحكومات الفاشلة والمفسدين فى الأرض قضاء وقدر وإننا نستحق ما يحدث لأن الله غاضب علينا وعلينا أن نصبر ونحتسب.. لأننا سنأخذ أجر الصبر.. ولا فرق فى فولكلورنا الشعبى والرسمى والسياسى بين الصبر والذل وبين التحمل والهوان.. وبين الرضا والعبودية والمصالح مقاسات ولها ترزية مختصون بتفصيلها وعندما تتعارض هذه المصالح وهى غالباً متعارضة يتهم كل طرف غريمه بأنه يسعى إلى مصالح ضيقة.. مما يعنى أن هناك مصالح واسعة ومصالح "اكس لارج".. والمتحدثون عن المصالح يرون أنهم واقعيون وعقلانيون ويضحكون كثيراً من هؤلاء الخياليين أمثالى الذين يتحدثون عن القيم والمبادىء والوطنية والقومية والعروبة والوحدة.. يقولون إن هذا كله كلام فارغ وأننا لم نجن شيئاً سوى الخيبة والهزيمة من جراء هذه المبادىء الفارغة.

وهذا يقودنا إلى آفة عربية أخرى وهى أن الفشل فى التطبيق يعنى عند العرب أن النظرية مغلوطة وينبغى إلغاؤها واستبعادها والبحث عن أخرى مما جعلنا فى حالة تجارب لا نهاية لها.. لأننا دائماً نفشل فى التطبيق ولا نعترف بفشلنا فنتهم النظرية.. وأخيراً اهتدينا إلى نظرية المصالح بدلا من المبادىء والثوابت والقيم ورحنا نملأ الناس يقينا باطلا عبر الإعلام وتصريحات المسئولين بأن المصلحة هى التى تحكمنا وتوجهنا وتحدد طريقنا.. وبالتالى فإننا مطالبون بالتحالف مع الشيطان من أجل مصالحنا ومصالح الوطن.. كما قال رئيس الوزراء البريطانى الاسبق وينستون تشرشل.

ونظرية المصالح أوقعت الأمة فى شر أعمالها وصارت تخرج "من نقرة لتقع فى دحديرة" فقد سالت وتبخرت تماما فكرة الوطن وقيمة الأمة لصالح المصالح وبات سكان الوطن الواحد مجموعة جيران بينهم مصالح.. يكرهون بعضهم ولكنهم مضطرون للتعامل معاً من أجل المصالح.. وصار الوطن الواحد جزرا منعزلة.. كل جزيرة لها مطالب ومصالح.. فهذه جزيرة القضاة.. وتلك جزيرة الصحفيين.. وجزيرة الأقباط وجزيرة المسلمين.. وجزيرة رجال الأعمال والأغنياء والحيتان.. أما الفقراء فإنهم بلا جزيرة فى الوطن ولكنهم موزعون كتركة أو متاع أو كقطعان الماشية يملكهم من يروضهم ويضحك عليهم ويستخدمهم كأدوات وعصى ليحارب بهم معركة المصالح.. وهؤلاء الفقراء يرفضون أن يفيقوا ويستيقظوا ويأبوا أن ينفضوا عنهم تراب الذل ويتمردوا على وضعهم كقطيع ماشية يسوقه أهل الجزر المنعزلة إلى حيث أرادوا.

وعلى مدار التاريخ ومنذ أصبحت مصر وطنا واحدا على يد الملك مينا بذلت محاولات مستميتة لبعثرة هذا الوطن وتقطيعه.. لكنها باءت بالفشل.. وكان هناك دائماً لعب بورقة الأقليات والأديان والصعايدة وأهل بحرى.. ولكن كل ذلك تبخر ولم يؤت أكله ولا ثماره حتى اهتدى الراغبون فى تمزيق الوطن إلى لعبة تقسيم أخرى على أساس المصالح والمكاسب.. فاستحدثوا صراع العمال والفلاحين مع الاقطاعيين رغم أن مصر لم يكن فيها يوما اقطاع بالمعنى الذى عرفته أوروبا فى عصورها الوسطى عندما كان النبلاء

والاغنياء يملكون الأرض ومن عليها من بشر وما عليها من حيوانات.. وفشلت "الحدوتة" أيضاً فاستحدثوا صراع النوع البشرى بين الرجل والمرأة.. وهو صراع مازال قائماً لأن إذكاءه والنفخ فيه يتم بشكل رسمى وتتبناه الدولة نفسها.. ثم استحدثوا الصراعات الفئوية.. كالقضاة والصحفيين والنخبة السياسية والنخبة الثقافية.. وكل هذه الصراعات تجرى بناء على اجندات وافدة لا تصلح لتربتنا.. ومع ذلك فإنها أحدثت جروحاً غائرة فى قلب الوطن وتنذر بخطر داهم.. لان صراع المصالح والامتيازات والسلطات لا يلقى بالاً إلى الوطن كمعنى ولا إلى الأمة كقيمة.. ومبدأ.

والخطر يأتى من الغيبوبة التى نعيشها نحن عامة الناس.. يأتى من غياب وعينا بما يحاك لنا بليل.. وأنا لست من المؤمنين بالتفسير التآمرى للأحداث والوقائع.. لكنى مؤمن بأن المؤامرة الحقيقية يصنعها سكوتنا وتؤججها غفلتنا.. والغر الأحمق الغافل هو الذى يصنع ويخلق من يخدعه ويضحك عليه.. على طريقة "سكتنا له دخل بحماره".. فمن حق من تسكت على تطاوله وقلة أدبه أن يدخل بيتك بحماره.. ودخولك البيت راكباً حمارك سلوك معيب وضد الكرامة لدى أهل الريف.

والتآمر حق مشروع للجميع باعتبار أن العالم كله الآن فى حالة حرب جديدة تماماً وهى مزيج من الحرب الباردة والساخنة.. والحرب بكل أنواعها خدعة.. وبدلاً من أن تتهم الآخرين بأنهم يتآمرون عليك ينبغى أن تمارس حقك المشروع فى التآمر.. فمن لا يظلم الناس يظلم على رأى الشاعر زهير بن أبى سلمى.. وهذا لا يعنى الظلم الذى تعرفونه.. وإنما يعنى دفع ظلم الناس عنك.. وهو نفس المعنى الوارد فى القرآن الكريم: "فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم".. فالمقصود ليس العدوان وإنما رد العدوان والاستعداد له وتوقعه.

كل ذلك غائب عنا بسبب صراع اقنعونا بجدواه وهو صراع المصالح الذى يقال وأنا أميل إلى هذا القول إن الهدف منه هو صرفنا تماماً عن قضايا عامة وكوارث تكاد تعصف بالأمة.. يراد أن نتفرق شيعاً.. كل حزب بما لديهم فرحون أو مهمومون أو مشغولون بينما الأمة تتآكل ويجرى التهامها قطعة قطعة.. ونحن المشغولين بمصالحنا ومطالبنا وكراسينا ومناصبنا لم يتوافر لدينا حتى وعى وحكمة الثور الأحمر الذى قال: "أكلت يوم أكل الثور الأبيض".. نحن نتساقط ونؤكل ثوراً بعد ثور ومع ذلك لا نحذر ولا نشك ولا نرتاب ولا نعيد النظر ونهرول إلى آكلينا ونرتمى فى أحضانهم.. ونقول إن مصلحتنا معهم... وكأن مصلحتنا أن نؤكل ونتمزق وبالهنا والشفا.. ياعرب.. أو كأننا مصابون.. بما يسميه أهل علم النفس "الماسوكيه والماسوشيه" وهى لذة تعذيب الآخرين لنا.. نشعر باللذة ونحن نضرب على قفانا نشعر باللذة ونحن نضيف مأساة جديدة إلى جدول أعمال قممنا واجتماعات جامعتنا العربية.. نشعر باللذة ونحن نرى الثور العربى الأبيض يؤكل جهاراً نهاراً وتقف جميع الثيران العربية على كل لون فى طابور طويل.. وكل ثور ينتظر دوره.. ليتلذذ وهو يؤكل أكثر مما يتلذذ آكلوه.. بالهنا والشفا أيها الثيران.

«قالك إيه.. قالك آه»!!

لم يعد شىء فى الجراب يا حاوى.. لم يعد فى الجعبة سهام يا رام.. وما بقى لك سوى الكلام وحتى هذا لا تجيده.. فقد عجزت عن الفعل فكذبت فى القول وصدق فيك قول زهير بن ابى سلمى.. ما أرانا نقول إلا معادا من شعرنا مكرورا.

وقد قال المحدثون إن العرب ظاهرة صوتية ولكنى أقول: إننا تجاوزنا ذلك فلم نعد ظاهرة ولم يعد لنا صوت ولا ضوء.. فالذين عجزوا عن الفعل سيفقد صوتهم وقولهم مع الوقت قيمته.. وإذا غضب الله على قوم أعطاهم كثرة الجدل وقلة العمل.. فما بالنا بقوم جادلوا فأكثروا الجدال ولم يعد لهم من الفعل كثير ولا قليل؟.. وعندما يقول الكل لا يسمع أحد.. وقد انصرف الناس عن الحاوى العربى بعد ما خلا الجراب من الألعاب وعبثا يحاول استدعاء الجماهير بعباراته المكرورة المملة قرب.. قرب.. قالك إيه.. قالك آه.. عملية السلام تنور.رخاء وازدهار واستثمار بنور.. تدوس على الزر يطلع لك فرص عمل تنور والناس كفوا عن الالتفات والانتباه وأقلعوا عن الدهشة والصدمة.. ولو رقصت وطبلت وزمرت لا يصفقون ولو لطمت لا يبكون.. قتلهم الاعتياد.. وأكبر دليل على أن الجمهور قد مات أنه لم يعد يندهش ولا يستنكر ولا يتعجب.. وقد قيل قديما إن اعجب من العجب تركك التعجب من العجب.

ومن أعراض المرض فى أمتى أن المناصب صارت لمن يطلبها ويسعى إليها ويدفع ثمنها ويبذل من أجلها النفس والكرامة.. وعندما كانت الأمة فى عافية طلب العباس بن عبدالمطلب رضى الله عنه إمارة.. فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه: إن أمرنا هذا لا يناله من يطلبه.. يا عم: إن نفسا تحييها خير لك من إمارة أو دنيا لا تحصيها.. وكان الناس يفرون من القضاء والإمارة فرارهم من المجذوم أو الاجرب وكان السلاطين والخلفاء والولاة - يجلدون أناسا ويحبسونهم لاجبارهم على قبول المناصب.

ما علينا.. لا جدوى من هذه الروايات التى يعتبرها البعض من أساطير الأولين.. فالناس لا يصدقون الآن تلك الأحاديث ويرون أن التجرد والترفع ضرب من الخيال. الناس لا يصدقون أن هناك من يكره الزحام والطوابير حتى أمام باب الجنة.. لا يصدقون ان المواقع والمقاعد والمناصب صارت أرخص من أن يطلبها الشرفاء لذلك صارت تذهب إلى اللصوص وذوى الذمم الخربة الذين يستترون خلفها ليمارسوا نقائصهم ورذائلهم.. وإذا كان الناس لا يصدقون أساطير الأولين فلينظروا غربا وسيرون

دهم اليوم ما كان عندنا بالأمس.. فالمناصب تسعى إلى من هو أهل لها ولا يسعى
ها أحد.. والمناصب مسئولية وعبء ثقيل وتركها خير من البقاء فيها لأن هناك شعوبا
ية تحاسب وتعاقب وتقف بالمرصاد.. ففى الغرب يظل المرء حرا طليقا حتى يتقلد
وقعا فتصبح يداه مغلولتين.. وعندنا يظل المرء ذليلا كسيرا حتى يتقلد موقعا
نصبا.. فيتحول إلى شيطان رجيم يعبث فى الأرض فجورا وفسادا ويتسربل
حصانة ويستر عورته بالكرسى وتصبح يداه مبسوطتين للبطش والسرقة والنهب لأن
شعوب ميتة.. فالفرق فى الشعوب لا فى المسئولين وذوى المناصب.. ولو تولى الغربى
ور العرب لطغى وبغى وتجبر.. لأنه سيتولى أمر أموات مقبورين لا يضيرهم سلخهم
د ذبحهم.

وقد كنا زمان نقول عن المسئولين العرب الذين نعجب بهم ان كلامهم جميل ومنطقهم
خذ الألباب.. أما اليوم.. فلم يعد لدى مسئولينا قول جميل ولا فعل جميل.. حتى
كلام الذى كان يسكرنا ونطرب له ونطربه ونغض من أجل جماله الطرف عن قبح
فعل لم يعد له وجود.. ومع ذلك ترى الناس الآن سكارى وما هم بسكارى ولكن العذاب
ذى هم فيه شديد.. فقد أفقدتهم المعاناة الذاكرة وأفقدهم الظلم والاستبداد
صواب.. لقد أهلكهم الواقع.. وصودرت أحلامهم فأين المفر؟

نحن العرب لا نسقى حتى يصدر الرعاء.. ليس اقتداء بابنتى سيدنا شعيب عليه
سلام اللتين كانتا تنتظران حتى ينفض الزحام لسقيا ماشيتهما أو غنمهما.. كانتا
نتظران ترفعا وحياء أما نحن العرب فلم نعد لنا غنم كى نسقيها حتى عندما يصدر
لرعاء. فلا مكان لنا على النبع أو النهر أو الحوض.. فهو العجز والخور والذل وليس
لترفع والحياء.. ولن يأتينا موسى آخر ليسقى لنا إن البغاث بأرضنا يستنسر.. أى
يتحول الطائر الهزيل التافه فى أرضنا إلى نسر لأن الأعور وسط العمى سلطان
والأعرج وسط قرية كسيحة ملك.. وجبروت وظلم الظالم يتغذى بخوفنا وذلنا.. والغنى
تنوء مفاتيح خزائنه بالعصبة أولى القوة بسبب عجزنا وفقرنا وجلوسنا على قارعة
لطريق نحلم ونقول: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون.. إنه لذو حظ عظيم..إن لدينا ألف
ألف قارون استمدوا حظهم العظيم من عجزنا وانقيادنا وأملنا فى أن نصبح أمثالهم..
لكن أحدا منا لم يتحرك لكبح قارون والضرب على يديه وسؤاله: من أين لك هذا؟ بل
نحن نهتف لقارون ونصدقه عندما يقول: إنما أوتيته على علم عندى.

زهقنا من الكلام المنطوق والمكتوب فلا وزن ولا عقل لقائل ولا أذن ولا وعى لسامع..
وكل القوافل تسير وكلابنا تنبح.. وسترسم إسرائيل حدودها وتبارك أمريكا خطوها..
وينشطر العراق.. وسيحدث كل ما لا نريد ولن يحدث شىء مما نريد.. وستباع أقواتنا
وستزداد كروش اللصوص انتفاخا وسيمضى المسئولون العرب فى كذبهم على شعوبهم
وفى تنفيذ إرادات الأجنبى الذى يدينون له ولا يدينون لشعوبهم.. فعلى أى شىء نراهن؟

وعن أى شىء نكتب ونتكلم؟ وهل يمكن أن يسمعنا الذين يزغردون ويهتفون لمطرب يغنى للوطن ويزور شهادة الخدمة العسكرية فلنمت بغيظنا ولنكلم أنفسنا ولتكن نارا تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله فلا نامت أعين الجبناء.

لا بأس.. سنكلم أنفسنا.. سنقول كما قال الصوفى ذو النون المصرى: إنها كلمتى أقولها وأمشى أو أقولها وأمضى.. فهى التى ستبقى بعدى صدقة جارية أو وزرا يلاحقنى فى القبر والمحشر.. أقولها لا خوفا ولا طمعا ولا جلبا لتصفيق ولا استدرارا لعطف أو دموع ولا طلبا لإطراء.. وستذكرون أو سيذكر من يبقون بعدى ما أقول لقد ضاقت حتى استحكمت حلقاتها ولم يعد لديها ضيق أكثر من ذلك.. فهل هذه بداية الفرج أم بداية النهاية؟ فالمشكلة ليست فى كثرة المداهنين والمنافقين والقادرين على قلب الحقائق فهؤلاء كانوا وما زالوا وسيظلون فى كل آن ومكان.. لكن الآفة والنقمة والنكبة فى كثرة من يطربون للنفاق ومن يقربون المداهنين ومن يفرحون ويكافئون الذين يقلبون الحقائق ورحم الله الخليفة الأموى الراشد الخامس عمر بن عبدالعزيز الذى كان يكبح المنافقين ويجعل كلماتهم تقف فى حلوقهم.. فقد دخل عليه يوما خالد القسرى وقال له: يا أمير المؤمنين: إن كانت الخلافة قد زانت قوما فقد زنتها أنت وإن كانت شرفت قوما فقد شرفتها أنت.. فنظر عمر رضى الله عنه إلى من حوله وقال: لقد أعطى صاحبكم مقولا ولم يعط معقولا.. أى أن له قولا وليس له عقل.

وتقول العرب إن أقل الناس فعلا أكثرهم كلاما.. وإن أقدرهم على الفعل أغناهم من القول.. وقليل الحيلة تعرفه بكثرة كلامه.. وكانت قبائل خزاعة توصف عند العرب بالثرثرة وكثرة الكلام - فالخزاعى معروف بكذبه وقدرته على الكلام بلا انقطاع.. وقد سئل الأصمعى وغيره عن خزاعة فقال: خزاعة جوع وأحاديث.. فقد كانت خزاعة تكثر من الحديث لأنها الأفقر والأكثر عددا والأشد جوعا.. وكلما هبطت فى السلم الاجتماعى والاقتصادى ازداد الصوت ارتفاعا وكثر القول وتوالت الثرثرة.. ولا تنظر إلى ملابس المرأة أو الرجل أو ما يقتنيه أو ما يفوح منه من عطر لتعرف تصنيفه الاقتصادى أو الاجتماعى. بل استخدم أذنيك لتعرف فإذا كان الصوت عاليا وكان الكلام كثيرا وعرفت تفاصيل ما يدور من حديث فاعلم أن الثرثار فقير ومسحوق.. نصف بطنه طعام والنصف الآخر كلام.. ومن لا يملك القرار لا يكف عن التهديد والوعيد والسب والقذف والصراخ.. مثل العرب فهم ليسوا أصحاب قرار.. لذلك تراهم أصحاب كلام.. وهم ليسوا أصحاب انجاز لذلك تراهم أصحاب مصطلحات والسياسى العربى مثل مدرب فريق الكرة العربى أيضا.. تسمع منه كلاما كبيرا وعندما تبدأ المباراة ترى الجبل تمخض فولد فأرا.. وتكون النهاية فضيحة.

***

العرب وصافون.. أى مغرمين باضافة صفات على الشخص أو الوطن أو الشىء
فاء المهابة على ما لم يعد مهيبا أو لتعويض عجز الفعل بكثرة القول: فأنا لا أرى
ى ولا قيمة لقول المذيعات أو أى شخص واصفا مصر: مصرنا الحبيبة الغالية
يانا تزداد الرقة فيقال «مصرنا الحبيبة الغالية الأمورة».. ويقولون أيضا: سيناء
بيبة الغالية الدلوعة.. ولم يقدم أى من هؤلاء أى دليل عملى واضح على أن مصرنا
سيناء حبيبة وغالية وأمورة.. إنهم مثل العاشق الولهان الكذاب الذى يقول لفتاته:
دك وأفديك بعمرى.. وهو ليس على استعداد لأن يفديها «بشلن» فى ساعة الجد
اعة الفعل.. لكن البلهاء تطرب لهذا الكلام وتفاضل بين عشاقها بحلاوة الكلام لا
دق الفعل.. وممثلات السينما يقلن للعشاق فى الأفلام: عمرى ما سمعت منك كلمة
ة.. فحلو الكلام ولو كذبت يعجب المرأة أكثر من الفعل الصامت ولو صدق.. وجهابذة
حليل والتشخيص يتربعون أمام المشاهدين على الشاشات.. ويمدحون الرجال الذين
رون من الكلام الحلو فى فترة الخطوبة.. ويذمون ما يسمونه الخرس الزوجى بعد
واج.. وينسون أو يجهلون أن الحب بعد اتمام الزواج انتقل من خانة القول إلى خانة
عل.. فالزوج أو الزوجة يعملان حبا ولا يقولان حبا.. والله سبحانه وتعالى طالب
ـر بالعمل لا بالقول حين قال: اعملوا آل داوود شكرا.. أى اشكروا الله بالعمل لا
قول.. فلا قيمة لأن تقول لمن أعطاك شكرا لك.. ولكن القيمة أن تشكره عملا وأن
به بالفعل لا بالقول.

حن وصافون «عاالفاضى» ونتحدث كثيرا عما نفقد.. مثل استخدامنا لمصطلحات
سكرية فى وصف مباريات كرة القدم كالقذائف الصاروخية وصاروخ أرض أرض
جوم كاسح ساحق ماحق.. والمهاجم المرعب المارد العملاق.. وكتيبة المقاتلين فى
عب.. الحائط الدفاعى كل هذا حديث عما نفقده ونحلم به وهو تعويض لا شعورى
ن هزائمنا العسكرية والسياسية والاقتصادية وانهيارنا التام من المحيط إلى الخليج
ضانا بالدونية والدنية وحلمنا بمجرد التمثيل المشرف.. وحتى هذا التمثيل المشرف لا
حقق.

أيها الناس والله لا يعظنكم ملاك ولا يخطبن فيكم نبى معصوم لا يخطىء فإنى
ثلكم واجد فى نفسى ما تجدون فى أنفسكم من هزيمة وهوى وشعور باللاجدوى..
كنى أحاول أن ألوم نفسى من خلالكم وأصرخ فيها بالصراخ فيكم وأنى لا أجد فى
ذا المقام خيرا مما قال زياد بن أبى سفيان حين خطب الناس قائلا: أيها الناس: لا
منعكم ما ترون من سوء فعلنا فيكم أن تعملوا بحسن قولنا لكم. وأنتم الفائزون..
ستالون الأجر وتتركون لنا الوزر.

المغضوب عليهم والضالون!!

سألت الناس عن أسماء وزرائنا فذكر أعرفهم وأعلمهم أربعة أو خمسة ثم أمسك ولم يذكر آخرين جهلاً بهم.. رغم أن أسماء كل وزراء الحكومة تتكرر فى اليوم عشرات المرات عبر الصحف أو الشاشات أو الإذاعة.. ومن العجيب أيضاً أن المئات من طلاب المدارس والجامعات لا يعرفون اسمى وزيرى التربية والتعليم والتعليم العالى وأن المئات من الزراع لا يعرفون اسم وزير الزراعة.. وهناك من توقفت ذاكرتهم عند وزراء التسعينيات يظنون أنهم مازالوا يحملون نفس حقائبهم.. بل إن أبناء المحافظات لا يعرف كثير منهم أسماء محافظيهم والمدهش أن هؤلاء جميعاً لم يخطئ منهم أحد فى نطق اسم وصفة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية.. وأنهم جميعاً يعرفون إرئيل شارون وخليفته إيهود أولمرت.

وسألنى صديقى المندهش من نتيجة الإحصاء الخاص الذى أجريته عن سبب هذا الجهل العجيب بأسماء مسئولينا والعلم الراسخ بأسماء المسئولين فى أمريكا وإسرائيل وإيران وغيرها.. فقلت إن الناس يعرفون من يفعل وينسون من يكتفى بالقول.. والناس يمكن أن يعرفوا وزير الزراعة فى أمريكا أو إسرائيل بينما لا يعرفون أسماء كثير من الحكام العرب.. لأن وزير زراعة إسرائيل أقدر على الفعل من كثير من حكامنا العرب.

والنتيجة الأخرى التى خلصت إليها من هذا الاستبيان أو الاستقصاء أو أى اسم يهمك هى أن الناس صرفوا أعينهم وآذانهم بعيداً عن تصريحات وصور الوزراء والمسئولين العرب.. فأصبح هؤلاء المسئولون يؤذنون فى مالطا.. فلا يخاف الناس وعيدهم ولا يفرحون بوعودهم.. ويعلمون أنهم يقولون كلاماً فى الهواء ويصفه السامعون بأنه "لا يودى ولا يجيب".

ونحن نقول إن وعى الناس قد ازداد فى عصر الفضائيات وما نسميه السماوات المفتوحة.. ولكن الحقيقة أن وعى الناس ازداد فعلاً بالنسبة لأحداث الخارج وقضاياه ولكنه تراجع تماماً وغاب بالنسبة لأحداث الداخل وقضاياه.. وهناك من يقول إن الوعى غائب عن قضايا الداخل لأنها لم تعد مهمة.. لكن الخبثاء يقولون انه لم تعد هناك قضايا فى الداخل حتى يكون الوعى حاضراً.. والمشكلة فى غياب القضايا لا فى غياب الوعى.. أما الخارج فإنه يغلى بالأحداث ويموج بالقضايا.. وكلها أفعال لا أقوال ومشاكل وتحديات تخلع القلوب وتتلاحق معها الأنفاس.. ولو كانت المشكلة هى غياب الوعى لغاب عن كل شىء فى الداخل والخارج.. لكن الحقيقة هى أن قضايا الخارج ملتهبة وأحداث الداخل

فاترة وباردة ومملة.. والحركة فى الداخل بليدة وبطيئة تبعث على التثاؤب والنوم.. وتصريحات المسئولين صارت مثل حكايات قبل النوم اليومية تعاد كل ليلة لكن الأطفال يصرون على سماعها ليناموا.. ولو أنها جديدة ومثيرة لطار النوم من عيون الأطفال.

والناس ينصرفون عن تصريحات المسئولين لأنهم يعتبرونها "وردة فى كوم زبالة".. فهى تصريحات جميلة يانعة "مزهزهة" وسط واقع يكذبها وينسفها من أساسها.. وكوم الزبالة يطغى على الوردة ورائحة هذه الوردة تضيع وسط رائحة القمامة.. تماماً مثل الطبيب الذى راح يصف الدواء لمريض معدم لا يجد قوت يومه ويقول له: إنك تعانى سوء التغذية وفقر الدم وعلاجك أن تفطر كل يوم كيلو لبن وعشر بيضات وأن تتغدى "كافيار" وتتعشى "ديك رومى".. فهجم عليه المريض وخنقه حتى مات.

وهناك أناس دمهم خفيف فى زمن الدم الثقيل وتسمعهم يقولون لك: "افرض مثلاً يعنى إنه ما فيش حكومة" فى أى دولة عربية.. هل الدنيا ستخرب؟ لا والله.. قد تصبح أفضل فالأمور تسير بقوة الدفع الذاتى ونحن نأكل بعضنا ومن بعضنا.. أنت تسرقنى وأنا أنصب عليك.. "والأمور ماشية".. ويقول هؤلاء إن الفئة الوحيدة التى تعمل فى الدول العربية هى الشرطة لأنها تحمل أوزار الحكومة وأوزار الأهالى.. وفشل الحكومة وغضب الأهالى يقع على "دماغ" الشرطة.. والناس يعبرون عن سخطهم بالجرائم البشعة وبخرق القانون وكسر القواعد ورجال الشرطة لا يعرفون من أين تأتى الجريمة.. فلم تعد هناك مواصفات محددة للمجرم ولا أماكن بعينها تكثر فيها الجرائم.. وكل الجهات والمؤسسات والشوارع صارت معامل لتفريخ مجرمين على كل لون.

***

فالعاطلون مشاريع مجرمين والمدارس والجامعات صارت مهمتها الأولى تخريج مجرمين ومنحرفين وفاسدين بعد أن انهار التعليم تماماً وأصبح مسخاً مشوهاً بلا معنى.. وصار معظم المجرمين حملة مؤهلات.

والحكومة لم تعد تستطيع إثبات حضورها ووجودها فى الساحة إلا من خلال الأمن.. لكنها لا تستطيع أن تؤكد هذا الحضور بالانجاز الحقيقى وباقناع الناس من خلال الأفعال لا الأقوال.. وكلما كان علاج المشاكل أمنياً دل ذلك على قلة حيلة الحكومة وضعفها وانصراف الناس عنها.. وهكذا يصبح الوطن كله فريقين لا ثالث لهما.. فريق العسكر وفريق الحرامية.. ونظرية العسكر والحرامية لم تفلح يوماً فى حل مشكلة أو علاج أزمة.. ربما تفلح فى تسكين الآلام بعض الوقت لكن النار تبقى دائماً تحت الرماد وعندما تهب أى عاصفة يندلع الحريق ويخرج على السيطرة ويأتى على الأخضر واليابس.. وأفشل الحكومات هى التى تواجه المشاكل بتخويف الناس وإلزامهم قسرا هى تكتفى بأن الناس يخافونها ولا تهتم بأن يحبوها أو يحترموها وأفشل الحكومات هى التى تعتمد نظرية "ليقل الشعب ما يحلو له ولتفعل الحكومة ما يحلو لها".. وهذه النظرية يقابلها الشعب بمثلها ويقول الناس أيضاً "فليصرح المسئولون بما يشاءون ونحن نفعل ما نشاء".. وهكذا

يقع الطلاق البائن بين الحكومة والأهالى.. فالأهالى يرون أن الحكومة مجرد عسكر والحكومة ترى أن الأهالى حرامية.. وأحياناً أو كثيراً ما يرى كل طرف أن الطرف الآخر "حرامى".. فالحكومة تقسم بأغلظ الأيمان أنها تلاحق الفساد والمفسدين.. والأهالى يقسمون بأغلظ الأيمان.. أن ظهور المسروق ليس سوى اختلاف حرامية ولم يحدث نتيجة ملاحقة الفساد وضربه.. والحكومة ترى أن كل من ينتقدها كذاب وحاقد وموتور ومأجور ويختلق الافتراءات.. والأهالى يرون أن كل من يشيد بالحكومة منافق وكذاب وطالب سلطة أو منصب وليس محل ثقة.. والأهالى يحبون من يشتم الحكومة.. والحكومة تكره من ينحاز للأهالى وترى أنه يتاجر ويزايد بآلام الناس ومشاكلهم والحكومة ترى أن الشعب سلبى "ولو ولعت له صوابعها العشرة شمع" فلن يرضى ولن يحمد ربه.. والشعب يرى أن الحكومة لديها رصيد تاريخى من الكذب والوعود التى لا تتحقق ويراهن على أنك لو قرأت تصريحات ووعود المسئولين منذ خمسين عاماً فسترى أنها هى نفسها التى تتكرر الآن.. بدليل أن كل الحكومات منذ خمسين عاماً تؤكد أنها تعمل من أجل الأجيال القادمة.. ولا أحد يعرف متى ستولد هذه الأجيال القادمة.. فكل الأجيال التى كانت قادمة منذ نصف قرن ماتت الآن.. ومنها من مات من الغيظ ومنها من مات من الانتظار ومنها من مات باسفكسيا الحكومة.. والسبب لا يهم لأن الأسباب تتعدد والموت واحد.

والحكومة تتهم الشعب والشعب يتهم الحكومة والواقفون فى الوسط بين الفريقين من أمثالى لا يعرفون من المجنى عليه ومن الجانى.. فالحكومة تقول إن الشعب يتوالد كالأرانب وهذا التوالد يؤدى إلى تآكل الموارد وضياع جهود وانجازات الحكومة.. والشعب يقول إن الحكومة تبحث عن شماعة لتعلق عليها عجزها.. فنحن نسكن على مساحة لا تتعدى أربعة فى المائة من المساحة الكلية ببلدنا.. وأن المركزية الشديدة اختصرت الوطن كله فى القاهرة والإسكندرية وما عداهما مجرد محافظات نائية ورقعة فى ثوب الوطن فالرزق والشهرة والنجومية والخير كله فى هاتين المدينتين.. أما المحافظات الأخرى فمازالت فى العرف الرسمى مناطق لنفى المغضوب عليهم والضالين بل إن هناك بدلاً يسمى بدل المناطق النائية يصرف للذين يغضبون على أنفسهم ويعملون فى سيناء أو سوهاج أو مطروح أو الوادى الجديد.

***

وأهل الريف والصعيد وهم يستعدون للسفر إلى القاهرة يقولون "أنا رايح مصر".. فمصر هى القاهرة والقاهرة هى مصر ولا توجد مصر خارج القاهرة.. وهذا يحدث مثله فى الدول العربية.. فأهل المدن السورية الأخرى غير العاصمة عندما يشدون الرحال إلى دمشق يقولون: "نحن ذاهبون إلى الشام" وهذا السلوك يؤكد المركزية الشديدة التى تتعامل بها الحكومة.. وتطالب الحكومة الناس دائماً بأن يخرجوا من القاهرة.. المخنوقة.. بل ومن الوادى كله.. وتدعو ليل نهار إلى غزو الصحراء.. وطبعاً لا يستجيب أحد لأن الحكومة تقول ولا تفعل وكان ينبغى عليها هى أن تغزو الصحراء وتخرج من القاهرة المخنوقة.. وكنا نتمنى.. بل ونحلم وهو حلم مستحيل أن يجتمع مجلس الوزراء مرة واحدة فى سيناء أو الوادى الجديد أو قنا أو الزقازيق أو السلوم.

فة وتتصرف بسفه أحياناً فى المال العام وفى الإنفاق ثم تطالب الأهالى
وترشيد الاستهلاك.. ومن الطبيعى ألا يستجيب أحد ومن المنطقى أن
ى الرقص إذا كانت الحكومة بالدف ضارية.. والناس ملوا من ينصحهم
ظهم ولا يتعظ.. ومن يقول ولا يفعل.. لذلك لا يستجيبون.. فهم يريدون
. ومن أراد أن يقنع الناس فعليه أن يفعل ليفعلوا لا أن يقول ليفعلوا.. وكان
ول: عشت زماناً كان الناس فيه يفعلون ولا يقولون.. وعشت زماناً كان
ويفعلون.. ثم رأيت الناس يقولون ولا يفعلون.. والآن أعيش زماناً لا يقول
لون.. ويبدو أن زمان اللاقول واللا الفعل مستمر إلى الآن.. وإن كنت أرى
ان القول بلا فعل.. واللاقول واللافعل أرحم من الثرثرة بلا فعل.. فهذه
صطلحات الجميلة والكلمات ذات الدلالة الرائعة قيمتها وتصبح هذه
ة" ومثار سخرية واستهزاء الناس الذين يسمعون جعجعة ولا يرون طحناً..
قوالاً ولا ترى عيونهم أفعالاً.. وهكذا يتندر الناس ويسخرون من كلمات
لنزاهة والحياد وتطبيق القانون ولا أحد فوق القانون.. "وزهقنا" من حكاية
دها الحكومة فى كل اجتماع لها.. فكل برنامج مكون من ستة محاور.. وكل
أو ثمانية محاور.. حتى أن أحد أصدقائى يسمى الحكومة حكومة المحور
ور.. ويواصل ظرفه أو استظرافه قائلاً: زهقنا من حكومة المحور ونريد أن
لحلفاء.

الى محتاجين إلى من ينحاز إليهم ويتبنى أوجاعهم فإن الحكومة محتاجة..
الحاجة إلى من يهدى إليها عيوبها.. ورحم الله امرءا أهدى إلى عيوبى..
اجة إلى من يعيدها إلى الشعب ويعيد اليها الشعب.. وبالطبع لا يمكن أن
عن الحكومة - أى حكومة - لأن يدها دائماً فى النار والمعارضة يدها فى
قديماً: إذا سخط نصف الرعية فقط على السلطان فقد عدل.. والذين
مة فريقان.. فريق أهملته الحكومة وضغطت عليه حتى اختنق وهو فريق
ق آخر يود أن يكون هو الحكومة وهو فريق الأغنياء الذى يمارس السياسة
وإذا ضاقت الحكومة بالناس فعليها أن ترحل لأن ضيقها يعنى فشلها..
وقع النقد والهجوم بالحق والباطل وأن تدرك أن رضا كل الناس غاية لا
على الحكومة أن ترضى الله فى الناس لا أن ترضى الناس فى الله.. وعليها
اتها للناس بالمن والأذى وكأنها تتفضل عليهم.. فذلك التعالى المقيت على
فة الآفات لدى أى حكومة عربية.. فالحكومة امتلأت يقيناً زائفاً بأنها على
بدى ملاحظة أو يوجه نقداً لا يفهم.. ولا يعرف الحقائق.. أى أنها وحدها
ائق.. ومبدأ الحكومة دائماً على حق يؤكد قول صديقى إنها حكومة المحور..
أ والشعار كان يردده أحد زعماء المحور فى الحرب العالمية الثانية وهو الزعيم
يتو موسولينى الذى كان ختام كل قراراته وأوامره وشعار دولته وشعبه وقتها:
دائماً على حق وفى معركة الحكومة والأهالى.. لا يستطيع المرء أن يعرف
يهم ولا الضالين..!!

إبليس يبحث عن وظيفة !!

زمان من ألف ألف عام وقبل الطوفان كنت طالباً فى الجامعة وكانت الجامعة هى ضحى الوعى والمعرفة.. فقد كان فجر الوعى والمعرفة قد أشرق فى الإعدادية والثانوية.. وليت الوعى ما كان وليت المعرفة ما جاءت وياليتنى مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً فلا أحد ينادينى من تحتى ولا من فوقى ولا من بين يدى ألا أحزن.. بل كل شئ يدعونى ويدعوكم إلى أن نحزن ونخاف ونتوقع الأسوأ لأنه قادم لا محالة.. "فيابخت" من لا يعرف وياسعد من لا يعى.. فالمعرفة شقاء وعذاب وذو العقل يشقى فى النعيم بعقله.. وأكاد أقتنع بأن الشجرة التى أكل منها آدم وحواء هى شجرة المعرفة فقد بدت لهما سوءاتهما عندما أكلا منها.. أى أنهما عرفا وأدركا وأصابهما الوعى.. فكانت بداية رحلة الشقاء والعذاب والكَبَد.

ماذا كنت أقول؟.. نعم.. كنت أنوى أن أحكى واقعة ذات دلالة ومغزى.. فقد كنا قادمين لتونا من غيابات جب لا يكاد يرى على خريطة المحروسة.. وحملنا القطار إلى أرض الأحلام حيث القاهرة والجامعة.. ربما كنا أربعة وخامسنا كلبنا أو كنا خمسة وسادسنا كلبنا.. الله أعلم بعدتنا.. وحتى كلبنا هذا لا أدرى ما هو ومن هو ربما هو وعينا أو قلبنا أو أحلامنا أو عقلنا أو الكراتين والمقاطف التى تحمل زوادتنا وهلاهيلنا.. أى شئ.. والمهم أنه كان هناك كلب والسلام يكمل عدتنا التى لا أعلمها.

وبعد أن هبطنا بسلام فى محطة باب الحديد أردنا أن يبلغ كل منا مأمنه أو سكنه حيث تقيم مجموعة فى شبرا والأخرى فى العباسية وذهبنا إلى شبرا أولاً لتقسيم الغنائم أو الكلب الذى يكمل عدتنا.. ثم خرجنا وحط بنا الرحال فى شارع شبرا انطلاقاً إلى العباسية.. ووضعنا أحمالنا على الأرض انتظاراً للترام أو الأتوبيس. وإذا بقزم بشرى تنشق عنه الأرض وكأنه خارج لتوه من القبر.. وراح القزم يتقافز بيننا ويبدو جسده غير المتناسق مثيراً للدهشة.. وأخذ هذا القزم كل وعينا وأبصارنا وآذاننا وراح كل منا يدلى بدلوه ويتندر ويداعب القزم

طريقته حتى فوجئنا به مرة أخرى قد غاب عن الأنظار وابتلعته الأرض التى
انشقت منذ قليل وأخرجته.

وأفقنا فإذا الكراتين والقاطف والحقائب قد اختفت تماماً وابتلعتها الأرض
التى ابتلعت القزم.. وأقبل بعضنا على بعض نتلاوم ونتبادل الاتهامات بالغفلة
والبلاهة والإهمال.. ثم توالت الاقتراحات بإبلاغ الشرطة تارة.. وبتوسيع دائرة
الاشتباه فى جيراننا بالمحطة تارة.. وباستخدام القوة ضد الجميع تارة ثالثة..
لكنها جميعاً كانت تصرفات اليائسين الذين يبكون على اللبن المسكوب وينعون
الزوادة المسروقة.. ويأكلون بعضهم عجزاً وهواناً وذلاً وانكساراً وهزيمة..
الطمغة لم تكن فى الزوادة والهلاهيل الضائعة فقط.. لم تكن فى المعدة
والجسد والجيوب الخاوية أصلاً وحدها.. ولكنها كانت أيضاً طمغة فى العقل
والوعى.. وظللت سنوات طويلة أشعر بالأسى والحزن كلما تذكرت الواقعة.. ليس
على الزوادة ولا الملابس ولا الفلوس.. فعندى خير منها ولكنى كنت أحزن لأننى
تلقيت الطمغة فى الوعى والعقل.

وبعد ألف ألف عام وقع الطوفان حيث فتحت أبواب السماء بماء منهمر
وتفجرت الأرض عيوناً والتقى الماء على أمر قد قدر ونحن فى المنتصف بين ماء
السماء المنهمر وعيون الأرض المتفجرة وسفينة هشة محطمة متهالكة مثل العبارة
السلام تجرى بنا فى موج كالجبال.. وساعتها فقط هجرنى حزنى وأساى
وحسرتى على الزوادة والوعى المسروقين منى.. فقد عرفت بعد الطوفان أننى
لست الأبله وحدى.. ولست "العبيط" وحدى ولست المغفل الوحيد فى الأمة.. فما
حدث لى قبل ألف ألف عام يحدث للأمة كلها الآن.

ما حدث لى هو نفسه الذى يحدث لنا جميعاً الآن ويتلخص فى جملة حكيمة
تقول: شغلونا فسرقونا.. بدأوا بسرقة وعينا وانتباهنا وعقولنا وعيوننا وآذاننا..
فصار سهلاً جداً أن يسرقوا أوطاننا وأقواتنا وأرزاقنا ويفضوا بكارتنا برضانا
وغفلتنا على طريقة "شوف.. بص العصفورة" ونبحث عن العصفورة ونقلب
أبصارنا ذات اليمين وذات الشمال فلا نجد لها أثراً.. ثم نفيق فإذا ملابسنا
الداخلية قد سرقت وإذا فلوسنا قد اختفت.. وإذا الدنيا غير الدنيا وإذا
الأحباب كل فى طريق.

لست فى الهم وحدى.. فلماذا أحزن وأعض أنامل الحسرة والندم؟.. كلكم
أنا.. كلكم هذا المسروق بغفلته وعبطه وجذب انتباهه إلى عصفورة وهمية..

وإلى قرد أو قزم يتراقص.. ليأخذ بأبصاركم وبعد ذلك تفاجأون بأن كل شئ
ضاع وتقولون مثل قول فؤاد المهندس فى المسرحية: أنا فين..؟ أنا ضاع!

***

نوشك أن نقرأ خبراً فى الصفحات الأولى للصحف وبعنوان عريض يقول:
استقالة إبليس.. أو إبليس يعلن اعتزاله رسمياً.. أو إحالة إبليس إلى التقاعد..
أو الدعوة عامة للمشاركة فى مهرجان ومباراة اعتزال إبليس.. فقد أدرك
الشيطان الرجيم أن أساليبه بدائية وأن الزمن قد تجاوزه وأن ألاعيبه صارت
مكشوفة وأن بضاعته كسدت.. وأن تلاميذه من بنى الإنسان طوروا أساليبه
البالية وبرعوا فى الميدان وتفوقوا فى مادة "الهبالة عالشيطنة".. وصاروا أطول
منه باعاً فى مادة "شغلونا فسرقونا" فعادة ما يمارس إبليس لعبة إلهائنا ليسرقنا
من صلاتنا أو من علاقتنا بالله عز وجل.. لكن هناك دائماً أسلحة مضادة
لإفساد مخططاته كسجود السهو والاستعاذة والتعوذ والتلاوة والاستغفار.. أما
تلاميذ إبليس من البشر والذين صاروا أساتذته فلا توجد أسلحة مضادة
لهبالتهم وشيطنتهم.. فقد استولوا على جوارحنا وعقولنا وقلوبنا حتى نكاد لا
نفيق.. وراحوا بمنتهى الهدوء يسرقون الوطن والأمة والثوابت ويقتلعوننا من
الجذور اعتماداً على أننا صرنا فى غيبوبة وسكرة مثل سكرة قوم لوط.. لعمرك
أنهم لفى سكرتهم يعمهون.

وعندما يختفى اليأس والإحباط مما ينهمر من الفضاء ويتفجر من الأرض
ومن سكرة الناس التى فيها يعمهون وأيدى الأبالسة تعبث فى أجسامهم لتسرق
الشرف والكرامة أقول صارخاً: أيها الصم والبكم والعمى أنتم الفرقة الناجية إن
شاء الله.. فيا بخت من لا يسمع ولا ينطق ولا يرى فى هذه الأيام السوداء.. مع
أشد الاعتذار للون الأسود.. فمن سمع أو نطق أو رأى فقد هلك لأن الناس
جميعاً الآن بلا مناعة تحميهم مما يجرى.. الناس جميعاً مسلوبو الإرادة
يحدقون بعيونهم ويثبتون آذانهم على قضايا يثيرها الأبالسة ولا هدف لها ولا
مغزى سوى أن ينشغل البلهاء عن سرقة الأمة وبيع الوطن ونشر الفقر ونهب
الأقوات والأرزاق.. أما أنا فإننى ذو قلم مهين ولا يكاد يبين وأقف على قارعة
الطريق وسط الزحام أصرخ ولا يسمع أحد فأنزوى مهزوماً وأقول: رب إنى لا
أملك إلا نفسى.. وحتى أخى لا أملكه.. فماذا أفعل مع ضعف قوتى وقلة حيلتى
وهوانى على الناس..؟ أكاد أتراجع وأشعر بأننى نشاز.. فلا يمكن أن يكون كل
هؤلاء على خطأ وأنا وحدى على صواب.. لابد أنه "قصر ديل" منى.. والناس
أصبحوا يجمعون على الباطل.. فماذا عساى أن أفعل أنا واثنان أو عشرة

ون سطورى.. منهم تسعة أو ربما كل العشرة لا يصبرون حتى نهاية
طور..؟

نى وأمثالى مكروهون.. وهذا أمر طبيعى فالناس يكرهون من يوقظهم من
لى نومة".. وهو فى رأيهم "غلس" وسخيف ومزعج.. لكنهم يعشقون من
طب عليهم ويطفئ الأنوار ويدلك لهم أجسادهم "ويعمل لهم مساج" ليناموا..
ى إذا كان من يوقظهم يود أن يفيقوا ليقتاتوا.. وحتى إذا كان من يهدهدهم
موا سيسرقهم وهم غافون وغافلون.. دائماً المنبه مكروه والمنوم محبوب.

ظروا مرة واحدة بعقولكم.. تأملوا مرة واحدة ياناس.. لا تكونوا عبيد العادة
يدوا جرد وحصر القضايا المطروحة على الساحة.. وسوف تتأكدون أنها
ت قضايا.. ستمتلئون يقينا بأن ما حدث لى من ألف ألف عام قبل الطوفان
دث لكم الآن.. مئات القرود من عائلة ميمون وشيتا وألوف الأقزام تتراقص
لكم حاملة أوراقاً وملفات وأجندات.. وأنتم تظنون وكل ظنكم إثم أن الحكاية
د".. لكنكم سوف تكتشفون بعد خراب مالطا أن السارحين بالقرود ومن
لقوا الأقزام سرقوا وعيكم وبالكم وأذهانكم وعندما دخلتم الغيبوبة وأصابتكم
كرة قوم لوط أخذتكم الصيحة مشرقين وأصبح عاليها سافلها.. وتعالوا أيها
ثنان أو العشرة الذين يقرءون سطورى نستعرض قضايا القرود التى تسرح
مرح عبر الأرض والفضاء وعبر الصحف لنتأكد أن الشعار هو "شغلونا
سرقونا".. فهذا قرد يسرح بحكاية تحسين صورة العرب والمسلمين فى عيون
روبا.. وهذا قرد يسرح بقضية توحيد الأذان فى المساجد وإمكانية الاستعانة
صوت نانسى عجرم ليؤدى الأذان الموحد كنوع من الدعاية للصلاة وتجديد
خطاب الدينى ومنع الإزعاج.. فصوت الأذان وحده وسط هذه "الهيصة
النشاز" هو المزعج وإن أنكر الأصوات فى أمتنا لصوت المؤذنين.

***

هذا قرد يسرح بتفسير الأحلام والاحتلام فى الفضاء.. وهذه شيتا تنادى بأن
دعو الأبناء لأمهاتهم لا لآبائهم ولعل الداعية إلى هذه الثورة العظيمة تبدأ
نفسها لتصبح شيتا بنت أم السعد بدلاً من أبيها.. وعليكم أن تتوقعوا المزيد
فالأسوأ والأكثر تفاهة قادم وستكون هناك دعوة إلى نسبة المدن إلى النساء لا
إلى الرجال.. فتصبح أبوالنمرس أم النمرس.. وقس على ذلك أم قرقاص وأم
حماد وأم رواش وأم حمص وأم غالب.

والأحمق ليس من يسأل سؤالاً تافهاً أو يطرح قضية بلهاء لكن الأشد منه

حمقاً من يجيبه ومن يحاوره ويناقشه ويستضيفه.. والأشد من الجميع حمقاً وغفلة ذلك الذى يقال إنه عالم أو فقيه أو يقف على قمة الإفتاء ثم تفاجأ به ضيفاً يحاور الحمقى.. حتى لو اعترض وهاج وماج فإنه أحمق لأنه رضى أن "يعمل للحمقى قيمة" ويشاركهم فى غيهم ويسرح معهم بقرودهم.. لكنها الفلوس التى يتقاضاها هذا العالم مقابل مشاركته الحمقى فى "السرح بالقرود" ومعاونتهم فى الاستيلاء على وعينا لكى يسرقونا ويغتصبونا.

المسألة ليست صدفة.. يراد لنا أن نخرج من حكاية فارغة إلى أخرى.. وتنقلب أبصارنا بين القرود والأقزام السارحة لنغيب عن الوعى ونغرق فى السكرة حتى يتفرغ السارحون بالقرود إلى تدمير سدوم بالفوضى الخلاقة.. إنه هدم كامل من أجل بناء جديد على مزاجهم.. ونحن نلهث وراء قرد يحكم للبهائيين وقردة توصل لنا الجنس إلى المنازل وشيتا بنت أم السعد التى تريد إلغاء الرجال لأنها لم تعد بحاجة إليهم بعد أن وهن العظم وترهل اللحم.. وغداً وربما بعد ساعة ستجدون حكايات أخرى مثل ضرورة تعدد الأزواج للمرأة والسماح بزواج المحارم توفيراً للنفقات وإلغاء الوضوء للصلاة ترشيداً لاستهلاك المياه وإلغاء الأضحية رفقاً بالحيوان والاعتراف بزواج المثليين للحد من الانفجار السكانى.. لا.. لا.. لا تضحكوا أو حتى تبتسموا فهذا ليس استطرافاً منى.. فأنا لست ظريفاً ولا خفيف الدم.. إن هذا كله وأشد منه قادم.. وبالطبع وبكل ثقة أؤكد أن الإسلام أو الدين لا يغلبه غلاب.. فهو يقوى بهذا.. ويشتد عوده مع المحن وتزايد عدد القرود والأقزام.. لا خوف على الدين فهو فى رعاية الله وحراسته وحمايته ولكن خوفى عليكم أنتم.. خوفى على وطنى وأبناء وطنى وأمتى من هجوم القرود والأقزام.. يراد لنا أن نكون أمة من الخصيان الأغوات.. والطامة الكبرى أن علماء وصحفيين ومذيعين ومثقفين يشاركون فى مهرجان القرود والأقزام طلباً للشهرة والفلوس.. وأسمع من زملاء كثيرين ما يؤكد انبهارهم بما رأوا وسمعوا بل إنهم يحفظون عن ظهر قلب ما دار من حوار فما بالى ببسطاء الناس ودهمائهم؟

ويبدو وأظن أنه حق أن هذه الأمة لم تعد مصنعاً للأحداث والأخبار والأفعال التى تقلب الدنيا رأساً على عقب.. فراحت تبحث عن دور يعوضها عن التهميش والغياب فأقامت مصنعاً للقرود والأقزام الذين يسرحون بحكايات فارغة تعيد الانبهار المفقود للناس وتعيد إليهم الصدمة الغائبة.. إنها مشكلة البحث عن دور بالسباحة ضد التيار.. مشكلة جلب الشهرة والفلوس.. ولا شئ يجلب الشهرة والفلوس الآن سوى الجرأة على الله بعد أن صار الجنس كاسداً لا يبيع ولا يجد

ائن.. فالجنس يمارسه الناس فعلاً ليل نهار وليسوا بحاجة إلى متابعة أقوال
برامج عنه.. والقرود والأقزام يمارسون شجاعتهم فى مواجهة الله بينما
فضلون أن تقطع ألسنتهم ولا يتفوهون بلفظ فيه شبهة نقد لمسئول فاسد أو
جل أعمال لص ومصاص دماء بنى هرم ثروته من البودرة.

***

لقد خرج إبليس من الخدمة مفصولاً أو بالمعاش المبكر أو الاستقالة بعد أن
صار أسلوب أدائه متخلفاً وأصبح الأبالسة الآدميون من القرود والأقزام وأبناء
ميمون وشيتا هم سادة المشهد.. وها هو إبليس يرجوكم أن تجدوا له فرصة عمل
فى أى أمة أخرى بعد أن انقطع عيشه فى أمتنا.. وصرنا جميعاً نتنازع دوره
ونتصارع على مكتبه وتركته وموقعه.. فارقصوا ما شئتم مع القرود والأقزام
واغرقوا فى سكرة قوم لوط.. وإنى وإياكم لهالكون.. ولن تكون لنا حجة.. عندما
يقول لنا إبليس الجن والإنس يوم القيامة.. وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن
دعوتكم فاستجبتم لى.. يوم يتبرأ المتبوعون من التابعين ويلعن كل فريق الآخر..
وأما أنا فإننى مبسوط وفرحان لأننى بعد ألف ألف عام اكتشفت أننى لست
"العبيط" الوحيد فى هذه الأمة.. فكل منكم يقول ببلاهة وسط الطوفان.. سآوى
إلى جبل يعصمنى من الماء.. ولكن لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم..
فارحمنا يارب.

حسنة قليلة وبلاوى كثيرة!!

قالوا لنا قديما: أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة.. وقالوا لنا اكتب ما يملى عليك.. وقالوا ان المعنى فى بطن الشاعر أى احفظ الشعر ولا تسأل عن معنى.. وقالوا لا تعملوا بالسياسة ولا تتحدثوا فيها وعنها.. إلا إذا كان عملكم تأييدا وحديثكم هتافا.. وقالوا ان الدولة هى الأم والأب والقابلة والحانوتى والمحسن الكريم الذى يعطينى حسنة قليلة تمنع بلاوى كثيرة.. الدولة هى التى تمنع وتمنح وتعز وتذل.. ولا تناقش: ادفع ونفذ ثم قدم الشكوى وتظلم.. وقالوا ان شهادتك هى سلاحك فى مواجهة نوائب الدهر.. والحكومة مسئولة عن معدتك وسكنك ووظيفتك.. وعلاجك.. فى مقابل أن تصادر عقلك وتفكيرك وتشترى ولاءك.. وانتماءك.. والانتماء للوطن يعنى الانتماء للحكومة.. فالحكومة هى الوطن والوطن هو الحكومة.. حتى القضايا التى ينبغى أن تطرحها مع نفسك وتناقشها مع أصدقائك هى تلك التى تطرحها الحكومة أولا.. فالأسئلة دائما من المنهج المقرر ولا مبرر للاجتهاد أو الخروج على النص.. لأنك ستحصل على صفر كبير إذا اجتهدت.. والحكومة هى قائد السيارة ونحن ركاب لانجيد القيادة ولا نعرف الطريق.. ولايصح أن نوجه السائق أو نعترض على رعونته وسرعته الزائدة.. فنحن لا نعرف وهو يعرف اننا لا نعرف لذلك يرفض أن ينطق أحدنا بكلمة.

كل هذا وأكثر منه شربناه وهضمناه وحفظناه عن ظهر قلب وتوارثه الخلف عن السلف على مدى نصف قرن أو يزيد.. وفجأة أفقنا على كلام جديد ومناقض انخلعت له القلوب وأفقدنا التوازن.. فالحكومة تقول لنا الآن: اعتمدوا على أنفسكم.. "أنا خلاص تعبت وانهد حيلى".. زمان الميرى ولى وانقضى فقد تم تبليط الميرى ولم يعد له تراب نتمرغ فيه إذا فاتنا.. والحكومة ليس بها وظائف لأحد وشمس القطاع العام غابت.. وصرنا فى زمن القطاع الخاص الذى صار يملك الرقاب والأرزاق والمصائر.. وعلينا أن نكف عن السلبية واللامبالاة.. وأن نقبل على المشاركة السياسية وأن تكون لنا بطاقات انتخابية.. والشهادة أصبحت سلاحا فاسدا يرتد إلى الصدور والعشرة بقرش من حملة البكالوريوس والماجستير والدكتوراه.. وعلينا أن نغزو الصحراء ونقهرها بسلاحنا الفاسد هذا... وعلينا أن ننتج ونتخلى عن الكسل والاعتماد على الحكومة التى تبرأت منا وانكرت نسبنا

إليها.. وعلينا أن نؤمن بالإصلاح الاقتصادى والسياسى والاجتماعى وندفع فاتورته ولابد أن يكون هناك ضحايا للإصلاح.. ونحن فى كل الأحوال الضحايا.. ضحايا الفساد والافساد وضحايا الصلاح والإصلاح.. نحن ضحايا الاشتراكية وضحايا الرأسمالية وضحايا الانفتاح وضحايا اقتصاد السوء والخصخصة وكلما تهالك الحزام الذى نشده على البطون تشترى لنا الحكومة أحزمة جديدة.. أحزمة أمان وأحزمة خوف.. فلا توجد أزمة فى الأحزمة وكل الأنواع موجودة.. حتى حزام الزلازل أصبحنا فى قلبه.

وقد احترنا واحتار دليلنا.. فإذا رفضنا واعترضنا يقال اننا متمردون وناكرون للجميل ومثيرون للفوضى والشغب.. وإذا سكتنا وابتلعنا ألسنتنا يقال اننا سلبيون.. لا نشارك بفعل أو قول.. والحكومة غيرت نظرتها للأمور مائة وثمانين درجة عما كان الحال عليه قبل أربعين عاما.. إلا فى مجال واحد.. كل شىء أصبح خاضعا للخصخصة إلا الإنسان الذى مازال خاضعا لقوانين يوليو الاشتراكية.. عقل الإنسان وذهنه وفكره واتجاهاته.. كل ذلك مازال مؤمما ومازال قطاعا عاما ملكا للدولة.. القطاع الخاص الآن هو سيد المشهد الاقتصادى وهو الذى يملك أدوات الإنتاج ولكن الدولة هى التى تملك أدوات الفكر والإبداع والاجتهاد وتؤمم العقول.. فنحن البشر ضحايا الفكر القديم.. وضحايا الفكر الجديد وكنا مأمورين فى الماضى بالإيمان بالفكر القديم والتسبيح بحمده.. واليوم نحن مأمورون باعتناق الفكر الجديد والاتجاه إلى قبلته.. لكن المشكلة التى تواجهنا وتواجه الحكومة أننا محتاجون إلى خمسين سنة أخرى حتى نتخلص من حمامنا القديم ونعتاد الحمام الجديد.. وعلماء الاجتماع يقولون ان تكوين اتجاه لمن لا اتجاه له أسهل ألف مرة من تغيير اتجاه شخص لديه اتجاه يؤمن به ويتعايش معه.. وان استحداث قبلة لمن لا قبلة له أيسر من تغيير القبلة.. وهكذا فإن تكوين اتجاه على مدى خمسين سنة يتطلب مائة سنة لتغيير هذا الاتجاه.. ومن فتح عينيه على الدنيا ليجد الحكومة أباه وأمه يصعب عليه بعد خمسين عاما أن يفاجأ بأنه لقيط وأن الحكومة ليست أباه ولا أمه وأنها وجدته على باب الجامع وعليه أن يبحث عن أبيه وأمه الحقيقيين بين رجال وسيدات الأعمال وأباطرة القطاع الخاص.

***

وحتى الآن نحن عاجزون عن تصديق ما قالته لنا الحكومة.. وحالنا مثل حال عبدالحليم حافظ فى فيلم "الخطايا" وحسن الإمام مخرج الروائع مات ولايوجد مخرج آخر: يجعل لفيلمنا مع الحكومة نهاية سعيدة.. بحيث نكتشف أن الحكومة كانت "زعلانة مننا حبتين" وأرادت عقابنا بأن تقول للشعب على سبيل التهديد "لا

أنت ابنى ولا أعرفك.. أنا متبرية منك ليوم الدين".. ثم يتم الصلح وترجع المياه لمجاريها ويتزوج الشعب "نادية لطفى".

والحكومة تحدثنا عن الإصلاح فهل معنى ذلك أن كل ما كنا فيه على مدى خمسين عاما كان افسادا وخرابا؟.. والحكومة لاتريد أن ترفع الوصاية عن القصر.. فهى التى تتولى الافساد وهى التى تتولى الإصلاح ونحن مجرد متفرجين وجماهير فى المدرجات نهتف للعبة الحلوة وليس من حقنا الاعتراض على قرارات الحكم أو الحكومة.. فالحكومة هى اللاعبون وهى الحكام الثلاثة وهى الحكم الرابع وهى الكرة.. أو ربما نحن الكرة.

والحكومة - أى حكومة - فى كل الدول العربية تؤمن بالتدرج والتؤدة والتمهل فى الإصلاح.. لكنها تتعجل الافساد والهدم تبنى فى سنة وتهد فى ثانية.. يحدث الفساد فى لمح البصر وتحدث ملاحقته فى قرن من الزمان.. والحكومة تلاحق الفساد ولكنها لا تلحق به لأنه أسرع منها وسباق الحكومة مع الفساد مثل سباق سلحفاة مع غزال.. والشعب يعتمد على حاسة الشم فقط.. يشم الفساد ورائحته الكريهة التى تزكم الأنواف لكنه لا يراه ولا يسمعه وحاسة الشم ليست دليلا يعتد به كما أن الحكومة نفسها "عندها أنفلونزا" ولا تشم فكيف تصدق من يشم لها ؟.

والإصلاح فى العالم العربى لن يتم ولن يحدث.. لأن الشعوب لن تشارك فيه.. ليس لأنها ترفض الإصلاح ولكن لأنها منعت على مدى عشرات السنين من المشاركة.. فماتت لديها حاسة المشاركة والايجابية.. كما أن الشعوب اعتادت أن يأتيها الأمر من فوق مثل القضاء والقدر واعتادت أن تسمع وتطيع وتم حبسها عمدا وقصدا مع سبق الإصرار فى أقواتها ولقمة عيشها ومطالبها اليومية وعراكها مع المواصلات والسكن والعمل والمدرسة والفواتير.. حتى صارت تعتبر الفكر والسياسة والمشاركة ترفا لايقدر عليه ولا يمارسه إلا المرتاحون الميسورون.. فكيف لملايين العاطلين فى هذه الأمة أن يتوجهوا إلى صناديق الانتخاب ليختاروا ممثليهم؟ ربما يتوجهون إلى الصناديق لبيع أصواتهم أو للمشاركة فى طابور "الهتيفة" بثمن بخس دراهم معدودة.. فالانتخابات فى الأمة العربية موسم وحرفة ومصدر رزق مثل مولد الحسين أو السيدة.. فالناس يذهبون إلى الموالد استرزاقا لا ولاء ولا تبركا بصاحب المقام.. وكذلك فى الانتخابات يفعلون.. يذهبون استرزاقا وبالأجر لا إيمانا بصاحب الصندوق.. فالحكاية كلها مولد وصاحبه غائب أو حاضر.. والمهم هو المولد وما نجنى منه وما يجود به علينا المرشحون المحسنون.

الحكومة تأمر ونحن ننفذ.. تفرض اجندتها فى الإصلاح أو الافساد ونحن نسمع ونطيع وليس من حقنا أن نناقش أو نسأل عن معنى فى بطن الشاعر.. والحكومة

ـر منا بخمسين يوما لذلك تعرف عنا بخمسين سنة.. فهى تعرف عنا وتعرف .. وليس من حقنا أن نسأل: ما معنى الإصلاح؟ لأن "السؤال حرم" منذ نصف ـن أو يزيد.

الحكومة بسبعة ألسن والشعب بنصف لسان أو بلا لسان على الاطلاق.. لحكومة تخاطبنا كل ساعة أو فى كل مرحلة بلسان جديد.. والفكر الجديد لديها ـولى ولسانى.. لكن لا يوجد فعل جديد ولا حركة جديدة.. والمسألة مظهرية ـقط.. ومنتهى التغيير والإصلاح أن يخلع الشيخ عمامته وقفطانه ويرتدى الجينز القبعة وهكذا تقول لنا الحكومة انها أصلحت لكن الجوهر كما هو والعقل لم ـزحزح من مكانه الذى يقف فيه منذ خمسين سنة.. والفساد الذى كان هو نفسه ـفساد الذى صار.. ولكن الأساليب تطورت والأسباب تنوعت.. تتعدد الأسباب الأساليب والفساد واحد.. وبمناسبة الأسباب المتعددة فإن الحكومة تكثر من ـحديث عن التعدد.. ليس طبعا تعدد الزوجات.. ولكن تعدد الأفكار والآراء الاجتهادات والأحزاب أو ما يسمى فى عصر السوء.. التعددية.

***

والحكومة تؤمن بالتعددية اللسانية لكنها لا تؤمن بالتعددية فى الفعل.. فكل منا ـمسموح له بأن يقول ما يشاء لكنه ينبغى أن يفعل ما تشاء الحكومة.. فأنا أريد وأنت تريد والحكومة تفعل ما تريد.. وكنا نسمع من خمسين سنة قولا أو شعارا ينطلق من الحناجر: ان إرادة الشعب هى إرادة الله.. لكن الشعار ليس سوى كلام "فض مجالس".. أما الفعل فهو ان ارادة الشعب هى إرادة الحكومة.. ولا ينبغى أن تكون للشعوب إرادة.. بل ان الحكومات هى التى تريد لها وتفكر لها "فالشعوب لسة صغيرة" ولا تعرف مصلحتها.. مثل الأب الذى بلغ التسعين وابنه فى الستين.. ومازال مصمما على أن هذا الابن صغير ولا يعرف مصلحته.. حتى قال شيخ فى السبعين من عمره بعد أن شيع أباه الذى جاوز المائة: الآن فقط أصبحت رجلا.. فهل معنى ذلك أن الحكومات ينبغى أن تموت لتشعر الشعوب بأنها كبرت وبلغت الرشد؟

لا حياة لمن تناديه الحكومة ليل نهار وتطالبه بالإيجابية والمشاركة.. فالناس كفروا بالمشهد كله منذ نصف قرن أو يزيد.. حتى زهق أحد الشعراء المفوهين فى العامية يوما من تقلبنا ذات الشمال وذات اليمين وعدم استقرارنا على حال فقال معبرا عن زهقه ومله ومعبرا عنا أيضا منذ ما يزيد على الأربعين عاما: ياتبلشفونا ياترسملونا.. يلعن أبوكم على أبونا.. "حاجة تزهق" فعلا.. فما أن نغنى للاشتراكية ونقف على رأس بستانها ونلبس لها ثوبها اللائق باستقبالها حتى يدعو

الداعى إلى الرأسمالية ويطالبنا بالانفتاح والتكيف مع العولمة.. أى أننا نتمدد ثم ننكمش ونعود للتمدد حتى فاض الكيل.. والأغنياء فى كل الأحوال هم الفائزون والفقراء هم الخاسرون فالأغنياء يستفيدون من الحرب ومن السلام ومن الكساد ومن الانتعاش ومن الشيوعية والاشتراكية ومن الرأسمالية.. يستفيدون من الاستثمار ومن الاستعمار والفقراء هم الخاسرون فى كل حال ويبدو أنها "قرف" وأن المنحوس منحوس ولو علقوا فى أى "حتة" من جسمه "فانوس".

والحكومات العربية دائما تكسب الرهان على الشعوب.. فهى تكسب الرهان على ذاكرتنا وتعلم تماما أننا سرعان ما ننسى أو نتعايش مع المأساة أو المشكلة.. لذلك تكرر الحكومات اخطاءها بحذافيرها وما قالته منذ خمسين عاما تقوله الآن.. وتكسب الحكومات الرهان على وعينا الغائب دائما أو هو الوعى السجين فى الأشياء الصغيرة.. وعلى رأى نزار قبانى: "أشياؤه الصغرى تعذبنى.. فكيف أنجو من الاشياء رباه؟

.. ونحن أيضا أشياؤنا الصغرى تعذبنا وتأخذنا كلنا من أشياء الأمة الكبرى ويبدو أن الحكومات والله أعلم بالنوايا والسرائر.. تدعونا إلى المشاركة والإيجابية والتنمية والإنتاج والوعى والإدراك وفى نفس اللحظة تدعو الله فى سرها ألا نستجيب أو نشارك ونعى وندرك مثل خالتى رحمة الله عليها.. عندما كانت تغضب من أحد أبنائها ونحن أطفال فتقول له بصوت عال: "ربنا ياخدك.. يارب.. تقع وتتكسر رقبتك" وكنت أسترق السمع وأنصت جيدا بعد دعوتها لأسمعها تقول هامسة: "بعد الشر.. اسم الله عليك" والدليل على أن الحكومة غير جادة فى دعوتها لنا إلى المشاركة والوعى انها تقول ولا تفعل.. وأنها تغضب جدا من المشاركة والإيجابية.. وتضيق للغاية بمن لديه وعى وادراك.

وعلى مستوى السياسة الخارجية أو ما تسميه الحكومات العربية السياسة الخارجية "ولا هو سياسة ولا هو خارجية" يحدث نفس ما يقع فى الأمور الداخلية.. فمنذ خمسين عاما أخرسونا وألقمونا حجرا عندما قالوا: لا صوت يعلو على صوت المعركة ولا نداء اقدس من ندائها.

وسمعنا الكلام وخرسنا وتحملنا وشددنا كل أحزمة الدنيا على بطوننا وغفرنا الأخطاء والخطايا لمن "لبسونا الطرح" وتمخضت كل الجبال بعد ذلك وولدت فئرانا وصراصير وخنافس.. ونادى مناد أن أوقدوا الأنوار وأقيموا الزينات فالعدو صار صديقا والسلام قادم ومعه الرخاء.. ولأن الحكومات تكسب الرهان على ذاكرتنا الضعيفة ووعينا الغائب.. فقد هتفنا للسلام بنفس الحماس الذى هتفنا به للحرب.. وانتظرنا الرخاء.. لكن شيئا لم يأت.. فلا جاء الرخاء ولا جاء السلام..

كلنا القضية الفلسطينية لحما ورميناها عظما.. تركنا الشعب الفلسطينى يدفع
ن خطايا الأمة كلها.. وسمعنا واطعنا وطبعنا وقلنا للشعب الفلسطينى: خذ ما
ى من قضيتك وإشرب من البحر.. وتحولت قضية المصير وقضية الأمة الأولى
ى أشلاء وبقايا ومجرد دعوات على المنابر بأن ينصر الله اخواننا المجاهدين فى
لسطين.. وأن يتولى الله عنا أمر الصهاينة ومن والاهم.. وأن يرمل زوجاتهم وييتم
طفالهم ويجعلهم وأموالهم غنيمة للمسلمين.. أى اننا نطالب بأن يحاربهم لنا الله
نكتفى نحن بحصد الغنائم وكأننا أصبحنا مثل بنى إسرائيل الذين قالوا لموسى
عليه السلام: "فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون".. ونحن لا نقول
لحكومات العربية انا هاهنا قاعدون..ولكننا نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل.. إنا
لله وإنا إليه راجعون.

خيار استراتيجى للبيع!!